

حكايات أندلسية معاصرة
تشرح تاريخي سياسي اجتماعي مقارن
للصراع العربي الغربي المتواصل



دار الجندي للنشر والتوزيع – القدس

*

darjundi46@gmail.com

www.for-alsuds.org

حكايات أندلسية معاصرة تشریح تاريخي سياسي اجتماعي مقارن للصراع العربي الغربي المتواصل

عبد الجبار عدوان

الطبعة الأولى (2021).

*

جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

حكايات أندلسية معاصرة

تشریح تاریخی سیاسی اجتماعی مقارن

للصراع العربي الغربي المتواصل

عبد الجبار عدوان

الطبعة الأولى

2021 م

الإهداء :

إلى كل من يريدُ الاهتداءً بعقله

ملقا، الاندلس، صيف 2021

الفهرس

9	تمهيدٌ للكتاب
15	خرافاتُ موسى
26	من غرناطة إلى أوصلو
40	عقليةُ الدينِ الانتقاميِّ
49	الهجومُ من الشرق
57	الدينُ والغنيمةُ
66	متى سينقرضُ العربُ؟
57	الخيانةُ والخذلان
83	صناعةُ الانتصار
92	الذوبان
99	العلومُ والقوةُ
109	تاريخُ تسابقِ الخونة
119	أبتلاءُ المسلمين
131	بينَ القوةِ والتَّخلفِ
142	من النّيلِ إلى الفُراتِ
152	حتميةُ الصِّراعِ!
163	جدليةُ التَّخلفِ والتَّسلُّطِ
172	الاستيهواذُ العربيُّ والتَّنصرُ الأندلسيُّ
181	إغماضُ العينِ وإقفالُ العقلِ

189.....	ثوراتٌ ومُؤامراتٌ
200.....	مذابحٌ للمتَمَرِّدينَ
211.....	بينَ البداوةِ والحضارةِ
219.....	الحِلَافَةُ، بدايةٌ ونهايةٌ
230.....	دَسائِسُ وانقلابات
242.....	التَّجربةُ العَبَّاسِيَّةُ
252.....	سُجُونٌ وتُعْذِيبٌ
273.....	الحَسَنُ .. خيرُ الخلفاءِ
292.....	وماذا بَعْدُ؟
301.....	الاستعباد الغربي للعرب
320.....	موقعنا عام 3020
327.....	المؤلف

تمهيد للكتاب

كتبَ جُلُّ مُؤرِّخينا الأفاضل عَنِ الماضيِ عبرَ التَّنَاقُلِ الشَّفهيِّ،
وبالتَّالي لا مجالَ للدِّقَّةِ أو للحِاديَّةِ أو القُدرةِ على التَّمحيصِ، وبالطَّبَعِ؛
لا توجدُ فرصةٌ للهروبِ مِنْ تأثيراتِ السُّلطةِ السَّائدةِ زَمَنَ المُؤرِّخِ؛
لتحويلِ الماضيِ بما يُناسِبُها. بعضُ أولئك الأفاضلِ كتبوا الماضيَ البعيدَ،
وعن الشُّؤونِ التي عاصروها أيضاً، وَقَلَّةٌ منهم اختصَّ بالكتابةِ عن زمانِه
فقط، فكانَ بذلكَ يَدُوْنُ التَّاريخُ فعلاً.

التَّاريخُ الجاهليُّ ونقيضُه الإسلاميُّ؛ كُتِبَتْ فصولُهما بعدَ عدَّةِ
قرونٍ من بدايةِ الإسلامِ، ولذلك وصلَّتْنا صورةٌ سَلبيَّةٌ للفترةِ السَّابِقةِ
للإسلامِ، وأخرى وردِيَّةٌ للحِقْبَةِ اللاحقةِ وكلاهما بالطَّبَعِ غيرُ مُدَقَّقةٍ،
ومُعتمِدةٌ غالباً على الرِّوايةِ الشَّفهيَّةِ عبرَ قُرُونٍ، وعلى الأحاديثِ التي
تُبْتَنَاقِضُ آلافٍ منها، ومن ذلكَ عَدَمُ منطقيَّةِ العددِ الهائلِ مِنْ
الأحاديثِ التي تُسَيَّبُ إلى أبي هريرة مثلاً.

في واقعِ الحالِ إنَّ كثيراً مِنْ الطَّباعِ السَّائدةِ الآنَ بينَ العربِ
جاءتْ مِنْ الزَّمَنِ الجاهليِّ؛ إذ إنَّها أثَّرتْ على الإسلامِ كما أثَّرتْ
الجاهليُّونَ على مَسارِ الدِّينِ بعدَ أن أسلموا بينَ ليلةٍ وضُحاها، ودخلوا
في دينِ اللهِ أفواجاً، وتمكَّنَ القُرشيُّونَ الذين حاربوا الرِّسالةَ المُحمَديَّةَ
طويلاً - وبشدَّةٍ - من الاستيلاءِ بِسرعةٍ وسهولةٍ على الدَّولةِ
الإسلاميَّةِ، وتحويلِها إلى ملكيَّةٍ بعدَ ثلاثةِ عَقُودٍ - فقط - على موتِ
الرَّسولِ.

الأندلس؛ التي فُتحت من العرب في نهاية القرن الهجري الأول
شكّلت حالةً مُختلفةً في التّسجيل التاريخي نظراً؛ لتعددِ مصادر ذلك
التّاريخ من جهاتٍ مُتصارعةٍ، كما أنّ الفاتحين اهتموا بالتّسجيل
الدّائمي، وشجّعُ أمراء الأندلس العلم والعلماء الذين نشطوا في التّأليف
والجمع والترجمة للمؤلفات من مصادر أخرى، فتكوّنت مكتبة شاملة
للأحداث بما فيها شبه تسجيل شهريّ وسنويّ للأحداث الاجتماعيّة
والسياسيّة والاقتصاديّة والأدبيّة، أي؛ تسجيل تاريخيّ معاصر للزّمان
والمكان.

وجود هذا التّاريخ، وبسبب اندثار الأندلس لم يُغيّر في حقيقة
انتشار لاحقٍ ومُستمرٍّ لتاريخ أُمّيات أندلسيّة، وفانتازيا تاريخيّة من نوع
مُختلفٍ حتّى القرن الحادي والعشرين، بل هناك من يتمنّون العودة إلى
ذلك الزّمان المزدهر، وهم لا يعرفون أنّ ذلك الأمس يكاد يُشبهه هذا
اليوم إلى حدّ المطابقة، كونهم لا يقرؤون أو يدقّقون في الأساطير المتناقلة
لأغراض سياسيّة مُتنوّعة.

وبعد؛ يأتي هذا الكتاب ليقارن بين أمس الأندلس والدّولة
الإسلاميّة من جهةٍ، وبين يومنا الذي نعيشه؛ مُحاولاً تجلّية وجوه
التّشابه أحياناً، والتّطابق أحياناً أخرى بين الحقيقتين؛ إذ إنّهُ يُفترض بنا أن
نعرف على تفاصيل ما يدور حولنا، ونؤكد أنّ اليوم أشبه بالأمس. في
المُحصّلة؛ نستنتج أنّ النتائج ستكون مُتشابهة هي الأخرى، وبالتالي
علينا إمّا تغيير واقعنا للأفضل، أو انتظار مصير الأندلس؛ ليحلّ علينا.

فمعروف أنَّ الأندلسَ والأندلسيين، والإسلامَ، ولغتهم العربيةَ اندثروا، وأزيلوا بالقُوَّةِ المفرطةِ من شبه الجزيرة الأيبيرية، بل إنَّ الفريجة طاردوا العربَ عبرَ مضيقِ جبلِ طارقٍ، واحتلُّوا مناطقَ؛ سبتةَ ومليلةَ التي انطلق منها الفتحُ في شمالِ إفريقيا، وما زالوا يحتلُّونها حتى الآن.

اليوم؛ - وبالمُجمل - يتكرَّرُ هذا الحالُ مَعَ الغربِ المسيحيِّ، مُستغلاً الأساطيرَ اليهوديَّةَ، وصانعاً لإسرائيلَ الاستعماريَّةَ المُحتلَّةَ بدعمٍ مُطلقٍ منهم، ساعياً لاستعادةِ حوضِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ تحتَ هيمنتِهِ، وامتصاصِ خيراتِ الأرضِ العربيَّةِ النَّفطيَّةِ، وارتهانِ سياسةِ الجزيرةِ العربيَّةِ - موطنِ العربِ الأصليِّ - وحياتها بأيديهم.

النتيجةُ التي آلت إليها الأندلسُ الإسلاميَّةُ العربيَّةُ لم تتركزْ على عنصرِ الدِّينِ المسيحيِّ، والقُوَّةِ والمُثابرةِ في المُقاومةِ منهم فقط، وإنَّما بدرجةٍ كبيرةٍ جاءتِ النَّتائجُ الكارثيَّةُ بسببِ السِّياسَةِ والعقليَّةِ العربيَّةِ الصَّحراويَّةِ البدويَّةِ التي سادتْ في الجاهليَّةِ، ولم يتمكَّنِ الإسلامُ من تكييفها للأفضلِ، بل تكيَّفتْ التَّفاسيرُ في أحيانٍ كثيرةٍ؛ لتُناسبَ تلكَ العقليَّةَ التي وَضَعَتْ رؤيتها في خانةِ المُقدَّساتِ، ولا زالتْ تُسبِّبُ الكوارثَ، وهي غيرُ مُكترِثةٍ بالمُستجدَّاتِ والتَّطوُّرِ البشريِّ الاجتماعيِّ والصَّناعيِّ الإنتاجيِّ.

الجاهليُّ المُحبُّ للنِّكاحِ والرَّاحةِ والكسبِ السَّهلِ حتى لو بالغزوِ والقتلِ والسَّرقةِ والفسادِ، لا زالَ حاضِراً في كلِّ مِنَّا تقريباً، وتُشكِّلُ شخصيَّتهُ الأغلبيةُ السَّاحقةُ من شعوبنا. هذه العقليَّةُ طَعَمَتِ التَّفاسيرَ

الدينية بدايةً من تفاصيل الجئة وحياتها مُروراً بشروحات تقسيم الغنائم، ومُلك اليمين من السبايا، وهكذا تعزّز التمسك بهذه الرؤية التي أصبحت دينيةً مقدّسةً إلى درجة أن صار مرّد كثيرٍ من الكوارث التي مرّت وتمرّ بها الدُول العربية إلى عوامل دينية، وسببها بشكلٍ حاسمٍ تلك العقلية القبليّة الجاهليّة التي هيمنت على الإسلام والعرب والمسلمين، وأنتجت داعش التي - وبصراحة - تُعشّش في أذهاننا، ولو بأشكالها ورؤيتها الذكورية الاجتماعية.

مبادئ الغزو والغنيمة والتمسك في الكرسي حتى النهاية القاتلة، والخلافات وقطع الرؤوس داخل العائلة الواحدة، وممارسات الأمراء والخلفاء والسلاطين لم تتغيّر إلا في الشكل، وكذلك خيانة المسلمين لبعضهم كدُول وجيران، ومعاداة العلماء الاجتماعيين، وتحكّم الزعيم في المال والعطاء والمنع، هي بعض الأسباب التي تفرضُ التشابه المتتالي عبر أربعة عشر قرناً من الزمان، وهي التي أعطبت الدولة الإسلامية المنتفخة بما في ذلك ضياع الأندلس، والانزمام لزمنٍ أمام الصليبيين والمغوليين، واحتلال كلِّ بلاد المسلمين، وضياع فلسطين، وبداية ضياع ما حولها عبر التخريب الدّاتي، ونشر المجاعة، وفرض الهجرة للقادرين، وخلخلة الواقع السكاني؛ ليسهل هدف الغرب بإقامة إسرائيل الكبرى كراسٍ حربية؛ للهيمنة الغربية على بقية حوض البحر المتوسط، وعلى الصّحاري العربيّة، وشلُّ قدرات الإسلام مع الحفاظ عليه دون تحديثٍ كعنصرٍ أساسيٍّ لاستمرار التّخلف. وهنا أيضاً يعتمد الغرب على مساعدة المسلمين الأصوليين ويحميهم ويبادلهم الدّعم.

الكتابُ إِذَا للقُرَّاءِ العربِ، وللمسلمينَ؛ إِذ سِيهَلُ عليهم تلمُّسُ
الغايةِ والهدفِ مِنَ المحتوى المعروضِ فيه، وغيرُ مُوجِّهٍ للغربِ، وبالتالي؛
فالقصدُ والهدفُ هو المُساعدةُ في تشخيصِ المرضِ أو النَّقصِ أو الجُرحِ،
وبيانُ أسبابِ التَّخَلُّفِ، وتحليلُها ومُناقشتُها؛ تسهِيلاً لِإيجادِ الدَّواءِ، ومن
ثمَّ العلاجُ والتَّعافي، وفي المُقابلِ تأتي الإشاراتُ الواردةُ للغربِ وأهلِه
من بابِ الاهتمامِ بمراجعةِ تجربتهم، ورؤيةِ كيف خرجوا من الجهلِ
والتَّخَلُّفِ، وأصبحوا على ما هم عليه من اختلافٍ عَنَّا على مدارِ
القرنينِ المُنصرِمَيْنِ.

هذا - بالطَّبعِ - لا يَحْسِمُ بأنَّهم وصلوا للحالِ الأمثلِ المنشودِ،
فهم ذائهم يتتقدون بعضَ النَّائجِ التي وصلوا إليها مثل؛ أفعالِ
الرَّأسماليَّةِ الماديَّةِ في طبقاتِ الشَّعبِ، والتَّلاعبِ في الدِّيموقراطيَّةِ،
والتَّحكُّمِ المُسبقِ في نتائجها... ولكنِ المساوئُ عندهم لا تُقارَنُ بما لا
زلنا فيه وعليه، ولم نغادره منذَ عشراتِ القرونِ، وبالتالي؛ علينا بالبحثِ
والتَّطويرِ. وقبلَ بدايةِ الخُروجِ مِنَ التَّخَلُّفِ، وحتى لا تقتصرَ النَّتيجهُ
على المظاهرِ والقُشورِ، علينا أولاً؛ كسرُ حلقاتِ الجهلِ.

في واقعِ الحالِ؛ أصبحَ الفارقُ الثَّقافيُّ بينَ الغربِ العُلَمانيِّ،
والإسلامِ الآنَ شاسِعاً جدًّا، ويقتربُ في بعضِ جوانبه من درجةِ
التَّنَاقُضِ والتَّضادِ. فإذا أرادَ المُسلمونَ التَّطوُّرَ السَّريعَ، وبغضِ النَّظَرِ عن
رؤيتهم للغربِ، فعليهم على الأقلِّ إيجادَ آلياتِ تطبيقِ الإيجابيِّ من
تعاليمِ دينهم، مثل؛ العَدالةِ والصَّدقِ والمساواةِ والرَّحمةِ، وتمجيدِ قيمِ

العمل والإنتاج، وغير ذلك وصولاً إلى رفع حريّة المستوى الفكريّ،
ومُحاربة التّخلّف بالعمل في الاستفادة من الإيجابيّات وتعزيزها، فهذه
معركة ثقافيّة كبيرة طريقتها موسومٌ بشعار: تقديم الأفعال والمعاملة
الحسنة على العبادات، والأخذ بالعمق، وليس بالظاهر السّطحيّ،
والتّطبيق الدّائيّ دون انتظار عمل الغير من أفراد أو جماعات، ونفي
الخزَعَبَلات، واستبعاد أساطير الجِنّ والعفاريت والسّحر والاثكاليّة من
العقل المُسلم... فالصّحيح والمنطقيّ ظاهرٌ، والخطأ والخرافيّ ظاهرٌ،
وذلك من دون نفي للدين بالضرورة، وإنّما بالتّأكيد على عناصره
الإيجابيّة، وهذا ما يفعله اليهود والنّصارى.

أرجو أن تُساهم هذه الحكايات في ذلك، وهذا هو هدف
الكتاب.

خرافات موسى

ليس موسى النبي، فموسى الذي نقصده على الرُّغم من كثرة خرافاته، وأنكار علماء قومه لثبوت حقيقته، هو "موسى بن نصير"، أحد الأبطال الشعبيين، ومن بعض ضحايا الخلفاء الذين يتحكمون في الحياة والموت، كما ادعى فرعون، وفي أيديهم العطاء، وكذلك المنع.

موسى؛ كما يعرف الجميع، كان واليًا على ما صار يُعرف بالمغرب العربي، وهو من نظم عملية غزو الأندلس؛ إذ أرسل طارق بن زياد عبر المضيق المائي بين القارتين الإفريقية والأوروبية، ثم تبعه بعد عام بقوات تعزيز إضافية. هذا كله معروف، لكن المجهول هو تاريخ موسى قبل ذلك، وما خفي من قصة غزو العرب للمغرب والأندلس، وبالطبع؛ نهاية الفاتح موسى الذي مات قهرًا حين أرسل له الخليفة؛ سليمان بن عبد الملك رأس ولده عبد العزيز مملحًا في قفّة.

كان الفرنجة من بقايا القوط غارقون في الخزعبلات الدينية المسيحية، ويؤمنون بالسحر وقواه، وبقوا لقرون تبعث يلاحقون السّاحرات ويحرقونهن. عندما وصل موسى بقواته إلى شمال شبه الجزيرة الأيبيرية، والتقى هناك مع طارق بن زياد، أخذوا يفاوضون زعماء المذن، التي يحاصرونها، على شروط الاستسلام قبل الاقتحام بالقوة إذا لم يستسلموا. وتصادف أن صبغ موسى لحيته بالحناء بين اجتماعين مع زعماء الفرنجة، فظنوا أنه ساحر قادر على تغيير شكله. لاحظ موسى ظنّوهم وتخوفهم، فبالغ في الإيهام، وحقّق إنجازات

إضافية حتى مِنْ دُونِ كَثِيرٍ قِتَالٍ، فقد كانت المدينة التي تستسلم تنجو مِنْ الدَّمَارِ والقَتْلِ والسَّيِّئِ والمُصَادَرَاتِ مُقَابِلَ دَفْعِ الجِزْيَةِ والخُضُوعِ.

كانت شَعْبِيَّةُ موسى بنِ نُصَيْرٍ وأخبارُهُ قد انتشرت في العالَمِ الإسلاميِّ الواسِعِ، وئِمَّ تناقلُ مُبَالَعٍ فِيهِ عن الكَمَيَّاتِ التي سبَّاهَا وأنواعِهَا في بلادِ المَغْرِبِ ثُمَّ الأَنْدَلُسِ، وأُرْسِلَ لِلخِلَافَةِ في دِمَشْقَ نَصِييْهَا (الخُمْسِ). مِثْلُ هَذِهِ الأَخْبَارِ الشَّعْبِيَّةِ كانت -ولا زالتْ- تُثِيرُ خِوَافِ الحُكَّامِ مِنْ انْقِلَابِ مِزَاجِ العَامَّةِ، وَتَهْدِيدِ كِرَاسِيهِمْ. زَادَ الطَّيْنُ بِلَّةً؛ أَنْ موسى أُرْسِلَ إِلَى الخَلِيفَةِ؛ الوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ يَسْتَأْذِنُهُ بِمُوَاصَلَةِ الغَزْوِ لِبِلَادِ الفَرَنْجَةِ بَرًّا عِبْرَ الضَّفَّةِ الشَّمَالِيَّةِ لِلْبَحْرِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الشَّامِ عَلَى ظُهورِ الخَيْلِ مِنْ دُونِ العَوْدَةِ لِمَضِيقِ المَاءِ والمَغْرِبِ وَمِصْرَ فَالشَّامِ. هُنَا؛ وَسُوسَتِ الشَّيَاطِينُ وإِخوانَهُمْ مِنَ الحَاشِيَةِ لِلخَلِيفَةِ بِاسْتِعَادَةِ موسى وَطَارِقَ لِلشَّامِ بِأَسْرَعِ وَقْتٍ.. قَالَتِ الشَّيَاطِينُ: لو وَصَلَ موسى وَطَارِقُ إِلَى الشَّامِ عَلَى الخَيْلِ فَاتِحِينَ للضَّفَّةِ الشَّمَالِيَّةِ لِلْبَحْرِ، لَأَجْلَسَهُ الشَّعْبُ - وَصَاحِبُهُ - عَلَى كُرْسِيِّ الخِلَافَةِ.

وَصَلَ رَسولُ الخَلِيفَةِ إِلَى موسى، وَهُوَ يُلاحِظُ آخِرَ فُلُولِ القُوطِ فِي أَقْصَى الشَّامِ، بَيْنَ الحُدُودِ الإِسبَانِيَّةِ الفَرَنْسِيَّةِ الحَدِيثَةِ. طَالَبَ موسى المَبْعوثَ بِالصَّبْرِ لِبَعْضِ الوَقْتِ حَتَّى يَقْضِيَ عَلَى آخِرِ المَقَاوِمِ المُسَلَّحِينَ الَّذِينَ هَجَرُوا المُدُنَ وَتَجَمَّعُوا فِي الجِبَالِ، وَقَبْلَ اسْتِكْمَالِ المَهْمَةِ وَصَلَ مَبْعوثٌ آخَرٌ مِنَ الخَلِيفَةِ يَسْتَحِثُّ موسى عَلَى العَوْدَةِ، وَلَا يُمَهِّلُهُ حَتَّى يَوْمٍ وَاحِدٍ. تَرَكَ بَعْضَ القُوَّاتِ وَعَادَ أَدْرَاجَهُ مَعَ طَارِقٍ جَنُوبًا، وَعَيَّنَ ابْنَهُ

عبد العزيز واليًا في إشبيلية، وركب البحر، ثم البرَّ عائداً إلى دمشق. وفي الطريق التقاه مبعوثٌ من سليمان -أخ الخليفة- يطالبُه بالتَّروِّي في المسير؛ إذ كان الوليدُ مريضاً وسليمان وريثه في الخلافة يطمعُ في تلقِّي ما يحملُ موسى من كنوزٍ معه، لكنَّ موسى لم يُبطئ المسير، ووصلَ في حياة الوليد وسلمه خُمسُ العَنائِم، ثم سَجَنه سليمان بعد موت أخيه، وتولَّيه الخلافة، وأثَّهه بالاختلاس.

ماذا تقولُ كتبُ التاريخ والتَّراجم والأصول عن موسى وأصله وغنائمه: سُبِّي أبوه من الغزاة العرب حين وصلوا جبل الخليل في الشام، وكان اسمُ الأب نُصْرًا، وصُعَّرَ الاسم لهذا المولى إلى نُصَيْرٍ الذي خدمَ في دمشق حيث وُلِدَ موسى عام 19 للهجرة كمولى ابنِ مولى للأمويين، وترعرعَ كمسلمٍ في خدمةِ الأمويين العرب. لقد انضم كثيرٌ من المسيبيين في البلاد المفتوحة إلى جيوش العرب، وشاركوا في استكمال الفتوحات العربيَّة. ولما دخل مروان بلادَ مصرَ كان موسى بنُ نصيرٍ معه، فتركه عند ابنه عبد العزيز، ثم لما أخذ عبد الملك ولايةَ بلادِ العراق جعله وزيراً عند أخيه بشر بن مروان.

كتب ابنُ كثير: "وكان موسى بنُ نصيرٍ هذا ذا رأيٍ وتدبيرٍ وحزم وخبرةٍ بالحرب، قال البَغويُّ: "وليَّ موسى بنُ نصيرٍ إمرةَ بلادِ إفريقية سنةَ تسعٍ وسبعين، فافتتحَ بلاداً كثيرةً جداً مدناً وأقاليم، وقد ذكرنا أنه افتتحَ بلادَ الأندلس، وهي بلادُ ذاتِ مدنٍ وقُرى وريفٍ، فسبى منها ومن غيرها خلقاً كثيراً، وغنمَ أموالاً كثيرةً جزيلاً، ومن الدَّهَبِ

والجواهر النفيسة شيئاً لا يُحصَى ولا يُعدُّ، وأمّا الآلاتُ والمتاعُ والدُّوابُ فشيءٌ لا يُدرى ما هو، وسبى من الغلمان الحسان والنساء الحسنات شيئاً كثيراً، حتى قيلَ أنه لم يسلبَ أحدٌ مثله من الأعداء، وأسلم أهل المغرب على يديه، وبثَّ فيهم الدينَ والقرآنَ، وكان إذا سار إلى مكانٍ تُحملُ الأموالُ معه على العَجَلِ (العربات)؛ لكثرتها وعجز الدُّوابِ عنها. وقد كان موسى بنُ نصيرٍ هذا يفتحُ في بلادِ المغرب، وقتيبةُ يفتحُ في بلادِ المشرق، فجزاها الله خيراً، فكلاهما فتحَ من الأقاليم والبلدان شيئاً كثيراً، ولكن موسى بنُ نصيرٍ حظيَ بأشياء لم يحظَ بها قتيبةُ، حتى قيلَ أنه لما فتحَ الأندلس جاءه رجلٌ، فقال له: ابعثْ معي رجالاً حتى أَذْلكَ على كنزٍ عظيمٍ، فبعثَ معه رجالاً، فأتى بهم إلى مكانٍ، فقال: احفروا، فحفروا، فأفضى بهم الحُفْرُ إلى قاعةٍ عظيمةٍ ذاتِ لواوينَ حَسَنَةٍ، فوجدوا هناك منَ اليواقيتِ والجواهر والزُّبرجدِ ما أبهتَهُم! وأمّا الذهبُ فشيءٌ لا يُعبرُ عنه، ووجدوا في ذلك الموضع الطَّنَافِسَ، الطَّنَفْسَةُ؛ منها منسوجةٌ بقضبانِ الذهبِ، منظومةٌ باللؤلؤِ الغالي المُفتَحَرِ، والطَّنَفْسَةُ منظومةٌ بالجواهرِ المُثَمَّنِ، واليواقيتُ التي ليس لها نظيرٌ في شكلِها وحُسْنِها وصِفَاتِها، ولقد سُمِعَ يومئذٍ مُنادٍ يُنادي لا يرونَ شخصه: أيُّها النَّاسُ! أنه قد فُتِحَ عليكم بابٌ من أبواب جهنَّمَ، فخذوا حِذْرَكُمْ. وقيلَ إنهم وجدوا في هذا الكنزِ مائدةَ سليمان بنِ داوود التي كان يأكلُ عليها. وقد جمع أخبارَه (أخبارَ موسى)، وما جرى له في حُرُوبه وغزواتِه رجلٌ من ذريَّتِه يُقالُ له أبو معاوية في كتاب: معاركِ ابنِ مروان بن عبد الملكِ بن مروان وموسى بنِ نُصَيْرٍ.

ما قيلَ عن مائدة سليمان هو جزءٌ يسيرٌ مِنَ المَبَالِغَاتِ الضَّخْمَةِ، فلا علاقةَ لسليمان بن داوود بتلك البلادِ أو بغيرِها، فهو أسطورةٌ. كما أن الرَّجُلَ الذي أوصلَهُم للكنزِ كان بوسعِهِ أخذهُ لنفسِهِ أو لبلاده، ويواصلُ ابنُ كثيرٍ نقلَ المَبَالِغَاتِ عن الكُنُوزِ بعدَ وصولِ موسى لدمشق: "وروى الحافظُ ابنُ عساكرَ: أَنَّ عُمَرَ بنَ عبد العزيزِ سألَ موسى بنَ نُصَيْرٍ حينَ قَدِمَ دمشقَ أَيَّامَ الوليدِ عن أعجَبِ شيءٍ رأيتَ في البحرِ، فقال: أَنتَهِينَا مَرَّةً إلى جزيرةٍ فيها ستُّ عشرةَ جَرَّةً مختومةٌ بخاتمِ سليمان بن داوود -عليهما السَّلام- قال: فَأَمَرْتُ بأربعٍ منها فأخرجتُ، وأَمَرْتُ بواحدةٍ منها فنَقَبْتُ، فإذا قد خرجَ منها شيطانٌ ينفضُ رأسه، ويقولُ: "والذي أكرمَكَ بالنبوةِ لا أعودُ بعدها أُفْسِدُ في الأرضِ، قال: ثُمَّ أن ذلكَ الشيطانَ نظرَ، فقال: أَني لا أرى بهاءَ سليمان ومُلْكُهُ، فإنساخَ في الأرضِ فذهبَ، قال: فَأَمَرْتُ بالثَّلاثِ البَواقي فردَدَنَ إلى مكانهنَّ.

كان العقلُ الإسلاميُّ مَحْشُوءًا بالأساطيرِ الإسرائيليةِ عن داوود وسليمان والجنِّ والكنُوزِ والطَّيرِآن، وبالطَّبعِ حينَ تكونُ المسافاتُ شاسِعةً بينَ الحَدَثِ والروايةِ يشتعلُ التَّهْوِيلُ، ناهيكَ عن حقيقةِ أن هذه القِصَصَ سَجَّلَتْ بعدَ أكثرَ من مئتي عامٍ على الحَدَثِ. المُهمُّ؛ أن الخليفةَ الجديدَ سليمانَ اعتقلَ موسى وطالبَهُ بالأموالِ؛ لافتدائِ نفسه، وبالطَّبعِ؛ كان الرَّجُلُ قد أصبحَ غنيًّا من نصيبِهِ في الغنائمِ طوالَ سنواتِ الغزوِ من مصرَ مُرورًا بليبيا، وتونسَ، والمغربِ، والأندلسِ. وتقولُ مصادرُ إسلاميةٍ أن موسى كان يُورِّعُ من أموالِهِ أثناءَ عودَتِهِ مِنَ الأندلسِ

للشَّام، ويبدو أنه أصبح مُتوجِّسًا من سليمان حينَ طالَبَهُ بالتَّروِيَّ في المَسِيرِ.

افتدى موسى نفسه وأخذَه الخليفةُ؛ سليمان مَعَهُ في مَوْسِمِ الحَجِّ، لَكِنَّهُ اسْتَبَقَ ذَلِكَ بِإِرْسَالِ مَنْ يَقْتُلُ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى وَالْيَ الْأَنْدَلُسِ الْمُقِيمَ فِي إِشْبِيلِيَّةِ كَعَاصِمَةِ لِلْبِلَادِ آنَ ذَاكَ قَبْلَ قُرْطُبَةَ. كَانَ عَبْدُ الْعَزِيزِ قَدْ شَارَكَ إِخْوَتَهُ وَوَالِدَهُ الْغَزْوَ لِإِفْرِيْقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ، وَبَعْدَ تَوَلَّيْهِ تَزَوُّجَ ابْنَتِهِ، وَيُقَالُ زَوْجَةً، مَلِكِ الْقُوطِ الْمُتَوَفَّى (رُودْرِيك)، وَأَقَامَ مَعَهَا فِي بَيْتِ مُلَاصِيقٍ لِكَنِيسَةٍ حُوِّلَتْ إِلَى مَسْجِدٍ. أَشَاعُوا عَنْهُ انْصِيَاعَهُ لَزَوْجَتِهِ ضِدًّا رُبْعِهِ، وَأَنَّهُ تَنَصَّرَ، وَقَالُوا أَنَّهُ خَفَضَ قَوْسَ الْبَابِ؛ لِيَنْحَنِيَ كُلُّ مَنْ يَدْخُلُ إِلَيْهِ... ثَلَاثَةُ مُتَأَمِّرِينَ مِنْ قَبْلِ الْخَلِيفَةِ سُلَيْمَانَ تَرَصَّدُوهُ وَقَتَلُوهُ، وَهُوَ يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، وَقَطَعُوا رَأْسَهُ، وَوَضَعُوهُ فِي الْمَلْحِ، وَحَمَلُوهُ إِلَى مَكَّةَ... هُنَاكَ؛ وَضِعَتْ الْقَفَّةُ أَمَامَ خِيْمَةِ مُوسَى الَّذِي مَاتَ عَلَى الْفُورِ قَهْرًا مِنْ الظُّلْمِ الَّذِي أَحَاقَ بِهِ وَبَآهْلِهِ؛ إِذْ عُزِّلَ بَقِيَّةُ الْأَبْنَاءِ عَنْ مَوَاقِعِهِمْ فِي إِفْرِيْقِيَّةِ.

مَاذَا إِذَا عَنْ رَفِيقِ الْغَزْوِ وَالْغَنَائِمِ وَالطَّرِيقِ؛ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ (مَوَالِيدُ عَامِ 55 لِلْهَجْرَةِ)؟ كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَصْلٍ بَرْبَرِيٍّ، وَلَا أَقَارِبَ أَوْ مَعَارِفَ لَهُ فِي الشَّامِ... هُنَاكَ؛ أَنْطَبَقَ عَلَى زِيَادٍ مَقُولَةً؛ "قَصْ مَلْحٌ وَذَابَ" رُبَّمَا وَضَعُوهُ فِي مَكَانٍ خَفِيٍّ، أَوْ قَتَلُوهُ، فَهُوَ أَيْضًا صَاحِبُ غَنَائِمٍ، وَمُتَأَمِّرٌ مَعَ مُوسَى فِي نَظَرِ سُلَيْمَانَ وَالْحَاشِيَةِ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ اقْتَرَحَا غَزْوَ بَقِيَّةِ الْبِلَادِ الْبِيزَنْطِيَّةِ، وَكَانَتِ شَعْبِيَّتُهُمَا الْمَشْبَعَةُ بِالْبُطُولَاتِ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْوَهْمِيَّةِ

والأسطورية قد انتشرت بين الناس. حتى في زماننا الحاضر - حيثُ عصرُ سرعةِ المواصلاتِ والتواصلِ - لا زالتِ الأساطير والمباليغات تمشي كالنارِ في الهشيم بفعلِ العقليةِ التي لم تتطورَ كثيرًا عن عصرِ ابنِ زياد. وتذهبُ بعضُ الرواياتِ إلى أن طارقَ بنَ زياد لم يُقتل، ولكنه أصبح مُتسولاً في الجوامع...! هذه بالطبع؛ رواياتٌ قديمةٌ مُغرِضةٌ؛ لنسفِ أهميَّة وشجاعته. وتأتي المفارقةُ في أن أعداءه القدامى ناصبوه الاحترام، فأطلقوا اسمه على الممرِّ المائي، وعلى الجبلِ المقابل، وتعزَّزَ الاسمُ حتى الآن، بل أن حكومةَ جبلِ طارقِ التابعة لبريطانيا العظمى أصدرتْ عملةً ورقيةً حديثة (2012) عليها صورةٌ لطارقٍ شاهرًا سيفه.

لم يكنِ العالمُ المسيحيُّ الغربيُّ آنذاك كما أصبح عليه اليوم بعد 14 قرنًا من الزمان. كانت المسيحيةُ قد دخلتْ في عصرِ الخرافات، وتصديقِ السَّحرِ وقوَّةِ السَّحرة، وتحكُّمِ الكنيسةِ في حياةِ العبادِ وأملاكهم... وكان الحُكْمُ دينيًّا إقطاعيًّا. أي؛ أن الأرض وما عليها مُلكٌ للإقطاعيِّ المرتبطِ بالكنيسةِ التي كانت إقطاعيةً، وتملكُ ما يُشابهُ أملاك الدولةِ في عصرنا، فهي الدولةُ والدولةُ هي.

عقائديًّا؛ لم يكنِ الإسلامُ يختلفُ عن المسيحيةِ أو اليهوديةِ، بل هناك نصوصٌ كثيرةٌ متطابقةٌ، لكن الإسلامَ تميَّزَ آنذاك بكونه جديدًا مُندفعًا بقوَّاتٍ مُطلعةٍ إلى الغنائم التي تعودُ على المُقاتلين كأربعةِ أخماسٍ، والخمُسُ المُتبقِّي للخليفةِ نيابةً عن حُصَّةِ الرُّسولِ وآلِ البيتِ. المبدأ الذي تميَّزَ به الإسلامُ آنذاك عن المسيحيةِ الإقطاعيةِ أنه لم يعتبرِ المُسلمينَ عبيدًا،

ولم يُفرّق بينهم نظرياً، وكان بوسع كلِّ إنسان من الأقاليم المغزوة أن يتحوّل للإسلام، ويأخذ المزايا ذاتها، أو يحتفظ بعقيدته، ويدفع الجزية مقابل أن يوفّروا له الحماية والأمن. أي؛ لم يتمّ الاستمرار في امتصاص دماء البشر بعدَ عمليّات الغزو والاستقرار. وعنّ الخسائر، فقد كانت في المَدُن التي قاومت، ورفضت الاستسلام، وكانت الخسائر للأمة المحتلة عبارة عن أملاك الدولة، أي؛ أملاك الإقطاعيين، فتلك استولت عليها الدولة الجديدة.

تجدد الإشارة إلى أن النظام الكنسي الإقطاعي لم يستفد من تجربة المسلمين في الأندلس وغيرها من المَدُن، فقد استمرّ النظام المسيحي على قسوته يشحّد الهِمَمَ والطّاقات؛ للانتقام من الإسلام والمسلمين الذين أخذوا القدس ودول حوض المتوسط الشرقيّة والجنوبيّة والأندلس عبر البحر، وداخل القارة الأوروبيّة، التي أخذوها من النظام المسيحي. ففي البدايه عزّزت الكنيسة حماية الحدود والمَدُن المتاخمة للأندلس، وقد نجحوا في وقف التّقدّم الإسلامي في جنوب فرنسا وباشروا تدريجياً في استعادة شمال الأندلس، وباشروا في الحملات الصليبيّة عبر الشرق على قلب العالم الإسلامي. احتلّوا القدس سنة 88 وفعّلوا من البشاعات ما لا يُعقل. بدايه؛ من أكل الأطفال، وحتى ذبح سكان المَدُن، وسحّروا لأفعالهم آيات أنجيليّة تُشبه ما سحرته داعش مثلاً من آيات قرآنيّة لفواحشها.

تَشَجَّعَتِ الْقُوَّاتُ النَصْرَانِيَّةُ فِي شِمَالِ الْأَنْدَلُسِ بِالنَّتَائِجِ فِي الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ، وَكَانَتِ الْخِلَافَاتُ الطَّائِفِيَّةُ قَدْ بَدَأَتْ تَنْحَرُ فِي الْأَنْدَلُسِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْذُ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، فَسَهَّلَ مَعَ الزَّمَنِ دَحْرَهُمْ عَسْكَرِيًّا، وَحِينَ اسْتَنْجَدُوا بِالْمُسْلِمِينَ عَبْرَ الْعَالَمِ لَمْ يَجِدُوا مَنْ يُسَاعِدُهُمْ، فَكُلُّ مِنْهُمْ كَانَ يَسْتَنْجِدُ بِالْآخَرِينَ، وَوَصَلَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي الْأَنْدَلُسِ إِلَى اشْتِرَاكِ مُلُوكِ طَوَائِفِ فِي الْحَرْبِ مَعَ الْإِسْبَانِ ضِدَّ بَقِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ؛ سَعِيًّا لِّلْإِحْتِفَاطِ بِالْعُرُوشِ لِبَضْعَةِ سِنَوَاتٍ إِضَافِيَّةٍ.

ثُمَّ الْقُرُونُ وَتَتَوَاصَلُ الْغَزَوَاتُ الْغَرِيبَةُ لِلشَّرْقِ بِأَشْكَالٍ وَمُسْمِيَّاتٍ عِدَّةٍ؛ مُعْتَمِدَةً عَلَى الْقُوَّةِ وَالْقَهْرِ حَتَّى الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ حِينَ وَعِيَ الْمُفَكِّرُونَ وَبَعْضُ مَنْ فَنَاتِ الشَّعْبِ تَدْرِيجِيًّا؛ لَامْتِصَاصِ الْكَنِيسَةِ لِدِمَائِهِمْ، فَلَمْ يَكُنِ الْحُكْمُ الْمَلِكِيُّ الْمَسِيحِيُّ قَدْ تَطَوَّرَ كَثِيرًا عَمَّا سَبَقَهُ. قَامَتِ لَاحِقًا الثُّورَاتُ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَى فَصْلِ الدِّينِ عَنِ الدَّوْلَةِ تَمَامًا، وَتَعَمَّقَ الْحُكْمُ الدِّيْمُوقْرَاطِيُّ كَمَا نَعْرِفُهُ الْآنَ فِي الْغَرْبِ. فِي الْأَنْدَلُسِ أُنْهَوِيَ الْإِسْلَامُ وَمُلْحَقَاتِهِ تَمَامًا بِأَسَالِيبِ جَمَّةٍ غَالِبِيَّتُهَا فُظِيْعَةٌ، وَأَعَادُوا الْبِلَادَ لِلْكَاثُولِيكِيَّةِ. أَمَّا فِي الدَّوْلِ الْعَرِيبَةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي قَبْضَةِ الْإِحْتِلَالِ وَالْإِسْتِعْمَارِ الْغَرْبِيِّ بِأَشْكَالِهِ، فَلَمْ يُغَيِّرُوا الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ أَبَدًا، وَأَدْرَكُوا أَنَّ تَعَمِيقَ الْخِلَافَاتِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الشُّعُوبِ الْعَرِيبَةِ سُبُقِيهِمْ فِي الْخَضِيضِ؛ لَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ خِلَافَاتٍ وَتَخَلُّفٍ، وَبِالنَّاتَالِيِّ؛ تَسَهُّلِ السَّيْطَرَةِ عَلَيْهِمْ، وَالتَّحْكُمِ بِهِمْ. كَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَرْغَبُوا فِي تَنْصِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَصْلًا كَوْنِ الْعَقْلِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ صَعْبَةً التَّغْيِيرِ، وَتَعْتَمِدُ عَلَى الْغِيْبِيَّاتِ. كَذَلِكَ لَمْ يُنْصَرُوا الْيَهُودَ؛ لِذَاتِ الْأَسْبَابِ، بَلْ وَجَدُوا لَهُمْ مَخْرَجًا بِإِرْسَالِهِمْ

لاستعمارِ فلسطين، والسَّعيِّ للهيمنة على الدَّولِ المُحيطة، الأمر الذي سيعمِّقُ الحَسَّ والتَّعصُّبَ الدِّينِيِّينَ لدى المُسلمين، ويُطيلُ فترةَ بؤسِهِم.

اما اليهود في أوروبا فقد عانوا كثيرًا من الاضطهاد المسيحي الكَنسِيّ والشَّعبيّ حتى جاءت الحربُ العالميَّةُ الثانيةُ، ومحاولة هتلر إبادة اليهود. فعندما رحَّلَهم بريطانيا إلى فلسطين كانوا قد عايشوا تطوُّراً فكريًّا وعلميًّا وحربيًّا في الغرب، وأقاموا علاقاتٍ وتنظيماتٍ ومُؤسَّساتٍ؛ استعدادًا لاحتلالِ فلسطين. وبالفعل؛ عندما بدأت الحربُ الفلسطينيَّةُ العربيَّةُ ضدَّ الصُّهيونيَّةِ ظهرَ التَّفوقُ النَّوعيُّ اليهوديُّ الذي غلبَ التَّفوقُ العدديُّ الجاهل على كُلِّ الصُّعْد؛ في الحربِ الاقتصاديَّةِ والإعلاميةِ والنَّفسيَّةِ والعسكريَّةِ والدِّبلوماسيَّةِ، فوصلوا إلى هدْفِهِم. آنذاك؛ ظهرَ مقدارُ الاختلافِ بينَ العلمانيةِ اليهوديَّةِ والغربيَّةِ، وبينَ القبليَّةِ والعصبيَّةِ التَّراثيَّةِ، والأصوليَّةِ الدِّينيَّةِ التي سادتِ الدَّولَ العربيَّةَ والإسلاميةَ منذَ عهدِ العُزواتِ والأندلسِ حتى احتلالِ العالَمِ العربيِّ الإسلاميِّ كُلِّهِ مِنْ قِبَلِ الغربِ، واحتلالِ الصُّهيونيَّةِ لفلسطينَ مَعَ نهايةِ مرحلةِ الاستعمارِ الغربيِّ المُباشرِ للعربِ، وتقسيمِ بلادِهِم وطوائِفِهِم إلى دُوِيَّاتٍ غيرِ مُتعاونةٍ أو حتى مُتصالحَةٍ، وترتبطُ بالمُستعمرِ القديمِ.

ما الذي جرى بعد ذلك؟ نجدُ أن التَّطوُّرَ الذي حدثَ في الغربِ المسيحيِّ، وعاشَهُ اليهودُ وقُلَّدُوهُ، لم يحدثْ له مُثيلٌ في العالَمِ العربيِّ الإسلاميِّ.. للأسَف! وبالتَّأكيدِ هذا هو الفارقُ الأساس بينَ الحالَين، أو "مُربطُ الفرس" كما يقولُ المثلُّ الشَّعبيُّ. وهذا الذي لا زلنا نرى نتائجَهُ،

وما سيكتُبُ عنه أحفادُنا في المُستقبلِ مُقارِنينَ بَيْنَ الأندلسِ في الماضي،
وما جرى ويجري للعربِ والمُسلمينَ لاحقًا. فماذا نحنُ فاعِلون؟ أُنَبِّئُ
مُتفرِّجينَ على مَسَرَحِ التَّاريخِ نُشاهدُ كيفَ نذوبُ كالأندلسيينَ، ولا
نُجرُّ على التَّفكيرِ في تَغييرِ مَسارِهِ، ونتجرَّعُ خِيباتِ الماضي وألمَهُ، أم
نُزَعُ عن أنفُسِنا عباءَةَ الوَهَنِ والجَهِلِ والخِلافاتِ والتَّنَاحُرِ والتَّخَلُّفِ،
ويكونُ لنا فيما مَضَى مِنْ حَالِنا، ومن غيرِنا آيَةٌ وَعِبرَةٌ، ونُنْهَضُ بأنفُسِنا
وأُمَّتِنا؟

من غرناطة إلى أوصلو

في عام 710 ميلادية، (91 للهجرة) دخلت قوات إسلامية، غالبيتها بربرية، إلى الأندلس بقيادة طارق بن زياد، وأرفده موسى بن نصير بقوات عربية، فانتصروا في معركتهم الأولى ضد ملك القوط، وحين ارتدت أخبار النصر والغنائم لعدوه (ضفة) المغرب التحق الناس بالأندلس بكل ما يطفو على الماء .. على شاكله المهاجرين في عصرنا الحالي حيث يركبون البحر بكل أسلوب للوصول واللجوء إلى ذات الضفة الشمالية.

بعد عام دخل موسى بن نصير قائداً لقوات إضافية، وسار في طريق غير الذي سلكه طارق ليغنم المزيد من المدن بما فيها، حتى جاء أمر الخليفة من الشام بالحضور مع طارق. الجنود القوط الفارون إلى جبال الشمال كونوا بعد ذلك مملكة (أستورياس) التي أخذت على عاتقها استعادة تدريجية لما فقدوه، أو على الأقل التي أصبحت (أستورياس) نواة التصدي الايبيري المتعدد ومتطور الأشكال .. كان لسياستهم هذه، وتخاذل فئات المسلمين وارتباكهم وتقاعسهم، أن حققوا غايتهم في عام 1491، حيث سلمهم سليل بني نصر، أبو عبد الله الثاني عشر الملقب بالصغير، مفاتيح غرناطة، وهي آخر ممالك المسلمين في الجنوب الأندلسي.

سنأخذ في هذا المقام من هذه القرون الثمانية سلالة بني نصر، أو بني الأحمر نسبةً للمؤسس الذي بنى الحمراء، ويقال أن وجهه كان

أحمر، وهذا أو ذاك هو سببُ اللقب. الوثيقةُ التي سلم بموجبها السِّلِيلُ الصَّغِيرُ المفاتيحَ ل (فرنناند وإيزابيل) سميت معاهدة السلام!! نعم، هذا اسمها الرسمي كونها توفّرُ للمسلمين الغرناطيين وبقايا الأندلسيين حق الهجرة، وحملَ ما يمكنُ حملُهُ على الظهر من دون أي ذهبٍ أو حُلِيِّ، ومن يبقى فعليه أن يتنصرَ ويُرَاقبَ إلى درجة توجب أكله لحم الخنزير في وجبات الغذاء أثناء شهر رمضان، وعليه أن لا يغلق باب منزله حتى يراه الجيران، وكل عابر سبيلٍ، ويتأكد أنه لا يمارس طقوساً إسلامية خلف أبواب مغلقة. إن اقرب اتفاقية معاصرة لتلك هي اتفاقية (أوسلو) التي كما نرى تقدم الأرض للإسرائيليين ويقوم الفلسطينيون بالعمل لدى اليهود، بل وفي بناء المستوطنات، وعليهم تقبل التفرقة العنصرية وتحمل معاملة العبيد، وشراء البضائع الإسرائيلية، بل وعلى الفلسطيني حماية الإسرائيلي وهو ما جاء في اتفاقية أبو عبد الله، ومن سبقوه مع مَلِكٍ وملكة قشتالة وأسلافهم.

كان جدُّ أجدادِ الصَّغِيرِ هذا قد اتفق مع أجدادِ ملوك قشتالة على الانصياع والقتال معهم، أي إن الصغير لم يخلق اتفاقيات السلام ولكنه سار على خطى الأجداد كما سيظهر الآن. الجَد أبو عبد الله محمد الأول، الذي ولد عام 1198 ومات 1273، هو الغالبُ بالله، محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر بن الأحمر، أي؛ القبيلة المنحدرة من قبيلة الأنصار الخزرج، جماعة سعد بن عبادَة الذي اشتهر في لقاء السقيفة بعد موت الرسول، والمعروفُ أن الأنصار لم يحتلُّوا مناصب في الإسلام؛ إذ استأثر القُرشيون بالقيادة والريادة .. لكنهم، كما نرى أسسوا مملكة

غرناطة. 1236 للميلاد سقطت قرطبة في يد (فرنناد الثالث)، واهتزت أوروبا فرحاً لسقوط عاصمة الأندلس، وبكى المسلمون وواصلوا البكاء. كانت المدينة الثانية، والعاصمة الأولى للأندلس، إشبيلية قد وقعت معاهدة صلح مع (فرنناد الثالث)، ولذلك لم تتدخل في الحرب ضد قرطبة، بل كانت معاهدة الصلح تُقر بدعم قوات إشبيلية الإسلامية لفرنناد عندما يطلبها، وكان على أميرها أبو عمرو بن الجدة أن يحضر إلى البرلمان الإسباني كلما انعقد، ضمن حاشية (فرنناد).

توجس الثوار في إشبيلية شراً بعد سقوط قرطبة، فثاروا على ابن الجدة وقتلوا وزيره وألغوا الاتفاقية. هذا بالطبع بالنسبة لفرنناد الثالث يتطلب احتلال إشبيلية على الرغم من صعوبة ذلك عسكرياً. هنا طلب (فرنناد) حضور ابن الأحمر من غرناطة بقواته، لدعم القشتاليين ضد إشبيلية .. نعم، كان ابن الأحمر قد عقد هو الآخر معاهدة سلام مع (فرنناد) تُوجب عليه الطاعة والقتال إلى جانبه والسير في ركبته في المناسبات والاجتماعات مقابل عدم الاعتداء على غرناطة. التقى ابن الأحمر وقواته مع (فرنناد) وأخذ يقنع القلاع والحاميات حول إشبيلية، وفي الطريق إليها، بالاستسلام لحماية الأرواح .. هل يُذكر هذا الوضع بشيء في عصرنا الأغبى الحالي؟ ألم تهتدي بعد؟ ماذا عن فتح وحاس وإسرائيل أذاً؟ وماذا عن التحالف الدولي العربي العسكري بقيادة أمريكا ضد العراق؟ وهل يمكن أن ننسى مقاطعة ومحاصرة قطر؟ أو التحالف العربي من نصف اليمن ضد التحالف الإيراني مع نصفها الآخر، وتجويع الغلابي في النصفين! عموماً لا يوجد دولة عربية أو

إسلامية غير متحالفة مع أحد الشياطين ضد جارتها العربية أو الإسلامية .. هكذا للاختصار!!

سقطت إشبيلية في 21 نوفمبر 1248 بعد حصارٍ ستّة شهور وبمشاركة قوات الأحمر، دخلَ (فرناند الثالث) مدينة إشبيلية مزهواً بنفسه، مختالاً بقواته، يحوطه موكب ضخم، يتيه اختيالاً بما حقق من ظَفَرٍ ونصرٍ، واتجه إلى مسجد المدينة الأعظم الذي تحول إلى كنيسة، وقد وُضع به هيكل مؤقت، وأقيم في المسجد قُداسُ الشكر، ثم اتجه إلى قصر إشبيلية، حيث أدار شؤون دولته، وقام بتقسيم دُور المسلمين وأراضيهم بين جنوده كغنائم، ومن ذلك التاريخ أصبحت إشبيلية عاصمةً مملكة قشتالة النصرانية بدلاً من طليطلة في وسط الشّمال.

توالى القيادات القشتالية واحتلال بقية المدن الإسلامية في الوسط والعرب والجنوب حتى حان موعد مملكة غرناطة 1491. لكن لنترؤى في بعض التفاصيل: مات الأحمر أبو عبد الله الأول عن عمر ثمانين عاماً 1273 متأثراً من جراح في معركة ضد معارضين محليين، وكان قد عين ولده أبا عبد الله الثاني الملقب بالفقيه وريثاً. علينا ملاحظة أن الإسبان والعرب في الأندلس كانوا يتوارثون الاسم ذاته ويميزون ذاتهم بالرقم الأول والثاني حتى الأخير.

شهد عهد محمد، أبي عبد الله الثاني، الفقيه، تواصل الحرب الأهلية بين أسرته وأسرة منافسة، أشقلولة، التي تحالفت مع نبلأ مسيحيين وأمراء حرب في مدينة ملقه جنوب الأندلس، حيث حدثت

قلاقل عام 1278 واستغلَّ الفقيه الحدث واستولى على المدينة ووسع مملكة غرناطة. مع هزيمة غرمائه، منح الفقيه حكم ملقة لابن عمه وصهره، أبي سعيد فرج. وكان لمحمد الفقيه هذا، على الأقل، ثلاثة أبناء: فرج، محمد الثالث ونصر، وهذا الأخير كان ابنه من جارية مسيحية، وهذا حال سار عليه كل أمراء الأندلس منذ عبد الرحمن الداخل؛ صقر قريش حتى سلالة الأحمر.

كان الأحمر قد أوصى الفقيه بتوثيق العلاقات مع بني مرين في العدو المغربية، وبالفعل اشتركت قوات غرناطة وبني مرين في معركة ضد ملك قشتالة الجديد (الفونسو العاشر)، وانتصروا عليه بشدة مما منح غرناطة بعض الهدوء والطمأنينة من العدو القشتالي، ومواصلة بناء قصر الحمراء. لكن النصر لعب في رأس الفقيه وانقلب على بني مرين؛ خوفاً أن يستحوذوا بغرناطة، وعاد للتحالف مع ملك الإشبانية ضد أنصاره وعزز حكم سلالة الأحمر على غرناطة بدعم مسيحي. في عام 1302 توفي الفقيه الذي لقب ذاته بالسلطان، وقال وهو يحتضر إنه قد تسمم من كعكة أرسلها له ولده محمد الثالث، ولذلك أطلق الناس عليه لقب (المخلوع) عندما تولى السلطان بعد والده. بالطبع؛ عمت الاضطرابات السياسية والعسكرية والتظلم؛ لأن المخلوع باشر بتنصيب أعونه ضد رجالات الدولة الذين بدورهم تحالفوا مع نصر، الأخ الثالث للمخلوع ابن الزوجة المسيحية.. قتلوا وزير المخلوع واعتقلوه، ومن ثم نفوه إلى الإقامة في حصن المنكب بعد أن أجبر على التنازل لنصر. مثل هذه الأحداث وأفظع منها حدثت في عدة دول عربية خليجية في فترة

التأسيس بين العثمانية والاستعمار الإنجليزي، حيث تم قطع رؤوس إخوة لبعضهم مراراً.

أشتهر نصر بلقب أبي الجيوش نصر، وساءت سيرته وسيرة وزيره ابن الحاج وحكم أهل غرناطة بالقهر والبطش كونه انقلابياً، وثار عليه بعض الأمراء والوجهاء فاعتقلوه ونفوه إلى وادي (أش)، وبايعوا أبو الوليد؛ إسماعيل الأول بن فرج بن محمد الأول بن الأحمر، أي؛ حفيد الجد. هو ابن الأميرة فاطمة بنت الفقيه التي تزوجها ابن عمها وعينه الفقيه والياً على ملقه. هنا؛ تذكر أبو الجيوش نصر المعاهدات مع الإسبان، فطلب منهم الدعم كونه السلطان الرسمي، وبلاده تابعة لمملكة قشتالة. تحركت قوة ضخمة إلى وادي (أش) واشتبكوا مع القوات الغرناطية ونهبوا ودمروا، وقام إسماعيل بهجوم مضاد على جبل طارق، ولكنه فشل، وكانت النتيجة عقد هدنة ظلت سارية لبضعة أشهر. بعد استئناف القتال، نهب الإسبان بلدات حصن اللوز، بينار ومونشيكار، غير البعيدة عن غرناطة. وفي 1318، احتل الإسبان بلمز، فطلب الغرناطيون النجدة من المرينيين، إلا أن سيطرة القشتاليين على موانئ طريفة وجبل طارق، وسقوط مدينة سبته في يد المتمردين يحيى بن أبي طالب عبد الله من بني عزي، جعلت النجدة المرينية أمراً عسيراً. تواصلت عمليات النهب لأراضي غرناطة إلا أن إسماعيل تصدى لهجوم كبير في 25 يونيو 1319 في تل البيرة بوادي غرناطة، كان يهدف لاسقاط الإمارة، حيث لقي وليا عهد قشتاليان، اثنان على التوالي، بدرو، وخوان، مصرعهما وكلاهما كان وصياً على الملك الطفل.

(الفونسو الحادي عشر)، وانتصر إسماعيل نصرًا مؤزرًا. النصرُ فتحَ فترةَ هدنةٍ بين مملكةِ غرناطة، ومملكةِ قشتالة وليون. وفي بضع سنين، تمكن الملك إسماعيل من مد سلطانه ضامًا بلدات مجاورة واستعمل المدافع الجديدة آنذاك في إخضاعها.

استعادت مملكةُ غرناطة بعضَ الثقةِ على إثر الإنجاز الحربي، ويبدو أن الأعداء أرادوا الاستعداد، فتمَّ عقدُ معاهدة صلحٍ بشروطٍ أفضل قليلًا من معاهدات السلام السابقة. تَمتَّ المعاهدةُ عامَ 1321 بين السلطانِ إسماعيل وملك أراجون (خايمي الثاني)، وجاء فيها: أن يُعقد بين الفريقين صلحٌ ثابتٌ لمدة خمسة أعوام، تؤمِّن خلالها أرض المسلمين بالأندلس، وأرض أراجون تأمينًا تامًا برًا وبحرًا، وأن تُباح التجارة لرعايا كل من الفريقين في أرض الآخر. وأن يتعهد كل من الملكين بمعادة من يعادى الآخر، وأن لا يأوي له عدوًّا أو يحميه. وأن تكون سفن كل فريق وشواطئه ومراسيه آمنة، وأن يُسرح كل فريق من يؤسّر في البحر من رعايا الفريق الآخر. تضمّنت المعاهدة أيضًا نصًّا خاصًا بتعهد ملك أراجون ألا يمنع خروج المدجنين من أراضيهِ إلى أرض المسلمين بأهلهم وأولادهم وأموالهم، وهو نص يلفت النظر، إذ كان المدجنون في هذا العصر يؤلفون أقليات كبيرة في بلنسية ومرسية وشاطبة وغيرها من القواعد الشرقية، وكان ملوك أراجون يحرصون على بقائهم وعدم هجرتهم لأسباب اقتصادية وعمرانية. وكان السلطان إسماعيل يبحث عن مواطنين مهنيين ولديهم أموال ليساندوه في الداخل وفي الحروب الخارجية، كما أنه ربما كان يعرف أن نهاية المدجنين تحت

الاحتلال المسيحيّ ستكون سيئة في القريب التَّسبّي، فطالب لهم بحرية الانتقال.

كانت المعاهدة مع ملك (أراغون) ولم تشمل ممالك مسيحية أخرى في الأندلس. في عام 1324 أغار إسماعيلُ على مدينة بياسة وضربها بالمدافع حتى استسلمت، وتحرك إلى مدينة مرتش وأخذها، وكانت أعظمَ غزواته، وامتلأت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم، ثم عاد السلطان إلى غرناطة مكللاً بغار النصر. بيد أنه لم تمض على عودته ثلاثة أيام، حتى قُتل بباب قصره غيلةً، وكان قاتله ابن عمه محمد بن إسماعيل صاحب الجزيرة، وقد حقد عليه؛ لأنَّه أنزع منه جارية رائعة الحُسن ظفر بها في معركة (مرتش) وبعث بها إلى حريمه بالقصر. ولما عاتبه محمد ردّه بجفاء، وأنذره بمغادرة البلاط، فتربص به وطعنه بخنجره وهو بين وزراءه وحشميه، فحمل جريحاً حيث توفى على الأثر في تموز 1325.

كُتب على قبره على لوح من الرخام بباب قبره: "هذا قبر السلطان، فتاح الإمبراطور، وناصر ملّة المصطفى المختار، ومحيي سبيل آبائه الأنصار، الإمام العادل، الهمام الباسل، صاحب الحرب والمحارب، الطاهر الأنساب والأثواب، أسعد الملوك دولةً، وأمضاهم في ذات الله صولة، سيف الجهاد، ونور البلاد، الحُسام المسلول في نُصرة الإيمان، والفؤاد المعمور بخشية الرحمن. المجاهد في سبيل الله، المنصور بفضل الله، أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن الهمام الأعلى الطاهر الذات

والفخار، الكريم المآثر والآثار، كبير الإمامة النصرية، وعماد الدولة الغالبية، المقدّس، المرحوم أبي سعيد فرج، ابن علم الأعلام، وحامي حمى الإسلام، صنو الإمام الغالب، وظهيره العليّ المراتب، المقدّس، المرحوم أبي الوليد إسماعيل بن نصر، قدّس الله روحه الطيّب، وأفاض عليها غيث رحمته الصيّب، ونفعه بالجهاد والشهادة، وحباه بالحسنى والزيادة، جاهد في سبيل الله حقّ الجهاد، وصنّع له في فتح البلاد، وقتل كبار الأعداء، ما يجده مذكوراً يوم التناد، إلى أن قضى الله بحضور أجله، فختّم عمره بخير عمله، وقبضه إلى ما أعدّ له من كرامته وثوابه، وغبار الجهاد طيّ أثوابه، فاستشهد رحمه الله شهادةً أثبتت له في الشهداء من الملوك قدماً، ورفعت له في أعلام السعادة علماً

كان لإسماعيل أربع أبناء وأصبح اثنان منهما سلاطين من بعده، محمد الرابع، وأبو الحجاج يوسف الأول. إذًا؛ قتل السلطان إسماعيل على يد ابن عمه بسبب مسببة نصرانية. نصبوا ابنه محمداً الرابع، وكان في سن العاشرة، وتوافق أن الطفل (الفونسو) الحادي عشر بلغ سنّ الرُجولة (14)، وأمّسك بزمام حكمه، وبالطّبع استغل موت السلطان إسماعيل والفوضى والفتن في غرناطة، وباشر بالهجمات على غرناطة. كان محمد الرابع تحت إشراف جدته فاطمة بنت الفقيه، وأمّ إسماعيل، وذلك لقوّة شخصيّتها وكون علوة، أمّ محمد الرابع، كانت نصرانية ولا تُؤمّن على شحذ ولدها وتحريضه ضد قومها. كان لا بد للسلطان الطفل من الاستنجاد بسلطان المغرب أبي الحسن، الذي كان بدوره مشغولاً في حربٍ ضدّ أخيه .. مع ذلك جَهّز أبو الحسن قواتٍ لقتال

الإسبانِ دفاعاً عن غرناطة، وهذا بالطبع ما يخيفُ بعض الوزراء من الاستيلاء المغاربيّ على غرناطة، وهذا ما يدفعهم وأمثالهم على الدوام للاستنجد بالعدوِّ والوقوع في براثنه.

باشر (الفونسو) الهجوم على مدن مملكة غرناطة مثل؛ أنتقيرة والبيرة، ثم توصل الإسبان لفكرة حرب صليبية، فجلبوا قوات من مملكة نافارا وبوهيميا وإنجلترا وفرنسا، وفشلت هذه القوّات في التنسيق الحربي فيما بينهم، ولم يتمكنوا سوى من بعض القلاع والحُصون ثم انسحبوا، وهنا دخل المرينيون إلى الأندلس وهاجموا مُدن رنده والجزيرة وشرش .. كلُّ ذلك عبرَ بعض السنوات بالطبع، وهاجم محمد الرابع جبل طارق واحتلها من الإسبان وفتح بذلك خطوط الإمداد بين الأندلس الغرناطية والمغرب العربي. هنا؛ اشتعلت مخاوفُ الخونة في غرناطة فتأمروا على السلطان الشاب الذي بلغ الثامنة عشرة.

في طريق عودته مع قواته من جبل طارق، وعندما وصل إلى ملقه في 25 أغسطس 1333 أنقضَّ عليه فجأة، وقتله كل من أبي إبراهيم بن ثابت، وأبي العُلا، وهم من قادة جيوشه، وأذاعوا مع جماعتهم في غرناطة أن محمد يلبس كالمسيحيين ويتشبه بهم، وأنه وقع هدنه مع ملك قشتالة، وأنه يحتفل بالمولد النبوي تشبهاً بعيد الميلاد المسيحي .. المضحك المبكي أن متهميه بهذا هم عُملاءٌ للتُصاري، وتخوفهم الأساسيُّ كان من الدعم الإسلاميِّ المغاربيِّ لغرناطة. دفنوه في ملقه، ونصبوا أصغر أشقائه أبو الحجاج يوسف الأول. كان عمر أبي الحجاج

حين مات والده السلطان إسماعيل خمس سنوات، وهو ابن لمخضية نصرانية اسمها بهارة، لكنه كان تحت تربية جدته فاطمة والعلماء في البلاط، مثل أخيه المغدور. استلم الحكم وحدد المسؤولين عن قتل أخيه وأبادهم عن بكرة أبيهم (تربية جدته فاطمة)، فضرب مثلاً في عدم جدوى الفتن والاحتلالات، وكان سنّه قد بلغ السادسة عشر عاماً عندما أصبح سابع ملوك بني الأحمر.

هذا الحال سيُتكرّر بأشكال أخرى حتى نزول مملكة غرناطة بعد 158 سنة أخرى على يد آخر سلالة بني الأحمر أبي عبد الله الثاني عشر ابن عائشة الحرة (الحرّة، أي العربية غير النصرانية) التي تُسب لها معايرته بإضاعة الحكم .. "أبك كالنساء حكماً لم تحافظ عليه كالرجال". (سيُتكرّر الحال التأمري الاحتالي ويستمر حتى الربع الأول من القرن الحادي والعشرون) الفترة منذ الأحمر الأول الذي باشر في بناء قصر الحمراء واهتم بالإعمار وحتى اغتيال محمد الرابع، وتسلم سابع السلاطين مقاليد الحكم توصفُ، الفترة، بأنها تأسيسية للعمار، ثم تبدأ فترة الثبات والتوسع الفني والأدبي التي بدأت مع أبي الحجاج الذي، ولد بقصر الحمراء، وواصل التوسعة فيه وأكرم الأدباء والعلماء وقلدهم الوزارات، ويصفه المعاصر لسان الدين بن الخطيب: "كان أبيض، أزهر، أيدا، مليحاً، جميل الصفات، براق الثنايا، أنجل رجل الشعر أسوده، كث اللحية، وسيماً، عذب الكلام، يفضل الناس بحسن الرأي وجمال الهيئة، كما يفضلهم مقاماً ورتبة، وافر العقل، كثير الهيئة إلى ثقب الذهن، وبعد الغور، والتفطن للمعارضين، والتبريز في كثير من الصنائع

العلمية، مائلاً إلى الهدنة، مزجها للأمور، كلفاً بالمباني والأثواب، جماعةً للحلي والذخيرة، مستملاً لمعاصريه من الملوك .. بالطبع؛ بقيت جدته فاطمة ترعاه منذ الطفولة ويافعاً ثم سلطاناً حتى توفيت عن تسعين عام، وهو في عنفوان شبابه وحكمه.

قالوا عنه: برز أبو الحجاج من بين إخوته الملكُ الفنانُ الشاعرُ، والسياسيُّ الهادئُ الوقورُ، وانعكست توجيهاتُ مؤدبيه على ميوله السلمي من جانب، وعلى ما خلعه على العمارة الأندلسية من نفسيته الشاعر من جانب آخر، بما أضفاه على آثار أسلافه، من ذوقٍ فنيٍّ له روعته وسحره وجماله. كذلك حُبُّه للعلم وتقريبه العلماء، وكلفُهُ بالأدب والفنون، الذي تجلّى فيما قام به من منشآت ثقافية، ورعاية للقائمين بالأمر في هذا الميدان. أضاف أجنحة في الحمراء مثل باب الشريعة والحمامات السلطانية الشهيرة ليومنا الحاضر. شَيد المدارس الثقافية وجامعة غرناطة، ورصد لها الأوقاف للإنفاق، وممن ظهروا من العلماء في زمانه ابنُ الخطيب، وابنُ الجيَّابِ الغرناطيُّ، وابنُ زمرك، وابنُ خاتمة الأنصاريِّ، وكانت مرحلته تمثل طور النضوج بعد التكوين، ونهاية طور الانحلال والتحلُّل.

سياسياً وعسكرياً كان مُتنبهاً لخطط (الفونسو) لاحتلال غرناطة وإنهاء الإسلام في الأندلس، لذلك تعاون مع أبو حسن المريني في المغرب ولم تخلوا فترة حكمه من معارك دفاع وهجوم بدعم مغاربي .. في أكتوبر 1340 وقعت معركة طريف في مكان أول معركة بين طارق

بن زياد وملك القوط، واحتل (الفونسو) طريفَ والجزيرة وقلعة بني سعيد، واستولى على علم القوات المغربية الذي لا زال معروضاً في كنيسة طليطلة. انسحب أبو الحسن إلى غرناطة حيث التقى مع أبي الحجاج المتراجع من معركة أخرى، وانكسرت الشوكة الإسلامية، وإن لم تكن قد أنهارت تماماً. ربما تجدر الإشارة إلى اجتياح الطاعون لحوض البحر المتوسط في عهد أبي الحجاج، وكانت ملقه مثلاً تدفن الضحايا بالآلاف في مسيرات جنائزية عام 1349.

قضى السلطان أبو الحجاج يوسف الأول يوم العيد الأصغر في مسجد الحمراء بيد مخبول ومجهول، عاجله بطعنة نافذة، بعد أن هجم عليه وهو ساجد، أثناء أدائه سنة عيد الفطر من عام 755 هـ / 19 أكتوبر عام 1354م، ولم يتجاوز عمره السابعة والثلاثين إلا بأشهر قلائل. وكان للسلطان السابع ثلاث محظيات أنجب اثني عشر من الأبناء والبنات. تولى الملك من الأبناء فور مصرع أبي الحجاج كبيرهم محمد الخامس المكنى بأبي عبد الله، والمعروف بالغني بالله، وذلك حتى عام (1359م) ثم ثار عليه أخوه إسماعيل الثاني، ثم استرد محمد الخامس ملكه من جديد، وبقي متربعا على العرش حتى توفي عام (1392م) ولم يقتل من الأبناء إلا قيس، أصغر أولاد السلطان يوسف الأول، فقد مات مقتولا.

هكذا فقد استولى الأحمر الأول على مملكة غرناطة 1238 وتناولها أولاده وأحفاده حتى وفاة محمد الخامس عام 1392 ويستمر

تناولهم للحكم لمدة عام أخرى من تراجع وتهادنٍ وفتنٍ سياسيةٍ تحكمها ظروفُ الانهزام، واشتداد عزم الممالك النصرانية في جغرافية الأندلس السابقة. لقد قيل الكثير عن خذلان بقية المسلمين والعرب للأندلس، لكن العالم العربيُّ كان يتعرَّضُ لحملاّتٍ صليبيةٍ موازيةٍ لمحنة الأندلس .. ففي عام 1099 كانت الحملة الأولى قد احتلت القدس ودمرت ما في طريقها عبرَ الشَّرقِ، وتبعها ثمانِي حملاتٍ رئيسةٍ كان آخرُها عام 1270 وتبعتها غزوات على الشواطئ حتى 1369، بينما كانت الحروبُ في الأندلس تمثلُ حملاتٍ من الغربِ تطرَّدُ العربُ والمسلمينَ من الأندلس وتلاحقُهم إلى العدوَّة المغربية.

عقلية الدين الانتقامي

في 28 سبتمبر 1009 خرج الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله عن سياسة أجداده المتساعحة وصادر الأوامر بهدم الأديرة والكنائس ومنها كنيسة القيامة في القدس التي تعتبر أقدس مقدسات المسيحيين، وأطلق الشعب على الخليفة لقب المجنون، وأسماء المثقفون نيرون الإسلام. صار هذا الحدث فرصة للقيادات الدينية السياسية الحاكمة في دول أوروبا للتحريض الإضافي على الإسلام والمسلمين. كان قد مر 372 سنة على سيطرة المسلمين على فلسطين والقدس والشام المجاورة، وتبعها فقدان المسيحيين لدول جنوب البحر المتوسط الذي كان الرومان يسمونه "مجرناً" بدايه من مصر ووصولاً إلى الأندلس وجنوب فرنسا، حيث تمكن النصارى من وقف الزحف الإسلامي في معركة بلاط الشهداء بين مدينتي تور وبواتيه عام 732 ميلادية.

كان التحريض النصراني الغربي؛ لاسترداد البلدان المفقودة قد بدأ منذ زمن وخصوصاً في الأندلس بعد نتائج معركة بلاط الشهداء، ووقف الزحف الإسلامي .. إلى جانب هدم كنيسة القيامة لاحقاً وجدت أسباباً اقتصادية بحثة دفعت برجال الدين والسياسة؛ للتحريض على الغزو والنهب والغنائم بحجة الدين والدفاع عن المقدسات المسيحية. بالتأكيد استوعب هؤلاء تجربة المسلمين في الفتوحات؛ لأنهم طبقوها حين استعدوا لأولى الحملات الصليبية، قتل وسي ونهب

وتدمير ما لا يُحمل، ولكنهم لم يراعوا حُرُماتٍ، ولم يتقبلوا هدنةً واستسلاماً، ودفعَ جزيةً مُقابل الحماية.

الحياة شيءٌ متطور على الدوام، خصوصاً لو نظرت إليها برؤيةٍ تاريخيةٍ غير يوميةٍ. حوضُ البحر المتوسط كان موطناً لأمم وأجناسٍ متتاليةٍ متمازجةٍ ومتعايشةٍ دينياً قبل اكتشاف الديانات التوحيدية. كما أن هذا المحيط عايش لغاتٍ متعددةٍ متتاليةٍ في البقعة الواحدة .. إذا قال العربُ إن دول حوض البحر لهم واستردُّوها بالفتوحات فهذا غير صحيح، فقد كانت تابعةً للرومان وقبلهم اليونان وقبلهم الفنيقيون والكنعانيون وشعوب البحر، والكثير ممن سبقوهم، ولكل أمةٍ دياناتها ولغتها وتاريخها وأحفادها .. شأنُ الملكية للأرض لا يمكنُ إثباتها عبر أزمانٍ من الأزل لتملكها إلى الأبد، لكن الأجيال المعاصرة لحدث ما تتأثر بنتائجه، خصوصاً إذا استعملت أحد الأديان التوحيدية لتأكيد الملكية كونها أدياناً متناحرةً بالضرورة؛ لأنها لا تعتمدُ رباً واحداً على الرغم من كل التلفيقات، وتكونُ النتيجة حروباً وكراهيةً وعنصريةً.

إذا؛ هدمَ وحرقَ الحاكمُ بأمر الله الكنائسَ ومنها القيامةُ، فحرَّضَ البابا؛ وكيل الله على الأرض، وبدوره حرض الرعية للانتقام، وطمعَ الأمراءَ والفرسان والفُقراءُ في غزو الأغنياء المسلمين ضمن شريعة العنف السافر؛ توفيراً لأي خلافات واجتهادات فكرية. وتصادف ذلك مع أخبار التراجُع والخلافات، وانهيار الخلافة الأموية في الأندلس فاعتبروا الفرصة قد حانت.

في عام 1002 مات الحاجب المنصور بعد 21 عاماً من الحكم باسم الخليفة الأموي الطفل هشام ابن الحكم ابن الناصر؛ الحفيد العاشر لعبد الرحمن الداخل مؤسس الخلافة الأموية في الأندلس. وللحاجب هذا؛ محمد العامري، قصة طويلة أدت إلى نهاية الخلافة، وبدايه مرحلة ملوك الطوائف والانهيال، ولا بُد من إيجازها حتى نفهم سبب حب البعض من المسلمين للحاجب، واتهامه من آخرين كسبب البلاء.

كان محمد العامري كاتباً أمام جامع قرطبة للعرائض والشكاوى، وصدف أن كتب عرائض لنصاري، ووصل صيته إلى صبح (أورورا)، زوجة الخليفة الحكم، وصار يقدم لها الهدايا الغريبة الصنع حتى عيته كاتباً لطفلها عبد الرحمن، وبعد وفاة الطفل واصل عمله لأخيه هشام. مرت السنون وتمكن محمد من منصبه ثم انضم إلى الجماعة الحاجبة والمربية لهشام، وقبل وفاة الحكم عين ولده ولياً للعرش بضغط من صبح (نصرانية أم ولد) ولم يكن الخليفة الحكم قد أنجب من غيرها. اتفق محمد وبقية الحُجَّاب على تعيين هشام خليفة، وباشروا باسمه السَّيطرة، وعندما تخوفوا من الانقلابات قتل محمد أعمام هشام إخوة الخليفة الحكم، ثم قتل بقية الحُجَّاب، واعتقل صبح وابنها في إقامة جبرية في مدينة الزهراء .. لم يعلن ذاته خليفة وإنما حاجباً منصوراً للخليفة هشام. حتى يضمن التقبل الشعبي والسُّكوت من الأمراء، وحكام الولايات في الأندلس التي كانت تضم آنذاك كل شبه الجزيرة الايبيرية .. ولضمان الولاء باشر بالحملات للغزو مرتين بدلاً مرة كل عام، وهذا يؤدي لإشغال الأمراء والجيوش في الغزو والنهب من الغارات داخل المُدُن

الفرنسية. كانوا يغزون ويسبون ويتهادون السبّايا من دون أن يحتلوا أي بلاد، فلم يكن هدفهم التوسع، ونشر أي مبادئ، وإنما الغنائم وتوزيعها واسترضاء العامة والخاصة، كما أنّ الحاجب أكثر من البربر في الجيش، وسلّمهم مناصب، ليضمن الولاء ضد العرب والأندلسيين.

أفهم محمد العامري أولاده أنه سيورثهم الحِجَابَةَ باسم هشام، لكن أحدهم (عبد الله) تأمر مع الإسبان لقلب النظام، فأمسك به والده وذبحه. في أواخر غزواته كان الحاجب يُحمل على سرير لأنه مصاب بالنقرس ولا يتمكن من السير على قدميه وكان يتمنى أن يفقد كل ملكه وأملاكه مقابل صحة وأقدام أحد العبيد الذين يحملون سريره .. مات الحاجب وتولى أحد أولاده، فثار الناس عليه بعد حين، وبدأت محاولات إعادة كرسي الخلافة للأمويين الذين تبعثروا في زمن الحاجب نتيجة للإرهاب المبتكر الذي مارسه ضد المعارضين، ومن قد يصبحوا معارضين .. القصة طويلة ويتخللها حرب أهلية وقيام البربر على سكان قرطبة، وإحراق مدينة الزهراء ونهبها، ثم قصور الزّاهرة في قرطبة التي أقامها العامري، واستمر المدُّ والجذبُ حتى اختار كبارُ القوم تعيين أبي الحزم بن جهور .. هذا الإنسان على الرغم من محاسنة في الإدارة كان ضيقَ الأفق، فقد أعلن نهاية الخلافة الأموية في الأندلس، أي؛ نهاية دور قرطبة في إدارة البلاد، وحرص على طرد كل بني أمية وإجلائهم عن قرطبة لعدم أهليتهم للحكم وكثرة الفوضى بينهم، أو كلما أراد أحدهم تولي الخلافة .. وهكذا أعلنت نهاية الخلافة وأعلن كل أمير ولايةٍ معيّن في الأندلس من قبل بني أمية، أعلن نفسه ملكاً على

ولايته، يعين فيها أهله وعائلة وصار هناك 22 مملكة (ذات عدد دول جامعة الدول العربية) بدأت تتنافس على التوسع على حساب جيرانها من الممالك الإندلسية الإسلامية، وبالطبع؛ انفتح باب التآمر مع الإسبان ضد الاخوة الجيران، وبدأ الانهيار من الشمال ثم الوسط؛ اذ سقطت طليطلة (1084) بعد خمسين عام على أحداث قرطبة، حتى وصل الحال إلى بقاء مملكة غرناطة في الجنوب كآخر الممالك، ثم دُبِلَتْ وذهبت هي الأخرى بعد أربعة قرون.

يمكن القول إن التفاحة الأندلسية فسدت من قلبها وباشر الجميع الخدش والخمش من شمالها لجنوبها. في 1099 أسفرت الحملة الصليبية الأولى عن احتلال القدس وذبح سكانها بهمجية لم يوجد لها مثيل في انهزام أطراف الأندلس .. واستعملوا المسجد الأقصى كإسطبل للخيول، بينما كان كل طرف يتصرّف في الأندلس يحول مسجد أو كنيسة الطرف الآخر إلى كنيسة أو مسجد بدون إهانة وبداءة. في 1187 سجّل صلاح الدين صفحة جديدة في هذا الصراع؛ إذ استعاد القدس بعد توحيد قوات مصر والشام، وسمح للمسيحيين الصليبيين بالصلاة في كنائسها، لكن الباباوات بالطبع لم يكفوا، وجهزوا الحملة الثانية في 1191، وهي الحملة التي حاصرت عكا وكررت عمليات الذبح اليديوي للسكان.

زادت الحماسة الدينية لدى ملكي إنجلترا وفرنسا، (هنري الثاني)، و(فيليب الثاني)، وأدّى ذلك إلى القيام بمحاولة؛ لإنهاء

الصِّراعات القائمة بينهم لقيادة حملة صليبية جديدة. توفي (هنري) في 1189، ومع ذلك، أصبحت القوات الإنجليزية تحت قيادة خليفته (ريتشارد الأول)؛ المشهور باسم ريتشارد قلب الأسد. من جهته استجاب الإمبراطور الروماني (فريدريك بربروسا) للحملة فعبّر جيش ألماني ضخم إلى الأناضول، لكنه غرق في نهر في آسيا الصغرى في 10 يونيو 1190 قبل الوصول إلى الأراضي المقدسة. سببت وفاته حزنًا كبيراً لدى الصليبيين الألمان، وعادت أغلب قواته أدراجها إلى الإمبراطورية.

ليس الهدف هنا التذكير بتفاصيل الحملات الصليبية الثمانية، وإنما استعراض وجهات النظر من زوايا الفرقاء، وتسخير الدعاية الدينية والأوضاع الاقتصادية لشن الحروب والقتل والتشنيع، وهذا الحال قامت به كل الإمبراطوريات، أو الديانات أو الأمم التي طمحت لتكون ممالك كبيرة. كل طرف له أبطال هم عند الطرف الآخر مجرمو حرب، وكل طرف لا زال يقدس أبطاله وتاريخه ويقدمه للصغار والكبار بأشكال متنوعة كمزايا ورموز وطنية أو دينية.

حدثت في، (يونيو 2020)، مظاهرات عمت العالم الغربي احتجاجاً على قتل شرطي أمريكي لمواطن أسود، وأنتشرت المظاهرات من أمريكا إلى بريطانيا وكندا وأستراليا، وهي دول استعمارية أو أقامها الاستعمار واستوطنتها. في بريستول ببريطانيا خطر للمتظاهرين تحطيم تمثال أحد أغنياء المدينة الذي كان يتاجر في العبيد. المعروف أن هؤلاء

الأبطال العنصريين لا زال تاريخهم يُدرّسُ في الكتب، ومثلهم الذين خلقوا العنصرية في روديسيا وقتلوا ملايين الناس .. يتم وضعهم في كتب التاريخ والتربية الوطنية كأبطال يُفتخَرُ بهم، وتقام لهم التماثيلُ في الميادين العامة، ثم يغضب البعض على الممارسة العنصرية لرجال الشرطة هنا أو هناك بعد أن درّسوها في الطفولة، وتشبعوا بقصص بطولات الأجداد الذين خلقوا العبودية وقتلوا الملايين أثناء المتاجرة بهم عبر العالم وتراثهم. وعلى الرغم من مرور العديد من القرون فلم تتغير الرؤية، ولم تعتذر أي أمة أو حكومة عن جرائم الذين سبقوها. وعلى الطرف الآخر لا زال كل مسلم تقريباً يعتبر الغزوات التي انطلقت من الجزيرة العربية، فتوحاتٍ حملت معها الخيرَ والسَّلام، وأنَّ كلَّ غزوٍ مضادٍ ليس محاولةً تحريرٍ أو استعادة ما ضاع وإنما هو غزو استعماريُّ.

العبودية في الإسلام من الشؤون التي لم تُحسم، فقد كان بعض أصحاب الرسول محمد قبل وبعد النبوة من العبيد، وهم أكثر من تحمّلوا العذاب الشديد بسبب إسلامهم، ومع ذلك لم يُحرّم الإسلام العبودية بنص صريح حتى لا يستعدي الأسياد الذين يعتمدون على عبيدهم. اعتبر الإسلامُ تحرير رقبة من الفضائل واعتبرها كفارة أيضاً، ولكنه لم ينص على المنع، ولذلك استمرت العبودية في كل العهود الإسلامية المتتالية وحتى القرن العشرين والواحد والعشرين، وحيث توجد عبودية فهناك عنصرية بالطبع، وعلى الرغم من أنَّ المسلم العربي بُنيَّ اللون، وتحت طائلة العنصرية من البيض الأوروبيين، إلا أنه يرى ذاته أفضل من الأسود بالرغم مما قد يقدّمه من أشعار وأحاديث وأمثال عن

السَّوْاسِيَّةَ وغير ذلك .. كما أن المسلم البني لديه عنصرية داخلية مع البيض، بمعنى أنه يعتبرهم أفضل منه ومن قومه. هكذا أنتشرت المظاهرات والاحتجاجات عبر العالم الأبيض ضد العنصرية حتى على مستوى البرلمانات، لكن الأمر مرُّ مرورَ الكرام في الوطن العربي والإسلامي، بل وجدَّ استغرابٌ من هذا الموقف المتضامن مع المغدور (فلويد) وتجاهلُ موتى المسلمين.

كلُّ منتصرٍ عسكرياً يعتبرُ ذاته فاعلٍ خيرٍ، أمريكا بكلِّ همجيتها تعتبرُ ذاتها أفضلَ نظامٍ في عالم اليوم، وأن حروبها عادلة، بل هي لصالح القتلى وضحايا القنابل والاحتلال، ولكنهم لا يعرفون ما هو الجيد المفيد لهم. بريطانيا الإمبراطورية وفرنسا وغيرها من القوى الاستعمارية رُوِّجَت ذات الأفكار، فهي تحتل وتقتل كل من يعترض ويقاوم ما يفعلونه باسم التطوير والتَّنْوير. وبالطَّبع الفتوحاتُ الإسلامية كانت قَمَّةَ أعمالِ الخيرِ للإنسانية، وهدايةَ الناس إلى الدين القويم، هذا الموقف لا يتغير حتى حين مقارنة الأمم الإسلامية بغيرها من منطلق التحضر والتقدم والإنتاج والعلوم والوضع الاقتصادي والحريات العامة وحقوق الإنسان وموقع المرأة في المجتمع .. لا توجد أي مراجعات ذاتية وتحميل للدين لأي مسؤولية، ولن تجد نسبة معقولة من المسلمين تُحمل التراث الديني ولو بعض المسؤولية عما آلت إليه الشعوب الإسلامية من تخلف مقارنة بغيرها، بل إن الأغلبية تعتبر الوضع في الدول الإسلامية أفضل عما هو في الدول العلمانية الغربية.

لو نظرنا الى الهند كمثال لدولة دينية، بل متعددة الديانات، وتطبقها بشكل واسع الآن، فماذا سنرى؟ نعم وصلت الى صناعة القنبلة النووية، ولديها بعض الصناعات من بقايا العالم الصناعي، ولكنها مرت في ازمة كورونا بأسوأ ما يكون، إذ مات الناس بمئات الآلاف يومياً وتم تشبيه الوضع هناك بيوم القيامة (أبريل 2021)، وبالرغم من كونها نووية وثالث دولة عالمياً في الانفاق العسكري، بعد أمريكا والصين، فنسبة كبيرة من شعبها لا يزال يتغوط في الخلاء، ولا مصادر للمياه النظيفة مؤمنه لنسبة مرتفعة من المواطنين، وبالتالي تستمر المعاناة. أما الصين التي كانت تتشابه ظروفها مع الهند، مثل كثرة السكان والمناخ والتجربة الاستعمارية، فهي الآن تنافس الولايات المتحدة في كل شيء، وتخترع الحلول العلمية والطبية والصناعية لكل العالم .. ربما لأنها الغت الاديان؟ بحاجة للتأمل!

الهجوم من الشرق

للمغول مع الإسلام قصةٌ بها تشابهٌ مع قصة الصليبيين، سواءً مسيحيو الأندلس من الغرب أو الصليبيين من الشمال. عندما نراجع واقع المشرق الإسلامي العربي في عاصمة الخلافة؛ بغداد، وبقية إمارات الخلافة العباسية سنجدُها صورةً عن واقع الأندلس، فكما تطور الإسلام من العنفوان للانزهاز هنا تكرر ذلك هناك، والعقلية هنا نسخة عن أختها هناك، وهذا من واقع الأمور عندما يحدث التجمد والتجبرُ الذهني والعقائدي.

قبل أن يصل المغول إلى بغداد في مطلع 1258 ميلادية كانت الفتن والتصارُع على الحكم والحروب دائمةً في، وبين، الإمارات الإسلامية المشرقية .. كان المغول وعلى مدار سنوات طويلة يتقدمون غزواً في العالم الإسلامي .. سيطر جنكيز خان على منغوليا 1207 ميلادية، وتقدموا وأجهزوا على من حولهم مثل مناطق روسية وكل الصين وشمال بلاد فارس، والدول الإسلامية الأخرى متجهين إلى مقر الخلافة. كان قادة المغول يحتلون ويجهزون للمزيد بينما الخليفة والخلافة في سباتٍ، أو بالأحرى تنويم متعمد للخلافة مارسه عملاء تابعون للمغول يعملون في البلاط العباسي. أصلح جنكيز خان الطرق بين منغوليا والعراق تمهيداً لسير الجيوش، وعقدوا تحالفات مع قوى نصرانية مثل جورجيا، ووو ... نعم عقدوا أحلافاً مع بعض أمراء المسلمين؛ مثل أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ، ومع سلطانيين من

السَّلاجقة، ورضخ أمير حلب ودمشق سلفاً للمغول، وهو حفيد صلاح الدين، وقدم أميرُ حمصَ الولاء .. كل ذلك خوفاً مما سمعوه عن فظائع المغول وطمعاً في النجاة الذاتية والاستمرار في الجلوس على الكرسي.

كان المغول، على الرغم مما قيل عن همجيَّتهم، يتحركون وفق خُططٍ متكاملة؛ إذ شنوا غارات إرهابية بالقرب من العراق وحولها للتأثير النفسي، ودفع القادة والجمهور للاستسلام. في الوقت ذاته كانت الغاراتُ هذه للتعرُّفِ على الطرقات والأحوال تمهيداً لتحرك جيشهم إلى بغداد، وكأنت لديهم مجموعاتٌ للحرب النفسية تعظُم من قوتهم وتتهمُ الخليفة والقيادات بالفشل وتطالب بالاستسلام للنجاة، بل روجوا بأنهم مسلمون يؤمنون بالقرآن وما تقدّمهم إلى هذه البلاد إلا لرفع الظلم .. وهذا يذكرنا بما فعله الاستعمار طوال قرون، وحتى أعادوا احتلالَ العراق، وإعدام صدام حسين (يوم العيد) مُجبةً إنهاء الدكتاتورية، ونشر الديمقراطية، وأصبحت النتيجة جلية، ومع ذلك يتكرر الأمرُ في دول عربية أخرى.

كما خفّضت دول عربية قواتها المسلحة طوعاً، ودمّرت دول أخرى أسلحتها الكيماوية، وأوقفت تطوير أسلحة أخرى؛ لاسترضاء واشنطن، فقد طلب هولاءُكو من عميله في البلاط العباسي، مؤيد الدين العلقمي إقناع الخليفة بطلب النجاة عبر تخفيض أعداد الجند وميزانية الجيش .. بدلَ مئة ألف جندي أصبح العدد عشرة آلاف حولهم الخليفة؛ لأعمال مدنية في الزراعة والصناعة، وحجب النقود عن الجند المسرحين فتحولوا إلى مُسولين على أبواب المساجد وفي الأسواق. من جهته قسم

هولاكو قواته إلى ثلاثة جيوش، وحركها إلى مواضعها خوفاً من انقلاب الأمراء المسلمين في اللحظات الأخيرة عليه، ونجدتهم لبغداد، فقد أحسن الظن بهم، وأخذ الاحتياطات لعلمه أن الخائن خائن. الجيش الأول أرسله إلى جنوب العراق، وقاد هو الجيش الثاني إلى القلب مباشرة، وكان قد أرسل جيشاً ثالثاً إلى الأناضول، لينقض من الشمال ماراً بالمناطق الإسلامية كثيفة السكان في طريقه إلى بغداد، حيث لم يواجهوا مقاومة، وأرسل أمير الموصل معهم فرقة؛ لتساعد في تطويق بغداد .. كم فرقة عربية حديثة شاركت في التحالف على العراق في مطلع القرن الحادي والعشرين؟!

كان الخليفة هو السَّابِع والثلاثون من خلفاء بني العباس، المستعصم بالله، الذي تسلم الحكم في سن الثلاثين، وجاءه المغول بعد ست عشرة سنة من توليه الخلافة، لا مفاجأة أو نقص في المال أو جهل بالزحف المغولي وأهدافه، ولكنه الخواء من الداخل .. هنا أيضاً نجد قيادات عربية، بعد ثمانية قرون على الهجوم المغولي، تتفق مع الأعداء ومع أصدقاء الأعداء ضد شعبها وإخوتها في العروبة والدين .. ألم يتآمروا مع أمريكا وإسرائيل ضد عبد الناصر الذي سعى؛ لاستعادة توحيد العرب وأمجادهم؟! وهذا ما اعتبروه تهديداً لكراسيهم والمال الذي نهبوه؟ ألا يفعلون الأمر ذاته مراراً وتكراراً ضد بعضهم وجيرانهم وقضايهم المفترضة؟! ويتآمرون مع إسرائيل علانية، بل صاروا يهاجمون الضحية جهاراً؟ ما يحصل في عصرنا، وما حدث في

بغداد أثناء الاجتياح المغولي، وما حدث في الأندلس، له أسباب واحدة، وبالتالي يتشابه تماماً على الرغم من اختلاف الأسماء والعصور.

يقول شاهد عيان: جاء هولاء في نحو مئتي ألف جندي، ثم طلب الخليفة المستعصم العباسي، فخرج إلى معسكره ومعه القضاة والمدرسون والأعيان في نحو سبعمئة إنسان، فلما وصلوا إلى منطقة شمال بغداد، وكانت تسمى الحرية، جاء الأمر بحضور الخليفة ومعه سبعة عشر شخصاً فقط، فاتفق أن أبي كان أحدهم، فحدثني إنهم ذهبوا مع الخليفة، وأنزلوا من بقي عن خيلهم، وقتلهم من لحظتهم. ثم أشهر النداء ببدء المجزرة في بغداد، فظل القتل أربعين يوماً. وأنزلوا الخليفة في خيمة صغيرة، والسبعة عشر في خيمة أخرى. قال أبي: فكان الخليفة يجيء إلى عندنا كل ليلة ويقول: ادعوا لي. ثم جرت للخليفة وابن الخليفة أبي بكر محاورات ونقاشات مع هولاء. لكنه في نهاية الأمر أصدر قراره بإعدامهم وقتلهم رفساً في بعض الأجولة، وأطلقوا سراح السبعة عشر ليكونوا في مرمى سهام المغول استهزاءً بهم، فقتل منهم رجالان، واستطاع البقية، ومنهم أبي الهرب، لكنهم حين رجعوا إلى بغداد وجدوها خاوية مليئة بالجثث والقتلى! حينها ذهبوا إلى المدرسة المغيثية على شاطئ نهر دجلة، وقد كنتُ ظهرتُ من أنفاق بغداد فبقيت أسأل عن أبي، فدلّني عليه بعض الناس، فأتيته هو ورفاقه، فسلمت عليهم، فلم يعرفني أحد منهم، وقالوا: ما تريد؟ قلت: أريدُ فخر الدين بن رطلين. وقد عرّفته، فالتفت إليّ وقال: ما تريد منه؟ قلت: أنا ولده. فنظر إليّ وتحقّقني، فلما عرفني بكى، وكان معي قليل سمس فتركته بينهم.

كالعادة هناك علاقة بين الفشل وبين الخيانة والتآمر .. والد المستعصم لم يكن قد أعطى ولاية العهد لأحد ابنيه؛ إذ مات فجأة، وتقول نصوص لمعاصرين إن المستنصر قتل بالسّم، ودارت الشبهات حول من استفادوا من الأمر لاحقاً وهم قائد الجيش الشرايبي والوزير العلقمي. كان الابن الأكبر يسمى الخفاجي، ويقول عنه المؤرخ العصامي: "كان للمستنصر ابنان: أحدهما يسمى بالخفاجي، كان شديد الرأس، شديد الرأي، شجاعاً صعب المراس، والثاني هذا؛ المستعصم، وكان هيناً ليناً، ضعيف الرأي، فاختره الأمير شرايبي على أخيه الخفاجي؛ ليستبدّ هو بالأمر، ويستقل بأحوال الملك، فإنه لا يخشاه كما يخشى من أخيه الخفاجي. فلما توفي المستنصر أخفى الأمير إقبال موته خوفاً من عشرين يوماً، حتى دبر الولاية للمستعصم، وبويع له بالخلافة، ففر أخوه الخفاجي إلى العربان وتلاشى أمره. هل يعقل هذا وماذا عن الحاشية؟ يقول مؤرخ معاصر هو الأربلي: "استدعي أحد أعمامه وهو أبو الفتوح حبيب وأوهم أن جماعة إخوته (أعمام المستعصم) حضروا وبايعوه؛ فلما حضر لم يرهم، فبايع وعاد إلى داره بالفردوس، ثم طلب الباكون للمبايعة فامتنعوا ... وأما أعمامه وكذا عم أبيه الممتنعون من الحضور والمبايعة فأشير باستدامة غلق باب الفردوس الذي يحتوي على بيوتهم بحيث لا يدخل إليهم طعام ولا غيره، فبقوا على ذلك ثلاثة أيام، فسألوا المبايعة وأحضروا فبايعوا".

كان صراع مراكز القوى في الدولة العباسية على أشده، فهناك ثلاثة أشخاص كانوا أكبر رجال الدولة حينها، هم الوزير ورئيس ديوان الخلافة، مؤيد الدين العلقمي، وإقبال الشرايبي قائد الجيش، ومجاهد الدين الدويدار الرجل الثاني في قمة الجيش. كان رأي القائد العسكري مجاهد الدين أيبك أن

يبادر العباسيون بمواجهة المغول، لأنهم أن عاجلاً أم آجلاً سيدخلون العراق، ولن يقنعوا أبداً بالمال المرسل إليهم سنوياً، وقد حفظ لنا التاريخ مقولته: "لو مكنتي أمير المؤمنين المستعصم، لقهرت المغول، ولشغلت هولاءكو بنفسه". (يجدر بالذكر أن العرب لقبوا المغول بالتتار الذين هم من أول ضحايا المغول)

منذ ما قبل سقوط بغداد بخمس سنوات على الأقل، والمتقنون وعامة الناس في بغداد كانوا يرون خطورة المد المغولي واقترابه، خصوصاً مع حملة المغول الحربية التي خرجت من عاصمتهم سنة 1253م، هذه الحقيقة التي رآها الجميع غفل عنها رأس الدولة، الخليفة. يقول المؤرخ المعاصر ابن الطقطقي في كتابه (الفخري): "في آخر أيامه (المستعصم) قويت الأراجيف (الشائعات) بوصول عسكر المغول صحبة السلطان هولاءكو فلم يحرك ذلك منه عزمًا، ولا نبه منه همّة، ولا أحدث عنده همًا، وكان كلّمًا سُمع عن السلطان (هولاءكو) من الاحتياط والاستعداد شيء، ظهر من الخليفة نقيضه من التفرط والإهمال، ولم يكن يتصور حقيقة الحال في ذلك، ولا يعرف هذه الدّولة حقّ المعرفة ... وما زالت غفلة الخليفة تنمى ويقظة الجانب الآخر تتضاعف".

حين نراجع تلك الأحداث تخطر في البال كثير من المقارنات المطابقة لما نعاصره. فالخليفة الأبله كان يعتقد أن المغول أصدقاء تماماً كما اعتقد قادة عرب أن (ترامب) والإدارات الأمريكية المتعاقبة صديقتهم على الرغم من تصريح تكرّر للرئيس الأمريكي أنه يجلبُ الأموال وكأنها جزية لحمايتهم من خطر وضعه هو في عقولهم. نعوذُ للخليفة الذي منى نفسه بعلاقات طيبة مع المغول، فقد اشتهر عنه قوله: "لا خوف من المستقبل، لأنّ بيني وبين هولاءكو خان وأخيه منكوقان روابط ودية، ومحبة صميمية لا عداوة ونفرة، وحيث إنني أحبهم، فلا

شك إنهم يحبوني ويميلون إليّ، وأحسب أن الرّسل قد بلّغوني عنهم كذباً، وإذا ظهر خلاف فلا خشية منه؛ لأن كلّ الملوك والسلاطين على وجه الأرض بمنزلة جنود لنا.

بمحلول الرّابع من محرم سنة 656 للهجرة، 1258 للميلاد استطاع قائد المغول هولاكو أن يصل بالفعل إلى أسوار بغداد الشرقية غير أن فرقة من القوات العباسية كانت متمركزة حالت لمدة أسبوعين فقط من الانهيار، قال ابن الطقطقي: "وأما حال العسكر السلطاني (عسكر هولاكو) فإنه في يوم الخميس رابع محرم من سنة ست وخمسين وستمئة ثارت غبرة عظيمة شرقي بغداد على درب باعقوبا بحيث عمت البلد، فانزعج الناس من ذلك وصعدوا إلى أعالي السطوح والمنابر يتشوّفون، فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان هولاكو وخيوله وقد طبّق وجه الأرض وأحاط ببغداد من جميع جهاتها.

كانت الهجمة شرسة من قوات تقدر بعشرات الآلاف، فانهارت الدفاعات العباسية بعد استنفاد الجهد والطاقة، وأمست بغداد الشرقية بين مطرقة هولاكو من الشرق وسندان القائد المغولي الآخر؛ بايجو من الغرب الذي كان قد استولى على بغداد الغربية بالفعل منذ أسبوع تقريباً! وبحلول نهاية محرم وبدايه صفر من العام ذاته كان المغول قد استولوا على بغداد وعاثوا فيها فساد ودمروا حاضرتها الثقافية، وقتلوا ما لا يقل عن مئة ألف بغدادى في بعض الروايات، ومليون في أكثرها. يقول الدّهلي: "والأصح أنهم بلغوا ثمانئة ألف (قتيل)!" وفي 2 محرم قُتل الخليفة المستعصم وأولاده وعائلته وكبار قاداته في معسكر الجيش المغولي وسقطت الخلافة العباسية رسمياً بعد حكم استمر خمسة قرون، وكان العباسيون قد ثاروا على الأمويين وذبحوهم، وهم أبناء عمومة، بل تم قتل

الأمراء بعد أن أخذوا الأمان، قُتلوا آنذاك بالضرب على الرؤوس بمطارق الحديد، وتناول السفاح طعام الغداء فوق الجثث التي كان بعضها يئن، ونُسبَ له القول إنها أطيبُ وجبة يتناولها.

الأعداءُ الجدد الذين ورثوا الصليبيين، وبعد تسعة قُرونٍ، لا زالوا يحتلون البلدان عسكرياً ويزيلون الزعماء المعارضين، ويقتلونهم بالسُّمِّ والاعتقالات، بل والسَّجن، ولكنهم أيضاً يحمون الزعماء المتآمرين معهم، ويقنونهم في عروشهم بل يحمونها من ثورات وتحركات شعوبهم بأساليب عدة. أما عن تمليك المخايل لمقاليد الحكم وتوزير المتفعين فحدث بلا حرج .. وكما درج من قتل المعارضين أو المنافسين على الحكم، سواءً أكانوا أبناء أم إخوة أم أقارب أم غيرهم في التاريخ الإسلامي منذ البدايه، فلا زالت النهاية حتى الآن تشهد الفلم المتكرّر ذاته دون كللٍ أو مللٍ، وكلُّ ذلك يتم باسم الدينِ أو في ظلاله وحمايته.

الدِّينُ وَالْغَنِيمَةُ

لم يختلف هدفُ الغزوِ بين العُصور، ولم توجد غزوات أو فتوحات مُكلفة لوجه الآلهة وعمل الخير، بل تبلور الهدف في السَّعي خلفَ الغنائم. كان الإسكندر الأكبر، ذو القرنين، يدعي السعي؛ لنشر الثقافة اليونانية وحكم العالم، ولكنه بالطبع جمع الغنائم وقتل وسبى ودمر أثناء تثقيفِ العالم. وهذا ما فعله من سبقوه (300 قبل الميلاد) ومن تبعوه حتى عصرنا هذا، وما سيكون، بالرغم من الأدعاءات والتَّسميات الطَّنَّانة.

بعد تسليم أبي عبد الله الصغير مفاتيح غرناطة والحمراء (لفرنناند وإيزابيل) (25 نوفمبر 1491) والرحيل عنها، وصل إلى قصر الحمراء مغامرٌ إيطالي لم يقتنع أهل بلاده بأفكاره، كما أنَّ ملك البرتغال رفضَ عرضَهُ .. وصل (كولبوس) محاولاً إقناع المتصرين الجدد بتوسيع إمبراطوريتهم وجلب الذهب لهم من عبر البحار. في البدايه لم يقتنعوا به، ولكن (إيزابيل) أغراها بريق الذهب فوافقت على تمويل رحلته وعُقد معه اتفاقٌ تم بموجبه تعيينه أميراً للبحار عبر العالم، وأنه سيأخذ 10٪ مما سيجلبه من ذهب وغنائم بدون خصم ضرائب. كان كولبوس متعصباً للكاثوليكية مثل الملكين الإسبانين الذين اعتبروا نصرهُما على المسلمين وتحرير أيبيريا نصراً للدين الكاثوليكي وشرعا قوانين تمنع أي ديانات أخرى، وبقيت القوانين سارية طوال خمسة قرون حتى نهاية عهد الدكتاتور فرانكو، وإعراب إسبانيا عن رغبتها الانضمام إلى السوق

الأوروبية .. حينذاك وضعوا شرطاً للانضمام أن يُلغى قانون تفرد الكاثوليكية وإتاحة حرية للأديان، وسير إسبانيا في طريق العلمانية مثل بقية دول السوق.

لقد فعل كولمبوس، حيث رست سفنه؛ ما فعله كل الغزاة قبله وبعده من نهبٍ وقتلٍ، ثم انطلق جُند الملكين الكاثوليكين إلى البلاد المكتشفة في غزواتٍ مُتتالية .. قتلوا بالجملة وأرهبوا البشر بحثاً عن الذهب الذي تصوره أكواماً وتلالاً، وبالطبع أستوطنوا، وغيروا دين الهنود الحمر وأسمائهم وألقابهم بالقهر؛ إلى الكاثوليكية، وأجبروهم على تحدث اللغة الإسبانية (والبرتغالية) التي سادت مع الدين ولا زالت في كل أمريكا الجنوبية. أما أمريكا الشمالية فقد غزاها الأنجلوساكس البروتستانت، وعملياً أبادوا الهنود الحمر، وجلبوا سكان إفريقيا المحتلة كعبيد ليخدموا بدون تفكير في أن الأرض ليست لهم. وهذا ما فعلوه في أستراليا أيضاً التي وطنوا فيها مساجينَ إنجليترا المحكومين بالقتل والسَّرقة والغشَ وما شابه. هذا كله يختلف في بعض التفاصيل عما فعله في السابق اليونان والرومان والعرب أينما حلُّوا، خصوصاً في حوض البحر المتوسط، وما فعله الصليبيون، ثم الاستعمارُ الغربيُّ لاحقاً.

الاستعمار التقليديُّ في آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط سعى مثلاً لتغيير اللغة، وقد نجح الفرنجة في بلاد المغرب العربي وبعض دول إفريقيا، ولم يسع الإنجليز لفرض لغتهم وثقافتهم، فقد كان مهمهم السَّلبُ والارتحالُ، ولكنهم أثروا في الهند لغوياً. عموماً حدث

الاستعمارُ بأدواته، وحافظ على أهدافه مع توفير جهده قدرَ الإمكان، وهذا ما يجرى حتى الآن، ويمكن الجزم أنه سيستمر بشكل أو بآخر في المستقبل. أصبحت مشكلةُ الاستعماريين متمثلة في شعوبهم، وطريقة الحكم الديمقراطي .. فحين يستوعبُ الجمهورُ ما يحدثُ من ظلمٍ واستعبادٍ وقهرٍ، يعترضُ على حكامه ويغيّرهم، وبالتالي على هؤلاء الحكام إيجاد الطرق الملتوية التي تُهدئ من ضجيج النّاعحين، ولا تُعيق النّهبَ للآخرين.

آخر الأمثلة، (في ربيع 2021) تكرر الفعل العنصري، وكان المزيد من مقتل الرجال السود بفعل قوات الشرطة الامريكية، وإتضح ان تعرض الشرطة لهم يعادل ضعف تعرضهم للبيض .. عمت الاحتجاجات العالم الغربي الأنجلو سكسوني الأصل، في أمريكا وكندا وأستراليا وبريطانيا، وبالفعل علينا ملاحظة أنه لم توجد احتجاجات بين شعوب دينها الأصلي كاثوليكي أو يهودي أو إسلامي. نلاحظ أيضاً أن التماثيل لرموز الاستعباد والعنصرية قد هوجمت في هذه الدول ومن بينها تماثيل كولمبوس في الولايات المتحدة، وتجار العبيد في إنجلترا، بل وتمثال ممثل الاستعمار الحديث في ميدان البرلمان البريطاني، (ونستون تشرشل).

عندما تخوف الرئيس (ترامب) بأن المتظاهرين سيهاجمونه، نزل إلى القبو المخصص للحماية من الحرب النووية في البيت الأبيض .. لكنه راجع ذاته واستجمع أعصابه، واستنجدَ بقائد الجيش ووزير الدفاع،

وسار معهم إلى الكنيسة المجاورة للبيت الأبيض حيث وقف على الباب، ورفع الإنجيل بيده، مَنُوهاً أنه مسيحي مؤمن يُهاجمُ من يساريين كفار. في اليوم التالي هاجمُ القساوسةُ هذا التَّصرفَ وشجبوا إقحامَ الدِّينِ في السياسة، واعتذرَ قائد الجيش ووزير الدِّفاع، وادعوا ظنهم بنيتَه للصلاة معهم، وليس للاستعراض .. الصَّلَاةُ مسموحة في العالمِ العلمانيِّ، ولكن المرفوضُ هو أقحام الدِّينِ في السِّياسة، أو السِّياسة في الدِّين. هذا الدَّرْسُ تغلغل في الضمير الغربي حتى التُّخاع كنتيجة لتجربتهم على مدارِ قرون، لما فعله الدينُ ووكلاءُ الرَّبِّ في البشرِ من استغلالٍ وتعذيبٍ واستعبادٍ واستهبالٍ حتى قامَت الثُّوراتُ الشَّعبِيَّةُ على الكنائسِ وتخلَّصوا من هيمنةِ الدينِ الذي كان يحكمهم مباشرةً، أو بالتَّوافقِ مع سياسيين.

النظامُ السياسيُّ الدِّينيُّ لم يقتصر على بُلدان الطوائف المسيحية، لكن البلاد الإسلامية حُكمت مباشرة من الخليفة، وهو ولي الأمر الذي يجب إطاعته، والتَّذمُّرُ لاحقاً أمام الله في الآخرة. الخليفة ومن ينوبُه بؤُسعه عمل ما يريد دون حسابٍ قانونيٍّ، فهو القانونُ وبيتُ المالِ والمُشرِّعُ، والشيوخُ هم تَبَعُهُ ويسرون في ركابه .. وحتى الآن لا يوجد حاكم إلا ويتَّبعُ للإسلام أو للرَّسولِ أو يحرسُ ويُخدمُ أحد الأضرحة، ومنها يستمدُّ كينونته، وباسم الدينِ يجلدُ ويحكمُ ويقتلُ ويخصمُ أكثر من خُمسِ دخلِ البلدِ والغنائمِ من باطن الأرض جهاراً نهاراً كما في حالة عوائد النَّفطِ، أو عوائد الفساد، أو تملك أراضي الأمة، أو العمولات من مال الدولة .. أي ذات مبدأ الغنائم.

افترقت الطُرقُ بين أساليب الصليبيين والمسلمين منذ القرن التاسع عشر، حيث عزلَ الغربُ الدينَ عن السياسة، وأتجهوا للقوانين الأرضية المُنصفة والمتطورة تبعاً، فصار بوسعهم الخوض في النهضة العلمية والصناعية والسير بُخطى واسعةٍ في مجال حقوق الإنسان، ورفاهية الفرد ورعايته، وأصبح التهرب الضريبي من أشد الجرائم التي يعاقب عليها القانون. في العالم الإسلامي، وعلى الأخص العربي استمرَّ النهجُ الديني طوعاً بعد نهاية الخلافة العُثمانية، وبدأت الفوارق تتعمق بينَ العربِ والغربِ وبقية العالم الذي ابتعد عن النهج الديني السياسي والاقتصادي، علماً بأن أياً من الدول العلمانية المتقدمة لم تلغ الديانات أو تُحرِّم العبادات أو تُعارض الاحتفالات الدينية .. لكنها فصلت الدينَ عن الدولة. أبناء العرب وأبناء الغرب يتلقون التعليم ذاته، وتقريباً يلبسون الموضة المتقاربة، ويركبون ذات السيَّارات، وهي مع الموضة من صنع الغرب .. الفارقُ أن الدُّول العربية تُحكِّمُ باسم الدين وفي ظلِّه وبقوانينه وتشريعاته، بينما في الغرب هم مُتحرِّرون من ذلك، وبالتالي؛ لا بدُّ أن التربية التراثية بأشكالها هي العنصر الأساس في استمرار الفوارق وتعاضُّمها، والمؤثِّرة في أسلوب تشكُّل المجتمع.

قد يخطر على البال عدم مصداقية هذا الاستنتاج، وهذا طبيعي، فلا يوجد متدين بالتربية العامة أو الخاصة بوسعِهِ أن يقر بصدق ذلك الاستنتاج، لأنه هكذا سيقرُّ بتفوق الآخرين، وبأن دينَهُ وتراثُهُ عنصران تُخلفُ وأقلاً شأنًا، وانه وأسلافه هدرُوا حياتهم زوراً .. لكن الحقيقة أن المتقدمين في الغرب لا يُعايرون المُتخلفين من وجهة النظر الدينية، ولا

يقولون المسيحية أفضل من الإسلام، لأنهم في المجمل تحرروا من الخضوع للتربية والتراث الديني، على عكس التَّعَصُّب الديني للمسلم حتى الذي لا يعرف طريق المسجد، لكنه لا يتقبَّلُ نقد أيِّ فكرةٍ تُخصَّص الدين، فهذا الشيء المقدَّسُ غير قابلٍ لأيِّ تغيير، أو بالطبع أي عزل للدين عن الحياة الدنيا، فالثقة في الموروث والشرع عميقة، ولكن تنفيذ الحُكَّام وتقييم الشيوخ للدين هو الغلط .. هكذا يفكِّرُ المسلمون بكل فئاتهم ودرجاتهم في الايمان .. الغلطُ المستمرُّ منذ خمسة عشر قرناً سببه الحاكم باسم الدين، وسببه الناس الذين لا يفهمون الدين أو كيف يطبقونه.

حين تتفكك الأمة من يومها الأول بعد موت رسولها، ولا تتوحدُ إلا نادراً وبالقوة ثم تعود إلى الشقاق والفساد والتأمر والتشردُّم، فهذا لا علاقة له بالتربية الدينية والتُّراث .. وحين يتصارع الجميع على كرسي الحكم أو الاختلاس فلا علاقة للتربية والتراث الديني بالأمر، وذلك على مدار القرون، كما أن كل الشواهد على فشل التجربة الأندلسية لا يُعتمد بها ولا يتذكر إنسان أنها جاءت بسبب الخلافات الداخليَّة، وكل طرفٍ مُتسلحٍ بالدين ذاته. أنتصار الصليبيين، ثم المغول ثم الاستعمار التقليدي ووريثه الاستعمار الحديث لا علاقه له بنوع الحكم والحاكم، وأسلوب الحكم في البلاد والعباد المفعول بها وبهم .. وضمنَ هذا النهج، فإن نهب النفط، واعتقال المعارضين من قبل ولي الأمر المُتَهَجِّج للدين لا علاقة له بالدولة الدينية حتى لو مارسوا باسم الدين البلاوي الزرقاء سيجدون في الدين المُسوَّع حتى للخِانات.

منذ ايام الأندلس الأولى، ومع نهاية حقبة جمع الغنائم، بدأ الخلاف والتأمر مع الإسبان ضد الإخوان في الدين، أو على الأقل خدموا الإسبان بممارسات الجهل .. كان الغرب يتحد في حروب صليبية ضد أمه إسلامية تتفكك، وهذا ما تكرر في حقبة المغول، وكل الحقب التالية .. وحين ترك الغرب النهج الديني، وفصل الدين عن الدولة عبر ثورات دموية في أوروبا، وأنجز أثر ذلك قفزات هائلة على طريق التقدم الحضاري والصناعي والثقافي والتميز الاقتصادي، فهنا أيضاً لا علاقة بين ترك الغرب للدين، وطرقه وقوانينه، وبين القفزات التي أنجزوها.

حتى نجاح واعتماد نهج العلمانية في الغرب، كانت طرق الحكم متشابهة بين الشرق والغرب، حيث الحاكم منصاع أو مرتبط مع الكاهن والكنيسة، وتحت إشراف البابا، أو انصياع الوالي للخليفة صاحب التوكيل الإلهي. ذلك الأسلوب في الشرق والغرب كان متصفاً بالجهل والتسلط، فكلاهما يقتل العلماء، ويحجب الفكر ويحكم بتفرد .. الفارق الذي يحدد الانتصار أو الهزيمة كان مقدار المساواة في الحروب والتأطير الديني المدعم بوعود الغنائم في الحياة، والجنة في الآخرة. للأسف إن انتصار العلمانية في الغرب لم يجلب معه بالسرعة الكافية النزاهة تجاه الغير. نعم؛ تركوا الفاشية الدينية، ولكنهم لم يحاسبوا ذائهم تاريخياً .. بالطبع؛ فإن الشرق بعيد عن النزاهة ومراجعة التاريخ. لأن الشرق الإسلامي لم يفكر في العلمانية واعتبرها من أنواع الكفر، فقد جرت محاولات التطوير القفزي باللجوء إلى الثورات والانقلابات العسكرية

التي حكمت بالتراث الديني نفسه ولهذا انتهجت الطريق الديكتاتوري،
تغير فقط اللقب من خليفة إلى زعيم أو رئيس أو ملك، وبالطبع؛ كلها
فشلت؛ اذ لا يمكن القفز عبر المراحل بالعقلية ذاتها.

بعد أقل من ثلاثة أسابيع على تطورات مقتل مواطن أسود من
شرطي أبيض وانتشار الاحتجاج في الدول ذات الأصول الاستعمارية
البريطانية، تطور الأمر إلى صراع بين اليسار واليمين المتطرف. الطرف
الأول باشر في التحرش بالرموز الفاشية والعنصرية التي يجدها التاريخ
البريطاني الاستعماري، بينما انطلق اليمين الفاشي؛ لحماية النصب
التذكارية في شوارع مدن بريطانيا العظمى سابقاً. القضية تحولت هكذا
إلى مطالب لمحاسبة التاريخ البريطاني المسؤول عن غالبية مشاكل العالم
للآن، وسياسة الإمبراطورية التي تسببت في قتل مئات ملايين البشر
وإبادتهم دون أن يرف لهم جفن للآن، بل إنهم يفتخرون بذلك الماضي.

ما عدا تونس التي طالبت رسمياً باعتذاراً من فرنسا على
سياستها الاستعمارية، لم يتحرك أي مستوى احتجاجي، رسمي أو
شعبي جماعي أو حتى فردي، يغذي مطالب اليسار الليبرالي الغربي في
سعيه لمراجعة التاريخ. السبب هو سيادة عقلية الاستسلام، والانتكالية
والتشفي، والدعاء بالكوارث الطبيعية؛ لتحل على رؤوس أعداء
المسلمين، فالأغيار هم الأعداء، وكل من هو غير مسلم عدو، وكل
مسلم من طائفة مغيرة هو أيضاً عدو.

يبقى سؤال: لماذا لم يتطور التفكير الجمعي في الدول التي حكمها العسكر بدل الملوك؟ الجواب نجده في التشابه بين الجنرال والكاهن، الراهب، الشيخ. كلا الطرفين يحكم بتسلط وتفرد وقسوة، وكلاهما فاسد يجب الفساد والهيمنة والطغيان ويتسترون بالقداسة أو الثورية، كما أن الطرفين يُحبان التّدليسَ ولا يريدان أن يشتهرَ عالم أو اديب أو مفكر أو أي شخص يمكنه أن ينافسهما. لرجال الدين مجالس تُخول بالتسلط ولرجال الجيش مجالس عسكرية ويتبعهم شيوخ سلطان لتسويق الحال دينياً. لقد كان المثال الإيراني العراقي أفضل إثبات للتشابه بين الديني والعسكري، وثبت في النهاية هشاشة الطرفين، ومثل تلك الحرب لم تنتهي من المنطقة، فهناك ممالك دينية تتقاتل ضد بعضها ومليشيات إسلاموية تدمر هنا وهناك كمرتزقة، وكانوا قد فشلوا في الانقلاب على العسكر في بلدانهم الأصلية. حين تركبُ سيّارة (مرسيدس) فأنت لم تصبح صاحبَ عقلية المائية.

متى سينقرضُ العربُ؟

بين بدايه غزو الأندلس، ويوم تسليم مفاتيح قصر الحمراء في غرناطة فترة 781 عام، ومن يوم إعلان أبي الحزم بن جهور سقوط الخلافة الأموية في قرطبة عام 1031 ونهاية عهد الإسلام، ورحيل آخر سلاطين غرناطة 461 عاماً. هذه الحسبة حتى نعرف متى بدأ الانهيارُ، ومن أيّ سنة نباشرُ الحساب التراجعيّ، وذلك بهدف عمل تقديرٍ تقريبيٍّ متى ينقرضُ العربُ والإسلامُ من جنوب البحر المتوسط وشرقه كما انقرضوا من الأندلس. بالطبع، هناك فوارقُ بين التّصدي الإسباني الصليبي الضعيف آنذاك لمسلمين أقوياء، بينما هم الآن في موقع المُتقدّم المُتطوّر والمسلمين في موقع التّراجع المُتواصل منذ ما قبل سقوط الأندلس. لكن من أين ومتى نبدأ في حساب التّراجع العربي الإسلامي؟ ربّما من نهاية مرحلة الفُتوحات؟

الفارق الحضاري والاقتصادي والعسكري يؤهلُ الغرب؛ لتدمير العرب والمسلمين الآن في غُصُون أسابيع، لكنّهم يسرون في مُحْطَط استعادة حوض البحر وإعادة العرب والمسلمين إلى منابِعهم، أو تذويهم بهدوءٍ في أغلب الأحيان، وبالقهر كعاملٍ مساعدٍ كلما تطلّب الأمرُ، وزرع إسرائيل وسلّطها على العرب والفلسطينيين كنصرٍ استنزافٍ وإلهاءٍ مُتواصلٍ. لكن؛ هل العربُ والمسلمون الآن في وضعٍ شبيهٍ بحال الأندلس عندما بدأ انهيارُها؟ الجواب الفوري، نعم. بل ويمكن القول إن وضعهم الآن أسوأ مما كان آنذاك؛ لأنّهم ألعبوا في يد الغرب وتحت

حمايته، ويرعون في مزارعه، ويأكلون من سهوله ويستعملون أدواته،
ويفعل الغرب بالعرب ما أراد ومتى أراد.

الحظيرة العربية الإسلامية تتعلم العلوم الغربية سواء كان
بلغات الأم أم لغات دول الغرب، وفي دول المغرب العربي، وبعد عقود
من التعريب الشكلي، فالأغلبية تتقن الفرنسية أفضل من إتقانها
للعربية. في دول المشرق العربي تُدرس الإنجليزية من الصف الرابع
الابتدائي في المدارس الحكومية، ومن الحضانة في القطاع الخاص واسع
الانتشار خصوصاً لمن يريدون أن يصبحوا النخبة .. ليس هذا بيت
القصيد، وإنما الرغبة الجارحة لدى أغلبية الشبان والشابات بالرحيل عن
بلادهم إلى الغرب .. إنها أعز أمانهم أن يذوبوا في العالم الغربي،
بعضهم يظن أنه يحتفظ بدينه، لكن الحقيقة أن الغرب يلغي مفهوم الدين
العربي السائد. في الغرب لك حرية التّعبد مادمت تعمل وتنتج وتلتزم
بالقانون، وتحترم حريات الغير، أي؛ إنها العلمانية. ولذلك نجد
المهاجرين الذين ما كانوا لينجزوا شيئاً يذكر في بلادهم، يبدعون في بلاد
الغرب العلمانية، بالرغم من كونهم مسلمين. هكذا يستورد الغرب
أفضل الأصناف من المزارع لسد الحاجة ولتذويب فرص المجتمعات
المصدرة، التي تُعلم وتربّي وتنتج الأجيال؛ لخدمة الغرب بأقل الكلف،
لكن هذه المجتمعات الإسلامية ترفض العلمانية؛ لأن مجموعة علماء دين
جهلة صوروا لهم العلمانية شياً من الكفر، وهذا في حد ذاته اتهام لكل
المغترين، وكل المتميّين للهجرة والساعين لها بإنهم كفار، لأنهم في
الغرب يعيشون كعلمانيين سواء أكانوا مقرين بذلك أم أغمضوا أعينهم.

الاستفادة الغربية من مزارع إنتاج المهاجرين هي أحد الأسباب التي تمهل عملية دحر العرب والإسلام بسرعة جغرافياً، على الرغم من أن الدحر حاصل عملياً. الهجرة بانتقاء الأفضل والأكثر استعداداً للخدمة تعني زيادة نسب الجهل بين المتبقين، وهذا إنجاز غير ملموس للعين المجردة ولكنه قطعاً ظاهر للعيان في حالات الاحتكاك مع غالبية المتبقين. يقول بعض الجهلاء إنَّ العرب والديانة الإسلامية تنتج أفضل العلماء والأدباء في الغرب، هذه حقيقة وكذبه في آن، فهؤلاء ولدوا مسلمين، وربما تربوا ضمن التراث الإسلامي، وقد يصلحوا في مساجد الغرب متى أرادوا، لكن الذي جعلهم وصورهم على ما أصبحوا عليه هو البلد الذي انتقلوا إليه .. قوانينه ومناخه الاجتماعي ومناهج تعليمه، أي؛ علمانيته وإبعاد الدين عن سُنن الحياة اليومية من دون منع التَّعبُد لمن يريد. هكذا؛ ولذلك أصبحوا متفوقين، وليس لانتمائهم للعروبة أو الإسلام، ولو بقوا في بلدانهم لما أفلحوا.

يوجدُ تقريباً 70 مليون عربي يعيشون خارج الوطن العربي، وهناك أعداد إضافية من أبناء الجيل الثاني والثالث ولِدوا في المهاجر. هؤلاء أدوار ظاهرة حيث يقيمون، في التجارة والاقتصاد والسياسة، ويشكلون نسباً سكانية عالية في بعض بلدان المهجر، كما إنهم يحولون لأقاربهم في الدول العربية أكثر من خمسين مليار دولار سنوياً. لن نخوض في التفاصيل؛ لإثبات هذه الحقائق، ولكن النظر للمتبقين من مئات الملايين في الدول العربية يُظهر الكوارث الحقيقة بأوطانهم .. كوارث كلها من صنعهم، أو من قلة صنّعهم وصنّيعهم وحيلتهم. فلا

توجد مشكلة واحدة من التي تكسر ظهر الدول العربية إلا وتكون من صنع الأبناء المتبقين على أرضهم، بينما المهاجرين ينجحون ديمقراطياً في برلمانات الدول المضيفة ورئاستها واقتصادها وأمنها. ولنا أن نتصور حجم نجاحهم الاقتصادي الإنتاجي من مقدار ما يحولوه كمنح لأقاربهم في الدول العربية، والذي يعادل 700 دولار من كل مغرب سنوياً، ولو افترضنا أن كل واحد من السبعين مليون مغرب يتبرع لأقاربه في الوطن العربي بعشرة في المئة من دخله، فهذا يعني أن واحداً منهم كبيراً كان أم صغيراً أم متقاعدأ لديه متوسط دخل سبعون ألف دولار سنوياً. وإذا كان السبعون مليون يتبرعون بخمسين ملياراً، فما هو رأس مالهم؟؟ إنها قصة نجاح لمن يهاجر ويهرب بجلده من واقع يحكمه المتخلفون المتزمتون والاستغلاليون والعسكريون الديكتاتوريون، ويرتع فيه شيوخ الديناصورات العشائرية؛ ولهذا يهرب كل من يستطيع الهرب. هؤلاء الهاربون هم بالطبع الخريجون وأهل الاختصاص والمفكرين، ومن لديهم روح المغامرة والقدرة على التعايش مع الغير واستيعاب المجتمعات والقوانين المختلفة عما ركن اليه المتبقون واعتبروه أساس الدين والدنيا.

حين ننظر إلى حاكم أو جهاز إداري أو جيش متخلف عن أداء مهامه بالشكل السليم، أو مواطن مكسور الأنف ومسلوب الإرادة، اتكالي يقبل الوساطة ويتقبل الفساد، فعلياً أن نتذكر أن هؤلاء هم قاع الصحارة، وليسوا وجهها الطازج .. وهكذا نعرف سر ما يدور في المنطقة. حين يكون الوضع السياسي متردياً في أي بلد عربي فهذا معناه

تردي بقية الأوضاع .. والوضع العربي الحالي أسوأ من الأندلس في عصر الطوائف: الإمبراطوريات الفارسية والتركية والروسية تتقاسم دول المنطقة بينما العرب كقطع الشطرنج في اللعبة، وليسوا من ضمن اللاعبين سواء أكانوا في ليبيا أم اليمن أم سوريا أم العراق أم فلسطين .. إسرائيل تفاوض ذاتها حول حجم الضم وشروطه وتتجاهل وجود سلطة خارج إطار الخدمة الأمنية .. مصر؛ لا تتدخل فيما يجري في فلسطين، ولا تحذر إسرائيل من جراء الضم ولو بتجميد اتفاقيات السلام، بل أن الرئيس المصري يهدد بالتدخل في ليبيا عسكرياً بينما أثيوبيا تحجز مياه نهر النيل عن مصر والسودان اللذين لا يتفقان على سياسة موحدة تجاه أثيوبيا. دول المغرب العربي تقف متفرجة عما يجري في ليبيا من تدخلات خارجية عسكرية سوف تؤثر على بلدانها إن أجلاً أو عاجلاً وكل منها في خصام مع جاراتها.

دول الخليج العربي؛ متخاصمة وتحاصر بعضها، وتقاتل في اليمن المسكين، وتجوع أهله المنقسمون على أنفسهم، كما أنها تشجع على توريث مصر في ليبيا؛ كي تتصدى لمخططات تركيا بإقامة إمبراطورية عثمانية جديدة .. هذا بينما أهل ليبيا يشاركون في التدمير الذاتي ويتحالفون مع الغرباء ضد بعضهم، تماماً كما يفعل أهل فلسطين منذ عقود في صراع سياسي ومالي وسلطوي بين حماس حليفة إيران والإخوان المسلمين، وفتح والسلطة حليفتا إسرائيل بعد أن تخلى عنها بقية العرب. ويدعي الفلسطينيون أنهم أهل الفهم والعلم والسياسة والنضال بينما هم في الحقيقة لا يمارسون أجديات المنطق ولا يتعلمون

من كل تجربتهم مع الاحتلال، ولولا نشاطات الفلسطينيين في المهجر لما تذكر أحد ما يجري، ولما وجدت مقاطعة للاحتلال، وتأييد للقضية التي قتلها أدعياء القيادة من الأبناء الباقون في الوطن المُتقاتلون على كرسي مهزوز القوائم، وعلى فُتاتِ الفُتاتِ. الملاحظ مرة بعد الأخرى هو نجاح الهبات والانتفاضات وتأثيرها على العدو، حين تنعدم القيادة الرسمية لهذه الهبات والمقاومة!

عندما احتل الإسبان إشبيلية ابقوا على سكانها المسلمين لفترة انتقالية .. شغلهم في بناء القصور بالزخارف الجميلة، وخدمة الأرض والزرع لتأمين الغذاء للسادة، وعندما استكملوا استرجاع كل الأندلس طردوا السكان المسلمين، ورفضوا من تنصر منهم وسلبوا كل أملاكهم. في المراحل النهائية صار الجنود عند الموانئ يطلبون من المُسلمات أن يتنطُنَّ؛ ليسمعوا خرَّخشة الثُّقود المُخبأة في الملابس؛ لينهبوها .. وكان هؤلاء عندما يصلون إلى البرِّ المُقابل من حيثُ جاء أجدادهم، يجدون عصاباتٍ رسمية وغيرها تقشطهم ما تبقى معهم .. هكذا وبعد أكثر من خمسة قرون من هجرة الأندلسيين لم تتحول بلاد المغرب العربي إلى ما يشبه الأندلس، فقد كان إبداع الأندلسيين في أجواء وظروف غير متوفرة في مكان آخر. ولجُرد المُقارنة فقط، يمكننا الآن الانتباه إلى حقيقة أن الفلسطينيين يخدمون بموافقة سلطتهم الاحتلال الإسرائيلي أمنياً واقتصادياً، بل هم من يبني المستوطنات، ومن يستهلك الإنتاج الإسرائيلي، ويدفع الضرائب لدولة الاحتلال .. وربما يتمُّ تنطيطهم في مرحلة قادمة، وربما أيضاً إذا هاجروا لكندا أو أي بلد بنظام محترم

ستجدّهم يُبدعون، وإذا استقرّوا في مخيمات الدول المُجاورة ستمرّ ألف سنةٍ وهم ينتظرون.

المُخطّطُ الغربيُّ متطور مع الزمن منذ بدايته أيام الحروب الصليبية .. والهدف منه استرجاع حوض البحر المتوسط الذي كان تحت الاشراف الروماني قبل الإسلام، وبالطبع؛ من أجل إنجاز الهدف يجب هزيمة الإسلام، وأعادته إلى شبه الجزيرة العربية بعد تفريغه من محتواه، ونزع مخالفه. كل ما حدث منذ الغزوات الصليبية يشير إلى ذلك. زرع قوّة مدعومةً وسط العالم العربي، وقام على رعايتها لخلق التهديد من القلب .. وخلق طوقاً حول الوطن العربي، أشرك تركيا وإيران مع حلف الناتو أيام أتاتورك والشاه، ولا زالت الدولتان على الرغم من تغيير الحُكام تمارسان دورَ الحُناقِ على العرب والنّاهب لمواردهم. دول جنوب المغرب العربي التي دُعِمَت سرّاً من إسرائيل، ثم ظهر دور أثيوبيا التي وردت (الفلاشا) لإسرائيل ثم تشارك في تهديد مصر عبر سدّ النهضة.

مصر؛ مستهدفة دوماً كونها قلب الأُمّة العربية، وقوته البشرية وأمله المستقبلية. وعلى الرغم من وجود سلام مع إسرائيل والغرب إلا أن الأمر بالنسبة لهم قابل للانقلاب في لحظاتٍ، لذلك خلقوا فكرة سد النهضة الأثيوبي القادر على إزالة مصر والسودان عن وجه الأرض .. حتى لو قبلت أثيوبيا كل الاحتياطات والشروط المصرية والعالمية فلن يتغير بالنسبة لإسرائيل والغرب شئ، فغارة جوية واحدة أو بضع

صواريخ (كروز) تدمر السد، وستزيل مصر والسودان. سعة السد 73 مليار متر مكعب مخزنة على ارتفاع 4000 متر عن سطح البحر، وبالتالي إذا انهار السد سيغرق السودان، ويدمر السد العالي، وتغرق المياه مدن مصر وقراها حتى الدلتا والإسكندرية. هذا السد أقيم عمداً على مسافة 40 كيلو متر من الحدود مع السودان، أي لا فائدة منه عملياً لري أراضي أثيوبيا التي تملك أربع أنهار أخرى تصب في المحيط، وكان الأفضل لو اقيم السد على أحداها قرب العاصمة والمدن والقرى ومركز البلاد. المشكلة ليست كما يظن الناس أن أثيوبيا قد تحجب الماء عن مصر والسودان، ولكن أن تُطلق عليهم الماء بعد ملء السد، أو ينهار لسبب، أو لآخر خصوصاً مع وجود تشكيك هندسي في الأرضية والبناء. أضف لذلك علاقة إسرائيل مع أثيوبيا، بل حتى لو جاءت حكومة أثيوبية مؤيدة للعرب ومصر سيبقى وجود هذا السد مصدراً للخطر الفادح الأشبه بيوم القيامة لبلدين عريين كبيرين.

بينما دول المغرب العربي وليبيا عاجزة عن التعامل مع أي مشكلة، سواء أكانت جائحة كورونا، أم تعريب اللغة، أم توفير العمل ودفع التنمية، أم حسم أي حرب مع بعضها أم ضد جيرانها، فتبقى دول هامشية معتمدة على تحويلات أبنائها في دول المهجر إلى أهلهم في الربوع المغاربية، ومعتمدة على السياحة الأجنبية والتشمس فوق الرمال وتقديم الخدمات للسياح، وحميتهم من الإرهاب المحلي .. وبدون التحويلات والسياحة تُسبح الشعوب بحمد ربّها، وتختلف في فتاوى الزواج والطلاق، فلا مصنع ولا إنتاج ذات بال، بل إن التصنيع

الزراعي من الدرجة الثالثة بمقاييس العالم. جمهور الدول المغاربية في فرنسا وبلجيكا وغيرهما من الدول الأوروبية هم دينمو الاقتصاد الصناعي والإنتاج الزراعي !!

فلسطين البدايه ولا زالت تحت الإنهاك، وتلاها العراق وسوريا وليبيا ولبنان؛ ليصبح مصيرها في يد آخرين يتلاعبون كما يريدون، وكيفما يناسبهم، ويفيد مخططهم، أما دول الخليج فقد خلقت صراعاً ذاتياً داخلياً، ومن ثم فشلت في تحييد الخطر الإيراني لأسباب طائفية، بل إن السبب الطائفي هو الذي دفع الخليج لتحميس العراق على خوض حرب طاحنة لثمان سنوات ضد إيران، والآن الجميع خائف وخاسر، وأصبح في خطر نتيجة لفشل النهج الإسلامي في السياسة .. كل الأموال تصب في الخزينة الأمريكية التي تطالب علناً بدفع الجزية مقابل حماية المسلم من جاره المسلم .. إنه تماماً تكرارُ الحالِ الأندلسي.

الْخِيَانَةُ وَالْخِذْلَانُ

قليلةٌ هي الدول التي لم تمارس الخيانة، أو الخذلان على الأقل، ضدَّ القضية الفلسطينية، أو ضد إحدى جاراتها وأخواتها من الدول العربية الأخرى. الخيانةُ ضد فلسطينَ لا تقتصرُ على الفعلِ المباشرِ من معظم دول العالم في أزمنة متتالية، فمن لم تُخن بالفعل خانت بالتُّكوصِ عن دعم الحقِّ والقوانين الدولية وقرارات الأمم المتحدة التي وقعت عليها تلك الدول. لكننا هنا نتحدَّثُ عن الدول العربية، ولا تشمل حتى الدول الإسلامية غير العربية، ذلك لنرى أن العرب يكررون على التوالي خيانتَهُم لبعضهم ولدينهم كما فعلوا في الأندلس. كل حدث عربي في العقود الماضية تجد له رديفاً في تاريخ السقوط الأندلسي، وواقعنا اليوم أشبه بالأيام التي سبقت إعلان الهزيمة والرحيل عن غرناطة، وقصر الحمراء، وانقراض الإسلام والعرب هناك.

خيانةُ العرب لليبي، وخصوصاً أولئك الذين حرَّضوا على الفوضى ضد نظام القذافي ونهايته 2011، ودعموا الميليشيات، تماماً كما فعلوا في سوريا وقبلها في العراق .. الخونةُ هم أنفسهم، وأضيف إليهم لاحقاً تركيا أردوغان الطامعة في النفط الليبي والغاز على السواحل. ما لا يُعلنُ أمام الناس، ولكنه جلي أن دول الخليج وتركيا يتصارعون على قيادة الإسلام السُّني بقتلهم أهل السُّنة. وقبل تولي دفة القيادة تراهم زج بهم في صراع ضد إيران الشيعية إلى درجة إعلان تحالفات مع إسرائيل ضد إيران وأذرعها في المنطقة.

هذا الصراع الطائفي السني الشيعي أدى إلى تخريب اقتصاد لبنان، ووضع البلاد على حافة الهاوية والتفكُّخ، وهو الصراع الذي قتل أهل اليمن وتسبب في تدمير جيل كامل يعاني من كل شيء، وفي المقدمة المجاعة والمرض الناتج عن الحرب العربية العربية، أو السنية الوهابية ضد الحوثيين الشيعة، وضياح سنّة اليمن، وكل الحيات فيه من بشر وحيوان وزرع وحجر. وهو الصراع السني الشيعي الذي يُحاصر سكان قطاع غزة بحجة أن حركة حماس صديقة لإيران وحزب الله في لبنان، بينما مصر تشارك في الحصار برغبة سعودية، وحاصرت مع غيرها دولة قطر صديقة تركيا والإخوان المسلمين، أي من الطرف الآخر المُطالب بقيادة الإسلام السنيّ.

لبنان على صغر مساحته الجغرافية إلا أنه يعكس بوضوح إشكالية الصراع الطائفي بين دول المنطقة وقواها. في هذا البلد توجد كل الطوائف التي لم تكف عن الاقتتال منذ نهاية الانتداب الفرنسي، وفشلت كل محاولات التوافق والتّحاصُّ لشعور بعض الطوائف على أفضليتها، وهضم حقوقها .. وما يحصل في لبنان داخلياً هو ما يدور في المنطقة بين الدول، وأصبح الآن يدور داخل طوائف بعض الدول وفئاتها مثل، العراق واليمن وحتى السعودية والبحرين ومصر، أو بين فئات تعتبر ذاتها مهمشة وغيرها في بلدان، مثل؛ الكويت والجزائر والسودان. الصّراعات على أسسٍ سياسيّة في الإقليم قليلة بالمقارنة، مثلما يحدث من شقاق وانقسام في داخل ليبيا، وفلسطين، أو بين المغرب والصحراء. الصراعات المشحونة طائفيّاً هي السمة السائدة.

هكذا وعبر عشرات الأمثلة من التاريخ الحديث والمعاصر نجد أن العرب يخونون ذاتهم بفعل أناني، أو نتيجة لغباء أو انسياق خلف تأمين الكرسي. إذا عُدنا لقضية فلسطين سنجد أن من كانوا أمراء مناطق عربية فقيرة اتفقوا مع الإنجليز على تقبل دولة يهودية في فلسطين مقابل رفعهم إلى درجة الأمراء والملوك ودعمهم ضد خصومهم من الأمراء الإقليميين الآخرين. ونجد بعد إقامة دولة إسرائيل ملوكاً يتجسسون على مؤتمرات القمة العربية ويسجلون الجلسات، ويقدمونها لإسرائيل عربون صداقة، وبدل دعم غربي بواسطة إسرائيل ولوبياتها في واشنطن. قبل ذلك وحين تقدمت الجيوش العربية والمقاومة الفلسطينية عسكرياً ضد العصابات الصهيونية، تقبل ملوك العرب وقادتهم هدنة مكّنوا فيها اليهود من استجلاب السلاح والقوّات من أوروبا، فصارت لهم الغلبة، وصدرت بعد الهدنة الأوامر للجيوش العربية بعدم الاشتباك، ثم بالتراجع، وهؤلاء الملوك والقادة هم الذين رفضوا قرار التقسيم لفلسطين عام 1947.. قيل إن ذلك الرفض خوفاً من النكمة الشعبية، لكن الحقيقة أن كلاً منهم حصل على تأكيدات بتعزيز حكمه في إقليمه؛ ليرفض التقسيم ويتخاذل في أي حرب قادمة. وهكذا كان حال ممالك الأندلس بعد إعلان نهاية الخلافة في قرطبة.

الخيانة لا تقتصر على القادة العرب، فهي نتيجة لتفاعلات مخطط لها منذ زمن، وتنهش في المجتمعات من القمة إلى القعر، أصبحت ممارستها كخيار طبيعي لا بديل عنه. بدون فلسفات مطولة، فلو نظرنا إلى المجتمع الفلسطيني وهو المتضرر الأول من وجود إسرائيل سنجد أن

القيادات الرّسّميّة على أنواعها وخلافاتها الأيديولوجية أصبحت عميلة وخائنة لذاتها وشعبها وقضيتها. عقود متتالية من الكذب القيادي على الناس حتى اتضح أن الرئيس خائن للمبادئ، والقيادات الأمنية عميلة علنيّاً وتنشطُ ضد شعبها لصالح العدو، ولا نتحدث هنا عن الفساد المالي والفسل الإداري، فهذه توابع ومنتجات طبيعية إلزامية للخيانة. حركة حماس هي الأخرى تحولت إلى الخيانة للقضية والارتزاق والتسول والتجارة بالقضية. والحقيقة أن إسرائيل خلقت الحركة الإسلامية في قطاع غزة قبل الانتفاضة الأولى؛ لتواجه التيار الوطني وتُشغله، ثم تحولت الحركة الإسلامية إلى المقاومة بُعيد الانتفاضة، وفجّرت الباصات الإسرائيلية في (تل أبيب)، ففازت بشعبية كون الفلسطيني يطرب لصوت الرصاص والتفجيرات بين اليهود. حين تصدت إسرائيل لحماس عادت هذه لحماية ذاتها ومصالحها وكراسيها، وانضمت إلى افعال السلطة عملياً بالرغم من الجعجعة السياسية المضادة. كلاهما، السلطة ومنظماتها، وحماس وأخواتها، يرفضون الاستفادة من العنصر الإيجابي الوحيد لاتّفاق (أوسلو)، وهو التطبيق الدوري للانتخابات الرئاسية والتشريعية، وهم بذلك يقتلون شرعية قضيتهم حُباً في التمسك الفردي، ومن دون انتخابات بالكرسي المُهترئ.

لكن لماذا لا يثور الشعب الفلسطيني على العملاء بأنواعهم بالرغم من تكرار ثوراته وهباته وتضحياته ضد قوات الاحتلال؟ الإجابة متشعبة، فالشعب يرى أن الثورات العربية تؤدي إلى الخراب.

لكن السَّببُ الأهمُّ أن هذا الشعب سقط في وحل السياسة المؤدية إلى
الأنانية التحزبية المستعدة لمهادنة المحتل. فكيف ذلك؟

المستوطنات اليهودية المرفوضة دولياً، وهي البلاء الزاحف على
الأرض والتاريخ والجغرافيا والسياسة والمصير الفلسطيني .. هذه
المستوطنات يبنها الفلسطينيون مقابل الأكل، وبعض الأجور التي يقطع
قادة فلسطين جزءاً منها .. نعم العمالة التشغيلية الناتجة عن العمالة
والخيانة للذات تتم من بعض الشعب بتنسيق من القيادة الفلسطينية
وإرشاد وفوائد منها. سيقال لمن يعترض: وكيف سيعيش الناس؟ نعم
يعيشون بتحويل الاحتلال إلى احتلال خمس نُجوم.

لا يوجد شعب مُحْتَلٌّ يدعم إنتاج شعب يحتله وأقتصاده ويقهره،
لكن الشعب الفلسطيني يستهلك طوعاً، بل أحياناً يفضل البضائع
الإسرائيلية على الإنتاج المحلي إذا وجد. هذا يعني أن رفاهية الشعب
الإسرائيلي قائمة بشق كبير على الاستهلاك الفلسطيني. الأموال تأتي
لفلسطين من الدعم الخارجي الدولي أو العائلي الشخصي، والناس
تستهلك به الإنتاج الإسرائيلي.

السببُ الرئيسُ لذلك أن الخيانة أصبحت سهلةً وتنافسيةً،
وممارسةً من أعلى المستويات علانية، سواء أكان على صعيد المستويات
الفلسطينية أم العربية الرسمية، والواقع أن الشعوب العربية صامدة
وتقاطع التطبيع الاقتصادي والثقافي مع إسرائيل أكثر مما يمارسه
فلسطينيو الداخل في الضفة والقطاع، الذين يظهرون بسالة في المقاومة

والتضامن الشعبي حين تلوح في الافق عوامل وحدة وطنية كفاحية، وينسون شأن المقاطعة في اوقات الهدوء.

تخاذل القيادة الفلسطينية أفرز تيارات تعتبر ذاتها قِمةً في الوطنية، وهي التيارات التي تتمنى أحياناً عودة السُّلطة الإسرائيلية إلى إدارة الضفة والقطاع على حساب السلطة وحماس، أي؛ استبدال حُكمي السُّلطة وحماس بحُكم إسرائيلي. وحين جاءت صفقة القرن تمنى البعض وعمل على تطبيق فكرة الدولة الواحدة .. أي؛ دولة إسرائيل في كل فلسطين من النهر إلى البحر على حساب وبديل للسلطة وحماس. لا يوجد تفسير آخر لتأييد فكرة الدولة الواحدة سوى التسليم لإسرائيل، إذ إن طرح الفكرة وحتى يتم تطبيقها لا بد له من موافقة المنتصر الإسرائيلي، وهذا لن يقتسم مع المهزومين غير المقاومين أي؛ سلطات إدارية وادوار سياسية. وإسرائيل ترفض الفكرة أصلاً؛ لأنها تسعى إلى دولة يهودية توارثية تمهيداً للتوسع إلى الحدود التوراتية للدولة .. من النيل إلى الفرات.

هذه هي نتائج الخيانة والتخاذل المتدرج، تماماً كما حدث في الأندلس، وصولاً إلى الطرد والانقراض، لا جديد في الأفكار والمنهج، ولكن الظروف قد تتغير بالطبع. وللأمانة؛ فهناك فارق بين أمس الأندلس وحاضرنا بعد أكثر من 500 عام .. الأندلسيون طُردوا بالعنف والتّعنيف من بلادهم، أما عرب اليوم، وتحديدًا الأجيال الشابة، فهم يسعون إلى الهجرة من بلدانهم إلى الغرب ويتمنونها، وهم على استعداد لدفع ما لديهم من الثُّقود، بل والاستدانة مقابل تحمل تكاليف

مغادرة بلادهم. وللمزيد من الأمانة فالمقصود بالعرب هنا جغرافية الوطن العربي ما عدا دول النفط التي تُعَدُّ على مواطنيها؛ ليحافظوا على صمتهم ورضاهم، إذ توفر لهم فرص التعلم في الغرب والتطبب فيه، وقضاء الصيف في منتجعات العالم، أي إنهم ليسوا بحاجة لترك بلادهم ومراتبهم ومكاسبهم التي يُحَصِّلونها مقابل الصَّمتِ والمُوافقة والمُبايعة .. أي؛ مقابل فُتاتٍ ماديٍّ من الكعكة.

الخدلان الذي يوَلِّد الخيانة لا يُنمِّي فقط رغبة الهجرة لدي الأجيال الشابة العربية من الجنسين، لكن الحال ينطبق على بقية البلدان الإسلامية مهما كان أنتمائها الطائفي. الظاهرة وليدة فشل دول التَّحرُّر الوطني من الاستعمار الأجنبي، فهي أنظمة عسكرية أو دينية لا تحترم الديمقراطية، وبالتالي تعيق التجديد الإداري، وتعمق الهيمنة والفساد بفعل التسلط. إذا كان الفلسطينيون يفضلون منذ زمن عودة الحُكم العسكري الإسرائيلي بدل قيادتهم الوطنية، فإن اللبنانيين وبعد تفجير مرفأ بيروت طالبوا علناً بعودة الانتداب الفرنسي، ويعلنون رفضهم تسليم الدولة أي معونات مالية أو عينية خوفاً من نهبها. أمَّا في سوريا فقد ترك أكثر من نصف السكان بلادهم واختاروا اللجوء للغرب، أو للجيران على الأقل. وبالتأكيد فغالبية الأجيال الشابة في بلاد المغرب العربي تجذب ركوب البحر إلى الضفة الشمالية.

الصورة الشاملة لما يجري من تفاصيل كالتالي: إسرائيل تواصلُ نهجها ومخططها؛ لإقامة الدولة اليهودية بحدودها التوراتية، وهي بذلك تسخر الأفعال المباشرة والأخرى الخفية قصيرة وطويلة الأمد.

الدول الإسلامية تتنافس على قيادة الإسلام السني، وتحديدًا السعودية بدعم من دول خليجية أخرى ومصر، ضد تركيا بدعم من قطر ونصف ليبيا ونصف السودان ونصف فلسطين (حماس)، وهذا الصراع احتدم منذ 2011 وتسبب في خراب لمعظم الدول العربية بدعم مالي وعسكري ميليشاوي ضد بعضهم.

تنافس شيعي سني بقيادة إيران، ومعها نصف العراق ونصف لبنان وبقية سوريا وتلويح من حماس. هذا الصراع احتدم بنجاح الثورة الخمينية التي أعلنت تصدير الثورة للعالم الإسلامي كله، وبالتالي تم تأليب حكام الخليج لصدام حسين؛ ليتصدى لإيران، فكانت أطول الحروب وأعظم الخسائر حتى الانقلاب الخليجي على صدام وسقوط العراق تحت الهيمنة الإيرانية .. الحديث هنا عن ملايين الخسائر البشرية، وما لا يُحسَبُ من الخسائر المادية والمعنوية، والنتائج الكارثية.

بهذوء تام يستعيد الغرب هيمنته على ضفتي البحر المتوسط الشرقية والجنوبية، ويستخلصها من الحكم الإسلامي الهش عسكرياً، والفاشل اقتصادياً والمنساق ثقافياً. أوروبا وبأشكال عدة تتصدي لمحاولات تركيا التوسع في جنوب البحر المتوسط، وتتدخل في لبنان، وكأنه تحت انتدابها، ولعبت دوراً رئيساً في تخريب سوريا. وبوسع أوروبا متى أرادت تسعير الخلاف بأي مستوى بين دول المغرب العربي أو داخل كل منها .. المتحكم في التوقيت هو درجة استعداد تحملهم النتائج.

صناعة الانتصار

للمُنتصر روايته التي يفرضها بالقوة والتكرار، ويربطها بالمصالح، ورُبما بالدين أو الأخلاق أو التحضر، فتصبح مع الزمن حقيقة خصوصاً إذا لم ينجح المهزوم في التصدي الفعلي، فمنطق القوة يغلب دوماً قوة المنطق مهما تنمق الكلام واستشهد بالأصول والتاريخ. لا عودة لما قبل الانتصار إلا بانتصارٍ مُضادٍ أفضل. هذا ما حصل مع الجميع عبر التاريخ، مع الإسكندر الأكبر، والفُرس، والروم، والمسلمين، والصليبيين، والمغول، والإسبان في الأمريكيتين، والإنجليز عبر العالم، ومثلهم؛ الاستعمارُ الحديث، وما زال يجري للآن.

في 11 ديسمبر 1917 جاء في عنوان صحيفة نيويورك هيرالد الأمريكية: "القدس أنقذت بواسطة القوات البريطانية بعد 673 عام من حكم المسلمين." كان ذلك الخبر يَصِفُ دخول الجنرال (اللنبي) إلى فلسطين والقدس، وإنهاء الحكم العثماني الإسلامي فيها. مئة ألف من جنود الجنرال الإنجليزي كانوا من المصريين، والبقية من الهنود وبقية الدول المستعمرة تحت قيادة بعض الضباط الإنجليز. أما حساب السنوات في الخبر الصحفي فالمقصود به منذ طرد صلاح الدين الأيوبي للصليبيين بعد احتلالهم القدس لسبعين عاماً. ومنذ 1917 والقدس خارج السيادة العربية أو الإسلامية. في نوفمبر 1917 أي قبل شهر من احتلال الإنجليز للقدس، كانت الحكومة البريطانية قد سلّمت المنظمة الصهيونية وعد (بلفور) الذي يمهّد لدولة يهودية في فلسطين. وقبل

ذلك بعام كان الأوروبيون، الإنجليز والفرنجة والروس (قبل الثورة البلشفية) قد وضعوا مخطط (سايكس بيكو)، وقسموا منطقة الشرق الأوسط فيما بينهم، أي؛ تحديد ورثة الخلافة العثمانية المريضة قبل أن تموت.

بعد مئة عام وعشرات الحروب والثورات، والتدخل الخارجي أصبحت إسرائيل هي الأقوى في المنطقة، أو هكذا سادت القناعة، وتسيطر على كل فلسطين، ومناطق عربية أخرى وكانت قد احتلت مدن وعواصم عربية، وعقدت معها اتفاقيات سلام لتأمين حدودها الاحتلالية. وتسير الأحداث بسرعة فائقة، لتصبح إسرائيل ملجأ الدول العربية الغنية بالنفط والخليجية تحديداً، أصبحت حليفها ضد إيران، وأصبحت محط أنظار العرب؛ لتتوسط لهم مع الولايات المتحدة، فتحمي البعض، وتطعم البعض الآخر، وتوزع البركات هنا وهناك.

بعد الحرب العالمية الثانية، واستعادة أوروبا الغربية لعافيتها، ثم لقوتها وعزها وتوجه شعوبها إلى الدفع باتجاه حقوق الإنسان والأخلاق الرفيعة، وبعد أن خلقت إسرائيل بعد الحرب مباشرة؛ لتكون ركيزة لصناعها ومبرراً للقلق الإقليمي والتدخل الغربي بجُجج لا نهاية لها .. بعد كل ذلك ها هي السياسة الرسمية الغربية وريثة الصليبيين تسعى بوضوح؛ لاستعادة السيطرة على الضفاف الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، أي؛ لأراضي الإمبراطورية الرومانية التي انهزمت وانكششت أمام المد الإسلامي قبل 1400 عام. الاستعادة ليست بالضرورة حسب

المفهوم العربي الإسلامي بالسيف والاستيلاء على الأرض وما عليها من بشرٍ وحجرٍ وحيواناتٍ وخيراتٍ، وإنما يستعيدون بانتقاءٍ. يدمرون القوة العسكرية والاقتصادية للدولة المُستهدَفة، ويشعلون الحرب الداخلية أو الإقليمية ليفرغوا الجغرافيا. يأخذون من البشر ما يحلو لهم ويخمدُ اقتصادهم، ويستولون على الخيرات في الأرض، ويوجهون العصابات أو الحكومات الدُمى؛ لفعل ما يريدون.

الْمُنْتَصِرُ لا يعيد ما استولى عليه بالقوة إلا إذا هزَمَتْهُ قُوَّةٌ مُضَادَّةٌ. هذا ما كان في الماضي، وما زال سائداً لآن، ونحن في خضم زمن يوصف بالرُّقي والتحضّر وحقوق الإنسان، لكنه عاجزٌ، أو ترفض قُواه المُنتصرةُ المؤثرة أن تقر بأيِّ حقٍّ لمهزوم. لو كانت هناك أممٌ متحدة وشرعية دولية حين (فتح) العرب بلاد العالم شرقاً وغرباً، ولو احتج المحتلون من الروم والفرس والصين على احتلال العرب لأرضهم، فهل كان العرب المسلمون يستمعون لشكاوى المهزوم؟ قطعاً لا، وكان سيقالُ لهم أنتظروا التحضُّر، وأنتم فاسدون ديكتاتوريون تستغلون وتظلمون شعوبكم ونحن سنقودكم إلى الخلاص الروحي والجسدي.

هذا أيضاً ما فعله المستعمر الأوروبي في أمريكا، قتل ما قيل عنهم الهنود الحمر، وأبيدوا تقريباً في أمريكا الشمالية، وأزيلوا من المشهد. (أثناء زيارة لي للمتحف التاريخي الطبيعي الأمريكي في طوليدو بالولايات المتحدة افتقدت أي أثر للهنود الحمر بالرغم من وجود آثار وشروحات لكل الأجناس البشرية والحيوانية في القارة الشمالية، وحين

سألت المشرف على المتحف عن أي إشارات للهنود قال أنه لا يوجد، وبدى عليه الاستغراب من السؤال ومن عدم وجود معلومات عن أصحاب الأرض، أو من كانوا كذلك. (هكذا نجد أعضاء كونجرس وشيوخ، وزعماء كنائس وقادة رأي عام أمريكيين يتفهمون تماماً رفض إسرائيل إعادة الأرض التي احتلتها في حرب حزيران، في الضفة والقطاع والجولان، ويعتبرون أنه من الطبيعي، بل حق ديني لليهود أن يحتلوا ويحتفظوا بما بوسعهم احتلاله .. إنه منطق المنتصر وحقه ومفهومه، فأنت لا تحارب حتى تحتل الأرض ثم تعيدها إلى أصحابها وتمنحهم الحقوق الإنسانية والاقتصادية.

هذا هو الحال من الآخر، وهكذا كان، وكذلك سيبقى. لكن في عالم اليوم وللقفز عن الرأي العام الإنساني، يتم التّحليل عبر الكلام، وخلق الحجج المضادة؛ لاستمرار الاحتلال بالقوة سعيًا للنسيان وخلق الحقائق المضادة؛ وإيهام العالم أن المهزوم سيء يرفض المنطق، ومتخلف حضارياً يضر بالمسالمين من الجيران وعبر العالم. على الطرف الآخر يمارس المنتصر بالقوة أساليب حرب نفسية، لإذابة خصومه، فيوقعهم في وهم قوته الفائقة، وضعفهم التام، وإن عليهم الشكر والحمد لبعض عناصر الحياة من ماء ومأكّل وعمل بالسخرة، وبعض ساعات من الكهرباء، ويزرع في أذهانهم أنهم أتعسّ من أن يكون لهم قادة عقلانيون؛ لأنه يدعم القادة السفهاء المتعاونين ضد شعبهم، ويوهمهم أن مجتمعهم مهترئ .. هكذا يعيش المهزوم في رعب دائم وبحثٍ عما يسد رمقه، وتُخلق لديه عقد النقص الذاتي مقابل المديح العالي لعدوه،

فيبقى داخل الاطار المرسوم له حتى تحين لحظة الذوبان بشكل أو بآخر كما حدث للهنود الحمر، وكما حدث قبلهم للأندلسيين الذين اندثروا تماماً نتيجة لأفعالهم الذاتية.

في الأندلس استعد المسلمون قبيل النهاية إلى تقبل أي شيء في سبيل البقاء في بيوتهم وأرضهم وبلادهم التي عاشوا فيها عبر 800 عام، تقبلوا تغيير الدين والطباع وحكم المنتصر لهم، والرقابة عليهم، لكن الهدف المضاد كان الاستغناء عنهم والتخلص منهم وهكذا كان. اليوم لدينا سياسة إسرائيلية، للتخلص من الشعب والقضية الفلسطينية كجزء من النهج الغربي لتهميش الإسلام والعرب واسترداد ما يريدون تباعاً من بلاد الإمبراطورية الرومانية. في فلسطين أصبحت أمنية الغالبية من الشبان أن يعثروا على عمل في إسرائيل، وأصبح كل الشعب يستهلك الإنتاج الإسرائيلي، ويخس الإنتاج الذاتي المحلي، وانتشرت العدمية واللامبالاة بين الأجيال، وتحول الصّامدون إلى متسولين بأشكال عدة، وتعودوا الإعالة من الخارج، وسيبقون في انتظار أي حلول آتية من الآخر، الآخر الغربي كوسيط لدى الإسرائيلي، وأي حلول لن تكون أكثر من هدنة مؤقتة تستعد فيها القوى المضادة إلى موجة جديدة من التقدم في سبيل تحقيق غاياتها.

على صعيد شرق البحر الأبيض المتوسط وجنوبه، الذي كان يعرف عند العرب باسم بحر الرُّوم، أو ما يُسميه الأوروبيون بحرنا باللاتينية (مار نوستروم)، أو البحر المتوسط للإمبراطورية الرومانية،

طبعاً. مجرّهم ذاك يعجّ في السّنوات الأخيرة بجثث الذين يحاولون اللجوء من الشرق والجنوب إلى الضفة الشمالية، ويمكن التّخمين والادّعاء أن كل الشباب العرب على استعداد؛ لدفع ما يملكون من أجل الوصول إلى الشمال، والإقامة والعمل والاستقرار هناك كونهم فقدوا الأمل في تحسّن أوضاع بلدانهم التي عملياً لا تختلف في الطقس والجغرافيا عن بعض البلاد المنشودة. هذا بالطبع لم يأت من الفراغ، ولا يعود فقط إلى رغبة شباب الشرق والجنوب بالرحيل إلى الشمال، لكن هناك خُططٌ غربية لهندسة سكانية تصاحب خُططَ الاستعادة الجغرافية والهيمنة الاقتصادية .. أي؛ الاستفادة القصوى من قوى الشباب الأفضل، وتخريب الواقع السكاني المتبقي بعد المهاجرين أو المضطّرين بفعل الحرب للجوء، وهذا يقدم كما نرى كتلة من الفوائد والمصالح للغرب على حساب شرق البحر المتوسّط وجنوبه: تحسين متوسّط أعمار سكان الغرب، وتخريب المتبقين من سكان الشرق والجنوب، وإضعافهم إدارياً وثقافياً، التمهيد للانقضاء الجغرافي متى شاؤوا سواء أكان عبر قواعد أو استغلال للأرض أم السيطرة عبر الوكلاء أم حتى المباشرة .. وهنا أغلبية لسكان بعض الدول العربية أصبحت تفضل العودة تحت الحكم الاستعماري. على صعيد الدين؛ فالغرب غير مُستعجلٍ على إنهاء الإسلام، بل يُسعدّه ويساعده الاستمرار للطباع الإسلامية، والتراث الإسلامي طالما هو يكثر في جغرافيا الشرق والجنوب، أما تدينُ الجيل الأول من اللاجئين فسوف يتراجع بسرعة عندما يستقرون في الغرب،

ولن يكون الدين سوى ذكرى وبعض الطقوس لدى الأجيال القادمة من أبناء اللاجئين.

كان الصراع القديم مع الإمبراطورية الرومانية يشمل الإمبراطورية الفارسية، والدويلات العربية النصرانية؛ لهذا ولضمان تمرير المخططات بسهولة يتم التعامل مع إيران كعدو تقريباً، وأصبح جلياً أن تركيا، وهي الوريث للإمبراطورية العثمانية، أصبحت في مرمى أهداف المخططات الغربية وخصوصاً في العقد الأخير، ويتضح الموقف من تركيا بسرعة شبه أسبوعية وتلاحق يومي للأحداث، فهي في النهاية جزء من الإمبراطورية الرومانية القديمة بل كانت القسطنطينية، أسطنبول، عاصمة الشق الشرقي من تلك الإمبراطورية.

ليس من قبيل الصدفة إصرار الغرب على شروط السلام مع تركيا المهزومة بعد الحرب العالمية الأولى، فقد أصرت القوى الغربية على طرد كل سلالة السلاطين من البلاد، لضمان إنهاء التفكير في عودة الخلافة، ولضمان استمرار موقعهم في خانة المنتصر. أصرّوا أيضاً على علمنة تركيا وفصلها عن الدين الإسلامي، وهو ما نفذ (أتاتورك) الذي استجاب أيضاً لإنهاء اللغة والخط العربي، واستعدّ للانضمام إلى المنظومة الغربية وقام على تنفيذه، التي أرادت ضمان استبعاد شر تركيا عن بقية البلاد الإسلامية العربية ريثما يتم رسم حدود تفتيتها، وخلق قيادات مطيعة فيها تقبل بدولة يهودية، وتنصاع للإرادة الغربية. حتى

تركيا خططوا لها الانضمام إلى تحالفات الغرب والصداقة مع مخطط إقامة إسرائيل .

جاء (سايكس بيكو)؛ ليلغي كل الوعود التي قدمها الغرب للعرب إذا ثاروا ضد الدولة العثمانية .. وهكذا كان، ولكن تم تقسيم البلاد وزرع أسس الفرقة والتخلف والانصياع، وخلق مشاكل لا نهاية لها تمهيداً؛ لابتلاع المنطقة كما نرى الآن بوضوح في السنوات الماضية، أي؛ بعد قرن واحد فقط على انتهاء الخلافة العثمانية. تنصلوا من اتفاقيات إقامة خلافة أو مملكة عربية متحدة تضم ما يعرف الآن بالشرق الأوسط، وقسموا المنطقة إلى دول وحدود، وكل دولة إلى طوائف تمهيداً لشرعة دولة يهودية، ولضمان تفخيخ المنطقة وإشغالها بالصراعات حسب رغبتهم. فصلوا لبنان عن الشام، وأصبح دولة طائفية عام 1946، وبعد ذلك مكنوا إسرائيل عام 1948.

في كل من هذه الأحداث كانت هناك عمليات تحريك للسكان. عشرة ملايين لبناني تم تشجيعهم على الهجرة للأمريكتين، وأغلبية الشعب الفلسطيني تم تهجيرهم بقوة صهيونية وخطط بريطانية غربية، ثم أُنْجِهوا؛ لتذويب الشعب الفلسطيني في البلدان المجاورة وعبر العالم، بينما نشطت إسرائيل في تجميع اليهود من العالم؛ لإحلالهم في الأرض الفلسطينية. لم تتوقف الحروب بأنواعها وبدفع وتخطيط غربي في المنطقة سعياً لتحطيم أفاق أي وحدة عربية، ومن أجل تشجيع الطائفية، وتطفيش السكان .. حتى 2020 أصبح نصف السوريين خارج حدود

بلدّهم، وتفتّت العراق، وحرمت مصر من أي أفاق للتقدم والقوة، وأعلنت إسرائيل قانوناً يؤكد أن بلادهم هي التوراتية من النيل إلى الفرات، وأنها للشعب اليهودي فقط، وأن كل من لا يزال يقطنّها من غير اليهود هم سكّان مقيمون، وليسوا مواطنين.

أصبح جلياً من تطورات الأحداث بعد انفجار مرفأ بيروت في الرَّابع من أغسطس 2020 أن هذا الكيان وظيفي للغرب كما ظهر من تصريحات وتصرُّفات القيادة الفرنسية، كما أن الخوف الغربي على إسرائيل، وضرب القيم الإنسانية والحقوق الدولية بالجزمة طالما أنها تؤثر على مخطّط اليهود، وبالطبع وقوع القيادات العربية تحت إمرة الغرب مباشرة أو بالانصياع لرغباته؛ خوفاً من التهديد والحصار والمقاطعة .. كل ذلك وغيره مما يجري في السنوات الماضية وبتسارع يهدد بذوبان الدول العربية المفككة كما تفككت الأندلس إلى ممالك وذابت بلا عودة .. الفارق الآن هو التسارع الزمني فيما يجري الآن.

الذوبان

أبلغ تعبير في وصف حال الأندلس عقب الفتنة التي أنهت الخلافة في قرطبة 1031 ميلادية، وقيام دول الطوائف قول ابن الخطيب: "وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب وآل افتراق، إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار، مع امتيازها بالحل القريب، والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في الفريسة نسب، ولا في ثروة الإمامة مكتسب، اقتطفوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار، وجبوا العمالات والأمصار، وجندوا الجنود، وقدموا القضاة، وأنتحلوا الألقاب، وكتب عنهم الكتاب الأعلا، وأنشدتهم الشعراء ... ووقفت بأبوابهم العلماء ... »

استمر الذوبان الأندلسي 461 عاماً منذ إعلان إنهاء الخلافة في قرطبة حتى تسليم مفاتيح قصر الحمراء في غرناطة، آخر ممالك المسلمين. لكن الآن، ومنذ نهاية الحرب العالمية الأولى، وإنهاء الخلافة العثمانية بفعل غربي انتهى باحتلال ورثة جغرافيا تلك الخلافة، يكون قد مر حوالي قرن من الزمان. لكن العقد الأخير من هذا القرن يشهد تطورات متسارعة على طريق الذوبان وتحكم الغرب في المشهد ومنح إسرائيل نصيباً كبيراً من هذه الورثة.

كان المشهد العربي أثناء الحرب العالمية الأولى تابعاً للخلافة العثمانية رسمياً، وكانت خلافة ظالمة ومتخلفة، وتورطت في الحرب إلى جانب ألمانيا. اشتغل الطرف المضاد وتحديداً الإنجليز على تأليب العرب؛

للتخلص من الخلافة ووعدت بدعم وحديثهم في خلافة عربية مستقلة إذا هم دعموا بريطانيا في الحرب وغدروا بالخلافة العثمانية. في الوقت ذاته رضخت بريطانيا لمطالب اليهود وأموالهم ومنحتهم وعد (بلفور) لإقامة وطن قومي على حساب الفلسطينيين. وعندما انهزمت الخلافة العثمانية تنكر الحلفاء الإنجليز لوعودهم، ونشطوا فساداً في المنطقة بعد تقسيمها، وأخذوا يعدون القبائل وقادتها بحكم هذا القطر أو ذاك ولكن بشرط تقبل اليهود في فلسطين .. القيادات القبلية التي رفضت هذه الفكرة استبعدت من الحكم، ونصب الإنجليز والفرنسيون المحتلين بالقوة للاقطار العربية من أرادوا، ومن استعد للتجاوب مع الهدف اليهودي. هكذا بدأ انعدام المنطق التاريخي للأحداث، فالحكام تابعون للاستعمار، ويعتمدون على قبيلة أو على الجيش ويحرمون الآخرين من حرية القرار والمشاركة. عندما تغيرت ظروف بريطانيا، وطريقة إدارتها لمستعمراتها، وقررت سحب قواتها من دول الخليج حزن قادة تلك الدول ثم استعانوا بقوى استعمارية جديدة وخصوصاً أمريكا، وصاروا يستجيبون لرغبة أمريكا بتقبل حماية إسرائيل لهم بعد أن تجاوبوا مع تأسيسها، والسكوت عنها مسبقاً. هذه هي المرحلة التي بدأت علناً عبر الاتفاق الإماراتي الإسرائيلي الأمريكي للتصدي لإيران، ولبدايه العصر اليهودي وتسارع دول عربية أخرى للتجاوب، ومسايرة الرغبة اليهودية.

لقد جاء ميلاد الدول العربية، وإقامة جامعة الدول العربية، كنتيجة لانهايار عسكري سابق للخلافة العثمانية وتدبير لاحق لبريطانيا وفرنسا، ولم تولد الدول العربية كنتيجة لمخطط عربي سابق حقاً

نجاحاته. كانت الفترة بين الحربين العالميتين في الدول العربية فوضوية نظراً لانشغال قوى الاستعمار في الحروب ضد بعضها وفي كل الساحات، وحاجتها للهدوء في المستعمرات وبالطبع لبعض الدعم من أبناء المستعمرات الذين تم خرطهم في القوات الحربية عنوةً. (قتل 45 ألف مغاربي بين صفوف الجيش الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى) اتجهت آمال العرب، بعد خداع الإنجليز والفرنجة لهم، إلى ألمانيا انتظاراً لهزيمة الإنجليز والامريكان، ليس حباً في النازية ولكن كرهاً في الاستعمار المباشر وانتقاماً من الخداع الإنجليزي ونقضهم المعاهدات. وكان الإنجليز والفرنجة قد رسموا الحدود ونصبوا الملوك واختاروا نظم التعليم والقانون، وتناقل الغرب الهيمنة على هذه الدول، والاستمرار في استغلالها منذ نهاية الحكم العثماني في الشرق، وقبل ذلك في شمال أفريقيا، وحتى الآن.

هذا الميلاد للأقاليم العربية من قلب هزيمة الأتراك العثمانيين أولاً ثم هزيمة ألمانيا، وانتصار أوروبا الغربية وتحديداً فرنسا وبريطانيا سبقه أربعة قرون تراكم فيها التخلف في قلب الخلافة العثمانية وأرجائها التي احتفظت بأساليب الحرب بالسيف والخيل، بينما استعمر الغربيون بالمدافع أفريقيا وآسيا حتى جاء الدور على أملاك الخلافة العثمانية، ولا زال الفارق شاسعاً بل تزداد الهوة بين أوروبا والأقطار والأنظمة التي ولدت من رحم العثمانيين في الوطن العربي بفعل غربي.

كان العثمانيون قبائل بدوية رعوية متنقلة عاشت غرب الصين، وتصادمت مع تجمعات حضارية حتى استقرت في آسيا الصغرى، وشكلت قوة غازية بقيادة عثمان غازي الذي اعطى جماعته اسمها. أصبحت جارتهم الإمبراطورية البيزنطية في طور الانهيار الذي يتبعه الاقتتال، فاستنجد أحدهم بعثمان لينصره على بيزنطيين آخرين .. هذا الاستنجد فتح شهية عثمان، فباشروا في غزو أطراف الدولة البيزنطية وقلبها واحتلوا القسطنطينية عام 1453. حاولوا التوسع في أوروبا ولكنهم فشلوا أمام النمسا وروسيا، فارتدوا واتجهوا للبلاد العربية مطلع القرن السادس عشر، وكانت المنطقة قد عانت من الغزو المغولي والانقسامات، فظهرت العثمانية، وكانت بالفعل، متقدمة وتناطح القوى الأوروبية عسكرياً مقارنة ببقايا الدولة العباسية.

أثبع العثمانيون في خلافتهم أسلوب الإدارة عبر تعيين والٍ لثلاث سنوات عليه جمع الضرائب والأتاوات، وتوريدها لاسطنبول، فأصبح الوالي ينهب بشدة لصالحه ولصالح السلطان. من هنا استنزفت البلاد ونشأ الشرخ بين العرب والعثمانيين الجُباة وتراجع الطرفان مُقارنة بأوروبا حتى أصبحت الإمبراطورية العثمانية مريضة، وتقاسم الاستعماريون الأوروبيون إرثها، وعززوا السيطرة بأشكالها المتطورة المتلاحقة على العرب، بينما انضم الأتراك الجُدُد إلى المعسكر الغربي العلماني، ولكن بدون سلاطين أو سيطرة حربية على الدول العربية والبلقان وعدة دول في شرق أوروبا كانت تابعة للنظام العثماني حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

المشهد الآن وبعد قرن من العلمانية في تركيا أصبحت البلاد صناعية متطورة وعادت تناطح الغرب دبلوماسياً تمهيداً للتصدي العسكري والاقتصادي؛ لاسترداد بعض ما كان ضمن الخلافة العثمانية، بينما أصبحت الدول العربية معادية للعلمانية وتائه دينياً، وتنهار تبعاً تحت وطأة الحروب والجهل والبطالة والمجاعة والفيضانات والجراد والانصياع للمشروع الصهيوني في فلسطين، وأصبحت بكل وضوح كغنيمة يتنازعها الفرس والأتراك والروس والأمريكان والفرنجة، وبالطبع؛ إسرائيل التي تعتبر ما بين النيل والفرات أراضي تابعة للدولة اليهودية قيد التوسع.

القاعدة الثابتة من مراقبة التاريخ أن لكل حضارة بدايه ونهاية، هكذا كان الحال منذ ما قبل الفراعنة والكنعانيين وبابل والإغريق والرومان البيزنطيين والفرس والعرب والعثمانيين، وما بينهم من قوى نشأت وذبلت بسرعة. بعض هذه الحضارات تسترد عافيتها وتعود بأشكال أخرى، كما حدث في الحالة الأوروبية وريثة بيزنطة والإغريق، ومحاولات إيران للنهوض كوريث للفرس، وبالطبع محاولات تركيا الحديثة في مناطق أوروبا في عهد الرئيس أردوغان الذي يدفع بالأحداث إلى حافة الانفجار؛ سعياً لتأمين حدود ومصالح كانت من ضمن الخلافة العثمانية.

على الطرف الآخر من المعادلة فالحضارة الأندلسية لم تظهر مجدداً للوجود بأي شكل طوال خمسمئة عام بعد ذوبانها؛ إذ تم اقتلاعها من

الجذور وحل بدلاً منها نظام ديني كاثوليكي متعصب، وهذا ما تحاول إسرائيل فعله في فلسطين، ولكن بوتيرة زمنية أسرع مستفيدة من تطورها الصناعي الحربي، وسيطرتها على مفاتيح أقوى قوة في العالم، وتأثيرها على العالم الغربي. هكذا تلوح إسرائيل للعرب بقدراتها على حمايتهم من الفرس في الخليج والهلال الخصيب، وعلى قدرتها؛ لردع تركيا عسكرياً إذا لزم الأمر، وهذا يهم مصر جارة ليبيا المتنازع حولها مصالحها بين تركيا وأمريكا والغرب .. هذا في حد ذاته يعني قيام قوة إقليمية جديدة مهيمنة على المنطقة، وتعمل ضد المصلحة العربية ليس في فلسطين فقط، وإنما لديها أطماع أبعد سهولة التحقيق في ظل الانهيار العربي الإسلامي.

بمعنى آخر أصبح واقع الوطن العربي الإسلامي أشبه بالأندلس العربية الإسلامية حين تفككت إلى ممالك متناحرة، وأخذ قادتها يثبتون ذاتهم ضد جيرانهم العرب الأندلسيين عبر الاستعانة بالعدو النصراني مقابل تنازلات تؤدي إلى الانصياع والذوبان. الملاحظ أن التقدم الإسرائيلي سريع الخطوات في الأقاليم والممالك عديمة الديمقراطية والأطر الشعبية والنقابية، أي؛ حيث القرار يعود لشخص واحد أو بضعة أشخاص بدون استشارة أو اعتبار لرأي الشعب الذي أصلاً لا رأي لديه، ولا مطالب سوى العلف والخلف.

عنصر القوة هو الأساس في بدايه بناء الإمبراطوريات عبر الغزو والتفوق، فإن اكتفى الغازي المحتل بالقوة وأضاف الظلم والجباية

انهارت الإمبراطورية بسرعة متناغمة مع مقدار الظلم وموقف الطرف المحتل، وإذا تطورت الإمبراطورية إلى حرية وعدالة وصناعة مواكبة لتلك القوة، تطول فترتها حتى تسقط بعوامل داخلية تآكلية وأخرى خارجية تعتمد القوة من الطامعين .. هذا ما حصل مع العرب والأندلس والفرنجية والمغول والصليبيين والعثمانيين، والآن مع إسرائيل بالاعتماد على مبدأ القوة للاستيلاء .. الحديث عمن يملك الحق والتاريخ والعطاء الإلهي هي ذر للرماد في العيون، وللتبرير والاستهلاك الخطابي، ولا فائدة عملية لها منفصلة عن القوة القائمة على التخطيط والمال والسلاح والرجال. أيضاً مقررات وقرارات مثل؛ الأمم المتحدة ومؤسساتها في تنظير الحق لا معنى لها كونها لا تُدعم بالفعل إلا إذا كان القرار يخدم من يستطيع تطبيقه بالقوة، وما غير ذلك هو هُراء الضعفاء، وعُواوَاهم، ولا يُسَمِنُ أو يُغني من جوع.

العلوم والقوة

سقطت غرناطة، بعد ثمان قرون، كآخر أمارات الأندلس في عام 1492، وكانت الدولة العثمانية قد تأسست قبل ذلك السقوط بقرنين من الزمان في عام 1299، وتوسعت في آسيا الصُغرى وشرق أوروبا والبلقان مع عام 1354؛ لتصبح إمبراطورية، وتعاضمت القوة العثمانية الإسلامية وفتحوا القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، عام 1453، أي؛ قبل أربعين عاماً من سقوط غرناطة التي كانت تستنجد بالمسلمين في كل مكان سواء أكانوا من العثمانيين، أو ما كان قائماً اسماً كخلافة عباسية مقرها في مصر وتضم الشام والحجاز، لكن لم ينجدها أيُّ مسلم من خارج الأندلس بالرغم من عنفوان الإمبراطورية العثمانية آنذاك.

كانت حسابات القبيلة العثمانية في وارد آخر، وتسعى للتوسع من الوسط للأطراف، وليس نجدة دول إسلامية منحدرة مثل الأندلس. عام 1517، أي ربع قرن على ذكرى سقوط الأندلس، استولى العثمانيون على مصر والشام وعُزل الخليفة محمد المتوكل بالله عن الخلافة لصالح السلطان سليم الأول الذي حمل اللقب وتبعت له الدول الإسلامية القريبة والبعيدة، وامتدت السُلطة نظرياً إلى بلاد المغرب على حدود الأندلس، وعلى ضفتي البحر الأحمر حتى اليمن، وبالطبع؛ على العراق والخليج العربي حتى قطر الحالية وما بعدها، هذا بالإضافة إلى

تمدد حدود الخلافة العثمانية على الضفة الشمالية للبحر الأبيض،
وشمالاً وشرقاً في أوروبا.

بعد قرنين من الزمان بدأت الأمور تتغير أمام الخلافة العثمانية
من خلال تقدم عسكري وعلمي للطرف المعادي، اذ ركبت أوروبا
وروسيا ركب الحضارة وركدت الخلافة العثمانية، وأنتشر في أطرافها
التراجع والخسارة العسكرية والقضم، ثم تدخلت أوروبا القوية في
السياسة الخارجية والداخلية للخلافة العثمانية الخاملة، وفرضت عليها
قوانين خاصة للأقليات الدينية والعرقية غير المسلمة المقيمة داخل حدود
الخلافة. فيما يخص العرب تحت الحكم العثماني كان عليهم الدفع
للولاء، والانتظام في جيش الخلافة، وخوض حروبها والسقوط في
مستنقع التخلف المتسارع حتى جاءت الحرب العالمية الأولى التي انقسم
فيها العرب، بعضهم يقاتل مع الأتراك، وغيرهم مع أعداء الأتراك من
الإنجليز والفرنجة.

المهم هنا هو ملاحظة أن مصر التابعة كلياً للخلافة العثمانية تم
احتلالها من الإنجليز عام 1882، وكانت فرنسا قد احتلت الجزائر عام
1830 بعد حملة عسكرية تدميرية، واحتلت تونس عام 1881. هذه
الدول كانت تابعة نظرياً للخلافة العثمانية، وتدفع الضرائب لإسطنبول،
وسقطت للاستعمار الفرنسي والإنجليزي من دون تدخل للخلافة التي
كانت تستميل أعراب شبه الجزيرة بالمال والترهيب والترغيب حتى لا
يسقطوا في خدمة الإنجليز ويتآمروا على الخلافة.

لم تكن هناك روح وطنية عربية ذات معنى متعمق لدى العرب بين المحيط والخليج، ولا ترابط إسلامي أوسع، وذلك من جراء التجربة المعاشية في ظل خلافة جباية متخلفة .. هكذا أصبح المصريون يُجندون في القوات الامبريالية البريطانية، وعرب شمال أفريقيا مثلهم في القوات الفرنسية، وخاض هؤلاء على الطرفين حروب الأسياد الاستعماريين ضد بعضهم بعضاً، وسقط مئات آلاف الضحايا العرب دفاعاً عن الإمبراطوريتين ومدنها في أوروبا وأفريقيا، ولم تُكرم ذكراهم لاحقاً، بل لا زالت فرنسا ترفض الاعتذار عن المآسي التي تسببها الاحتلال لشمال أفريقيا، ونقض الوعود بالاستقلال، أو حتى مجرد المساواة أو التصدي للعنصرية على الأقل.

الحرب العالمية الأولى أنهت أربع امبراطوريات، العثمانية والروسية والألمانية والنمساوية، وأعيد تقسيمها لصالح المنتصرين. مصر خسرت أكثر من 600 ألف جندي على الجبهات الأوروبية في خدمة القوات البريطانية. وشاركت القوات المصرية في حرب السودان، وفي احتلال الإنجليز لفلسطين والقدس .. شاركت إلى جانب الإنجليز طبعاً؛ وتحت قيادة الجنرال اللنبي. أشياء أكثر مأساوية حدثت للعرب في الجيش الفرنسي على جبهات تلك الحرب، وبعدها اتضح للعرب أن الإنجليز والفرنجة ليسوا في وارد الوفاء بوعودهم في الاستقلال للشمال الأفريقي أو إقامة الخلافة العربية في شبه الجزيرة والمشرق، حينها بدأ الشعور الوطني والقومي يتشكل ويتحرك. لكن من ذلك الحين، وطوال قرن تلى استفادت القوى الاستعمارية من فارق الذكاء والعلم لصالحها مرة

تلو الأخرى، وقسمت هذه الأقاليم إلى دويلات ونصبت من استعداد وتعهد أن يكون في خدمة مصالحها، وهو ما زال قائماً للآن.

بعد انكشاف الاستعمار تحركت قوى وطنية بالتدريج في مصر والشام، وزاد الزخم بعد الحرب العالمية الثانية، ثم جاءت ثورة يوليو في مصر التي أنهت الاحتلال الإنجليزي والملكية، ودعمت حركات التحرر ضد الاستعمار في كل الأرجاء العربية من الجزائر حتى اليمن .. أهم ما خلقه عبد الناصر هو الشعور بالعروبة مجدداً وبغزة النفس ومخاطبة الاستعمار بالضرب بالجزمة. لكن العربان أنصار الاستعمار تكالبوا علناً على محاولة مصر وجمال عبد الناصر لتوحيد الدول العربية بأسلوب عصري، حتى قبل أن تفكر أوروبا في تكوين وحدتها.

السؤال الآن وبعد قرن على نهاية الحرب العالمية الأولى، هل يمكن أن يكرر التاريخ ذاته، وينضم الجنود العرب إلى القوى المستعمرة للقتال ضد بلدان عربية أخرى، أو للاشتراك في حرب شبه عالمية ساحتها الإقليم الشرق أوسطي؟ لقد تمت الإجابة على الشق الأول من السؤال مراراً وتكراراً في الفترة التي تلت نهاية الاستعمار وحتى حرب الخليج الأولى والثانية، حيث تحالف عرب مع الأمريكان ضد العراق، ومن ثم الحرب في اليمن حيث تقاتل العرب ضد بعضهم بدعم وتسليح استعماري، هذا من دون التذكير بالحروب الأهلية المستعرة بدفع من الاخوة والجيران وتمويل منهم ضد بعضهم. نتذكر بالطبع بين أحداث الأندلس التي أدت إلى الاندثار، وبين الأحداث قبل وبعد

الحرب العالمية الأولى ووقائع نصف القرن المنصرم .. كلها تؤدي إلى نهاية الطريق الأندلسي.

صار لدينا في عام 2021 دول عربية متحاربة ضد بعضها منذ زمن، وبعضها تتعاون استخبارياً وعلى وشك توقيع اتفاقيات دفاع مشترك مع إسرائيل ضد الجارة المسلمة إيران، على اعتبار أنها عدو مشترك لدول الخليج وإسرائيل. ولدينا قبل ذلك ومنذ اتفاقيات (أوسلو) بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، دفاع فلسطيني إسرائيلي مشترك ضد الفلسطينيين، فأجهزة الأمن الفلسطينية تعمل بالتعاون والتنسيق مع إسرائيل، وتتسلح بسلاحها وتنفذ طلباتها الأمنية ضد الفلسطينيين، ولا علاقة للأمن الفلسطيني بالاعتداءات الإسرائيلية، ومن المستوطنين ضد الفلسطينيين، أي؛ خدمة أمنية استعبادية من جانب واحد. وكما يُسمح للمستوطنين بحمل السلاح، يُسمح للأمن الفلسطيني الرسمي الشيء ذاته، فكلاهما موجه إلى ذات الهدف .. حتى انتفاضة الاقصى (رمضان 2021) وما تلاها من حرب وتدمير على قطاع غزة وثورة وتقتيل في الضفة المحتلة لم يغير من واقع الامر للخدماتي الامني الفلسطيني الرسمي مع الاحتلال.

تقول إيران (فبراير 2021) أن عدم تصنيعها للسلاح النووي أمر طوعي، وقرار ذاتي، لكن إذا استمر التضييق عليها، ربما بفعل تحالفات خليجية إسرائيلية، فسوف تصنع سلاحها النووي لتحمي ذاتها، فهي "كالقط، لا تعرف ماذا سيفعل إذا حشرت نفسك معه في غرفة مغلقة".

وربما هذا تلميح لأن طهران انتجت السلاح النووي، فقد قال نائب الرئيس (بارك أوباما) والرئيس الحالي للولايات المتحدة، (بايدن)، قال إن الاتفاق النووي الموقع مع إيران قد عطل قدراتها النووية الحربية لعام واحد، فجاءت رئاسة (ترامب) بالعداء والانسحاب من الاتفاق النووي، فرمما تكون إيران بالتالي قد صنعت قبلتها النووية طوال سنوات (ترامب) الأربع! وإذا شعرت إسرائيل بامتلاك إيران للسلاح النووي فسوف تعمل على تخويف العرب ودفعهم لحرب مشتركة مبكرة أو تكتيكية لشل القوات الإيرانية وقدراتها الصاروخية النووية .. هكذا وسواء أكان ضمن هذا السيناريو أم أشياء مشابهة فلم يعد مستغرباً رؤية قوات عربية تهاجم إيران بتغطية جوية ومظلة نووية إسرائيلية، وربما بمشاركة جنود ومجنذات، وتحت قيادة ضباط من القوات الإسرائيلية.

شيء كهذا، أي التحالف مع العدو ضد الذات، حدث في الأندلس، وأثناء الغزو الصليبي للشرق، ومع الزحف المغولي على الخلافة العباسية، وأيضاً حين اشترك جنود عرب مع قوات استعمارية محتلة بلادهم لمحاربة قوات استعمارية أخرى، كما في حالة مصر والإنجليز، أو جنود شمال أفريقية مع الفرنجة أثناء الحرب العالمية الأولى، وتكرر في الحرب العالمية الثانية مع زيادة المنضمين للاستعمار والشق العميق بين أبناء البلد الواحد. بالطبع لا ننسى الانصياع للرغبة الأمريكية في تشكيل تحالف حربي عربي قاتل ضد العراق، ناهيك عن تشكل الميليشيات للقتال ضد أنظمة وطنية كما في حالة العراق وليبيا

وسورية، وهي جمهوريات تدمرت بفعل أبنائها الممولين والمضللين مباشرة من قوى معادية، وها هي بعد عقد من الزمن في حال أسوأ بمئات المرات عما كانت قبل التخريب والخراب الذاتي، حيث أفتقد الأمن والطعام ناهيك عن الكرامة وهجرة نصف السكان لبلادهم.

الممالك والإمارات العربية التي لم تُخرب بفعل ذاتي م مهد له من الأعداء، ومولت التخريب للجمهوريات العربية، هذه الدول أصبحت على حافة الحرب مع إيران وبقيادة إسرائيلية، وأي حرب حتى غير نووية ستعيد دول الخليج هذه إلى عصر البداوة والبعير. المثال الحي ما وصلت اليه اليمن من دمار ومجاعات بفعل هجوم عربي ضد يمينين أنصار لإيران، فكيف ستكون نتائج الحرب ضد إيران على أنظمة الخليج؟ على الأرجح أن معظم عرب الخليج سيركبون كل شيء مغادرين لبلادهم بعد بضعة صليات صاروخية على المدن الرئيسية، وستظهر النزعة الطائفية التي تمزق البلدان أينما نشأت، ويتدمر القطاع النفطي الذي يشكل العمود الفقري لتلك الدول، وكل ذلك لصالح إسرائيل مباشرة.

التشابه في القرن الحادي والعشرين مع حالة الأندلس في القرن العاشر، لا يخفى على أي مراجع للتاريخ .. لكن الحالة العربية تشبه أيضاً ما ساد في مطلع الخلافة العباسية من اعتماد على الأغيار الذين شكلوا في البدايه الخدم، ثم أصبحوا بسرعة الجند ثم القادة والحكام الفعلين للقصور والأقاليم والخلافة. إذا كانت إيران ستحارب وحدها

سواءً أكان دفاعاً أم هجوماً، وتستعمل ما تصنعه من أسلحة حديثة، وحتى طائراتٍ وصواريخ، وربما قنابل نووية .. إذا كان الوضع هكذا، وهو كذلك بالفعل، فلماذا لم تطور دول الخليج ذاتها هي الأخرى، وهي الأغنى مالياً؟ ولماذا يتوجبُ عليها ترك مصيرها في يد مستعمرين مستغلين، وشبه مجانين على شاكلة الرئيس الأميركي السابق (ترامب)، ويصل بهم التدهور إلى الجلوس في حضن اليهود؟!!

هناك أنظمة عربية ورثت نظام السلطنة والخلافة السياسي والمالي، أي تصرفُ الحاكم في مصير الناس، والمال المفترض أنه من حق الدولة. وهؤلاء يجمعون المال في البنوك العلنية والسرية، وكأن الدولة ملكٌ لهم وروثه عن آبائهم. هؤلاء لا يهتمهم بناء المجتمع والدولة والصناعة أصلاً، وإنما غايتهم تأمين ذاتهم بأكثر قدر من المال والغنائم تحسباً ليوم الهروب، ولذلك لا يهتمهم في الواقع من يحميهم، ويضمن استمرارهم، وحينما تتولد ظاهرة قيادية شريفة يشعرون بالرعب على مصيرهم، ولو من باب إجراء مواطنيهم للمقارنات، وبالتالي تتحرك الخيانة والخسّة في دمائهم ويتآمرون على هذه الظاهرة.

المقارنة بين أي زعيم عربي سواء أكان في الماضي أم الحاضر، وخصوصاً في بلدان الخليج العربي، وظاهرة جمال عبد الناصر سوف تجيب على كل التساؤلات، ومن ضمنها لماذا لم يزالوا يشوهون تلك الظاهرة بعد عقود من تكاليفهم عليها، وبعد نصف قرن على رحيل الرجل. كان الراتب الشهري للزعيم المصري الراحل، خمسمئة (500)

جنيه مصرى، وكان الصافى الذى يصل إلى يده هو 395. أما ثروة الرئيس يوم وفاته فى 28 سبتمبر 1970، كانت كالتالى: 3700 جنيه و37 قرشا و2 مليون، رصيد مودع فى بنك مصر، ثم 200 سهم فى شركة كيما، و5 أسهم فى شركة مصر للألبان، وسند بنك عقارى، و600 جنيه شهادات استثمار، و10 أسهم فى شركة النصر لصناعة الأقلام، وصلت قيمتها الفعلية إلى 18 جنيها و70 قرشا، و10 أسهم فى بنك الاتحاد التجارى، كانت قيمتها 31 جنيها و50 قرشا، و100 سهم فى الشركة القومية للأسمنت و39 جنيها سندات تأمين، بالإضافة لوثائق تأمين لدى صندوق القوات المسلحة بمبلغ 1500 جنيه، ووثيقة أخرى لدى شركة الشرق للتأمين بمبلغ 1000 جنيه، ووثيقة لدى الشركة الأهلية للتأمين بمبلغ 2500 جنيه، إضافة إلى سيارة واحدة (أوستن) هى السيارة نفسها التى كانت ملك عبد الناصر قبل ثورة يوليو، وأخرى كان قد سمح الرئيس السادات لـ"ناصر" باستخدامها بعد وفاته، لكنها ردت لها لرئاسة الجمهورية مع خطاب شكر.

هنا زعيم شعر وتصرف كابن بلد وينتمي لقومية ودين، وبالتالي لم يسرق أو يبذر أموال الدولة على عائلته، وإنما ادخر من راتبه القليل واشترى بضعة أسهم فى شركات وطنية. زعماء آخرون كثر يشعرون بالغربة عن بلدهم، وينتمون للاستعمار، ويعتمدون فى بقائهم على رضا ودعم المستعمر وربما تمويل منه، وتراهم ومن حولهم ينظرون على الدوام لرأي ذلك المستعمر، وهل سيوافق على هذا الإجراء أو سيعارض، ويتنظرون التعليمات. هؤلاء تم تعيينهم من المستعمر بطريقة

أو بأخرى وولاؤهم له تماماً، ويعرفون أنَّهم غرباء، ولا يتمنون لأبناء بلدهم، ولهذا يسرقون الأموال، وينشرون الفساد والفاستدین حولهم.

تاريخُ تسابقِ الخونةِ

للتذكيرِ وليس للحصر، فقد انسلخ حكامُ كثر عن السلوك القويم، وانضمُّوا لعدُوهم ضدَّ إخوتهم وجيرانهم وأبناء شعبهم. هذا الشَّأنُ تَكَرَّرَ في الأندلس مع بدايه الانهيار وطوال أربعة قرون، وحدث أثناء الغزو الصليبيِّ، وتكرَّر حين هاجم المغولُ العالمَ الإسلاميَّ والوطن العربيَّ .. ولا ننسى أن الإنجليز احتلوا فلسطين والقدس بقوَّاتٍ مصريَّةٍ تحت إمرتهم، وتقاتل الأمراءُ في الجزيرة العربيَّة، وتحالف بعضهم مع العثمانيِّين، وبعضهم الآخرُ مع الإنجليز، واستعدُّوا للتنازلِ عن فلسطين لليهود مقابل تثبيت حكمهم، وحكم سلالتهم بدعم أجنبيٍّ. أثناء مقاومة الفلسطينيين للاستعمار البريطاني، وتهويد البلاد طال بهم الملوك العرب بالهدوء والثقة في الصَّدِيقَة بريطانيًا، وحين قرَّرت بريطانيا الانسحاب من فلسطين بعد تمكين اليهود، طلبت من الدُّول العربيَّة عدم دخول فلسطين إلا بعد يوم انسحابها، بينما كانت تسَلِّمُ العصابات الصهيونيَّة القواعد والأسلحة والمدن.

عندما حان موعد السَّماح لمشاركة الجيوش العربية في فلسطين، وجَدَت مصرُ الملكيَّةُ ذاتها عاجزة عسكريا عن الاشتراك، ورفضت الدخول في الحرب، لكن الملك عبد العزيز توجه إلى مصر واقنع الملك فاروق بالاشتراك حتى لا تُترك السَّاحةُ للهاشميين فقط، وهم المنافسون منذ الحكم العثماني لآلِ سعود، وكان من المقرر حسب الاتفاق مع

الإنجليز أن يكون الأمير الهاشمي فيصل هو ملك العرب إذا ساعد على التخلص من الحكم العثماني لصالح الإنجليز الذين غدروا به، ومنحوا شبه الجزيرة إلى عبد العزيز. دخلت الجيوش العربية المؤتمرة بأمر بريطانيا إلى فلسطين فجمعت السلاح الفلسطيني، ثم انسحبت بدون قتال يذكر، وحدث ما حدث.

الهجوم الإسرائيلي على جيرانها وتحديداً مصر عام 1967 تمّ بطلبٍ عربيٍّ رفع إلى الرئيس الأمريكي؛ ليوعز لإسرائيل بالهجوم، وتدمير الجيش المصري، وتحت غطاء الدّعم الأمريكي؛ احتلت إسرائيل هضبة الجولان والضّفة الغربيّة وقطاع غزّة، أي؛ كل فلسطين. وتكرّر الحال في غزو العراق بطلب عربيٍّ، بل تجاوز الأمر لإشتراك جيوش عربيّة مع القوات الأمريكيّة والبريطانيّة الغازية للعراق. وضعٌ مشابهٌ تكرّر لاحقاً ضدّ الجار الإيرانيّ المسلم، بل وصلت التطوّرات متسارعة إلى تعاون أمنيٍّ خليجيٍّ إسرائيليٍّ علنيٍّ ضدّ إيران، وضدّ أيّ قوىٍ أخرى تهّدّد الأمن الإسرائيليّ الخليجيّ. تمّ القفز عن الجامعة العربية ومعاهدات الدّفاع العربيّ المشترك، والاستغناء عن الدّعم الاستعماريّ القديم سواء أكان البريطانيّ، أم حتّى الأمريكيّ، واللّجوء مباشرة لإسرائيل التي تدّعي أنّها مهددة بشكل مباشر من صواريخ إيران، وحلفاء إيران في المنطقة، ومهددة من احتمال تصنيع إيران للقنبلة النوويّة. هكذا قفزت إسرائيل من عدوة العرب والمسلمين لاحتلالها

فلسطين، ورفضها للحلول السِّلْمِيَّةِ العربيَّة، بل والحلول الخليجيَّة للقضيَّة الفلسطينيَّة إلى حليف للدول العربية الغنية الخليجية.

كيف وصل حكام الخليج العربي بهذه السرعة إلى هذه الحالة؟ هناك التخطيط المسبق من الإنجليز، ثم تولي الأمريكان النهج ذاته من الخطط التي تعطي أكلها لهم، ولمن يوجه السياسة الأمريكية مؤسساتياً. في عهد الرئيس (أوباما)، قبل (ترامب)، تم الاتفاق النووي مع إيران بمشاركة الدول الأوروبية الرئيسة، لكن إسرائيل لم تقتنع أن هذا الاتفاق سيعيق إيران عن تطوير قنبلة نووية، علماً بأن الجمهورية الإسلامية أعلنت أنها ستدمر إسرائيل، وبالتالي سهلت التمهيد الإعلامي لعمل اللوبي الصهيوني المضاد. ذلك الاتفاق النووي لم يعجب دول الخليج أيضاً علماً أنها تعتبر ذاتها مهددة من إيران التي أعلنت أنها تصدر الثورة الإسلامية، كما أن إيران والسعودية وتركيا تتنافس على قيادة العالم الإسلامي السني، وهكذا كانت دول الخليج قد دفعت العراق لحرب ثماني سنوات ضد إيران، ولكنها لم تردع الثورة الإسلامية الطامحة لقيادة العالم الإسلامي. وقد شعرت حكومات الخليج بالخذلان من قبل واشنطن في عهد أوباما على أثر ذلك الاتفاق الذي فتح آفاقاً أمام إيران، ومنذ ذلك الحين تعززت العلاقات السرية الخليجية الإسرائيلية للتصدي لإيران بعدة أشكال، منها الاستراتيجي ومنها؛ الدبلوماسي بالسعي، للتأثير على السياسة الأمريكية لحصار إيران وتجويعها.

جاء الرئيس (ترامب) وامثل للرؤية الإسرائيلية فإنسحب من الاتفاق، وفرض مقاطعة صارمة على إيران ودلل إسرائيل بشكل غير مسبوق، لكن (ترامب) أعلن سياسة عدم الاشتباك المسلح مع إيران وطبقها، وسحب القوات الأمريكية من الشرق الأوسط، وانتهج سياسة حلب الدول مالياً مقابل مواقف دبلوماسية وحماية لفظية .. هكذا وجدت حكومات الخليج ذاتها مطالبة بالدفع، وغير متأكدة من الحماية الأمريكية الفعلية، وبالتالي بدت الأمور كلها تدفع إلى التقارب الخليجي الإسرائيلي ضد الخصم المشترك، إيران، التي لم تسع جدياً لطمأنه جيرانها. الذين ضاعوا تحت الطاولة هم الفلسطينيون وقضيتهم، ولم تجد السياسة الرئاسية اليهودية الأمريكية من طريق يمهّد الانتقال الخليجي إلى جانب إسرائيل سوى طرح صفقة القرن؛ لإبعاد القضية الفلسطينية من طريق العهد الإسرائيلي الجديد في المنطقة. هل كل ذلك مخطط مُحكم يدار من قبل الصهيونية منذ زمن، ام أنه استغلال فرص متولدة من تعاسة السياسة العربية والأداء الفلسطيني؟ المهم الآن هي النتائج الآنية والأخرى المتتالية.

قبل الولوج إلى النتائج المحتملة يجب التذكير بالعلاقة المجتمعية مع اليهود في العالم العربي والإسلامي، وهي العلاقة التي بدأت تسوء تدريجياً بعد نكبة فلسطين وحربها، وطرد نسبة كبيرة من سكّانها وما تبع ذلك من سياسات إسرائيلية احتلالية. قبل ذلك عاش اليهود كجزء حيوي في دولة الخلافة العثمانية وقبلها في الدولة العباسية والأموية

وصولاً إلى إخراج اليهود من وسط الجزيرة العربية على يد كل من الرسول والخليفة عمر بن الخطاب لأسباب دينية سياسية. أولئك اليهود لم يطردها من كل الجزيرة العربية، فقط من المدينة ومكة .. بعضهم أعلن الإسلام وبقي، وبعضهم تحركوا إلى أطراف الجزيرة جنوباً وشمالاً وشرقاً، وغيروا أسماء عائلاتهم، وأخفوا حقيقة دينهم من دون أن يغيروه. أصبح وجودهم علانية في الأطراف البعيدة للجزيرة، مثل: العراق والبحرين وإيران واليمن وما حولها، وبالطبع في فلسطين ومصر والشام وشمال أفريقيا وحتى الأندلس .. لم يتم منع دينهم أو حرمانهم من أي حقوق توفرت لغيرهم من السكان، بل تقلدوا مناصب اجتماعية وعلمية واقتصادية وسياسية؛ نظراً لاجتهادهم. العلاقات اليهودية العربية ساءت بفعل مباشر من الصهيونية على أثر حرب فلسطين، واحتلالها واستجلاب اليهود العرب بخدع استخباراتية من دولهم العربية لفلسطين.

حتى بعد النكبة مباشرة لم تكن العلاقات قد توترت بشكل مطلق على صعيد شعبي أو رسمي. قبيل قرار التقسيم عرض الملك عبد الله الأول على قادة الصهيونية في فلسطين التوصل إلى السلام عبر إعلان دولة مشتركة تحت حكم العرش الهاشمي، وينال فيها اليهود كل حقوقهم ورغباتهم وشروطهم كمواطنين .. لكن خطط الصهيونية كان استعمارياً مستقبلياً، ولذلك رفضوا عرض الملك عبد الله الأول. بعد النكبة اجتمعت وفود كل الدول العربية المحيطة بفلسطين، ومن ضمنها

العراق واتفقوا على هدنة وعدم اعتداء. بعد ثورة يوليو 1952 فتحت مصر خطوط تواصل مع قادة إسرائيل، وكاد الطرفان ان يوصلوا للسلام، لكن الساسة الصهيونية انقلبوا على بعضهم، شاريت وافق وبن جوريون رفض، وتسبب عبر المخابرات في تفجيرات يهودية في القاهرة لتخريب الفرصة. وكان الرئيس عبد الناصر قد عرض السلام حسب تنفيذ قرار التقسيم، وقد طالب إسرائيل بالتوسط لدى واشنطن لمنع القواعد الإنجليزية في قناة السويس من القضاء على الثورة، وتحسنت العلاقات المصرية الأمريكية لبضع سنوات لكن إسرائيل أنحازت للبريطانيين والفرنسيين وهاجمت مصر عام 1956، وهو العدوان الذي انتهى بأوامر أمريكية .. هذا للتذكير بواقع الحال العربي آنذاك وبمنظرة القادة العرب إلى فوائد إسرائيل في توفير الحماية الأمريكية، وهو ما يتكرر الآن والسبب الرئيس لقافلة التطبيع الرسمي مع إسرائيل قبل التوصل لحل للقضية الفلسطينية، ومن دون تحقيق أي إنجازات للفلسطينيين كثمن لهذا التطبيع .. ونلاحظ أنه كلما كان الحكم محشوراً كلما أسرع للتطبيع مقابل أن ترضى، أمريكا وتطيل عمر هذا الحكم لفترة إضافية.

كانت سوريا برئاسة حسني الزعيم آخر من وقع اتفاق الهدنة مع إسرائيل في 20 يوليو 1949، وكان الرئيس قد جاء في 30 مارس بانقلاب بعد هزيمة 1948 ووقع الهدنة بطلب أمريكي كما جاء في مذكرات السفير الأمريكي في دمشق (ستيفن ميد)، الذي كتب في

مذكراته عن علاقة حسني الزعيم بإسرائيل: حين وافق الزعيم على تنفيذ توصية للخارجية الأمريكية بأن توقع سوريا اتفاقية الهدنة مع إسرائيل، قال الزعيم: "أني مُقدّمٌ على الأرجح، على أنتحار سياسي، لا بل وأغامر مغامرة مُتعمّدة، وأعرّضُ نفسي للقتل؛ أملاً بالحصول على مساعدة أمريكية تتيح لبلدي الوقوف على قدميه، ولذلك يجب على بلادكم ألا تسمح بسقوطي". يقول ميد بأن ما فعلته الولايات المتحدة كان على عكس ذلك تماماً. بكل الأحوال، فإن الزعيم كان يرمي من الهدنة لأن يسحب الجيش من الجبهة لتقوية وضعه في داخل البلاد. وقد اعتبر توقيع اتفاق الهدنة مخيباً لآمال السوريين، وتراجعت في إثره شعبية حسني الزعيم، بشكل حاد، كما أنه أعلن تحالف مع المملكتين السعودية والمصرية. وقد عرض الرئيس الزعيم على (بن جوريون) السلام وتوطين 300 ألف فلسطيني في سوريا مقابل المياه من بحيرة طبرية، لكن (بن جوريون) رفض؛ لأن السياسة الصهيونية لم تحدد حدودها الجغرافية، وقرار التقسيم لم يكن يكفيها، ولذلك اعتبروا أن التواجد العسكري الأردني في الضفة بمثابة احتلال وأرادوا الهجوم، وهنا حذرت بريطانيا الملك عبد الله، فعقد مؤتمر في عمان وأريحا، وأعلن ضم الضفة للأردن، وتكوين المملكة الأردنية الهاشمية. أما الرئيس السوري، فقد انقلبوا عليه بعد ثلاثة أشهر من انقلابه، واعتُقل وحُكِم وأُعدمَ رمياً بالرصاص في ساعة واحدة.

بدأت المتاجرة السياسية بقضية فلسطين قبل النكبة واستمرت بعدها؛ إذ كانت عنواناً لكل انقلاب عسكري في الدول العربية، وخصوصاً في سوريا والعراق، وتحولت إلى قضية قومية عبر السياسة المصرية منذ الخمسينات، وفي عام 1964 أخرج العرب مسرحية تكوين منظمة التحرير الفلسطينية؛ ليتخلوا تدريجياً عن الأعباء النفسية. في عام 1965 عقدت قمة عربية في الرباط، وتم تسجيل كل المشاورات والمداوولات والمعلومات، وسلمت إلى إسرائيل التي عرفت آنذاك عدم وجود نية أو استعداد عربي للحرب ضدها، وكان التسجيل قد تم الاتفاق عليه سلفاً مع إسرائيل مقابل خدمات للمغرب في قضية التخلص من المعارض بن بركة.

عندما استنجدت إحدى الثورات العسكرية في اليمن بالرئيس المصري، وأرسل قوات إلى هناك، واستعرت الحرب الإعلامية مع السعودية، أو عزت الأخيرة لإسرائيل عبر تقديم طلب رسمي إلى الرئيس الأمريكي، ليحث إسرائيل على الهجوم على مصر وضربها بحيث لا ترفع رأسها لسنوات، مع إشارة الطلب أن مصر هي العدو المشترك .. فكانت حرب حزيران 1967 بينما القوات المصرية تقاوتل في اليمن، وضاعت بقية فلسطين.

طوال الصراع مع الصهيونية أثناء الانتداب البريطاني في فلسطين كانت النتائج تعيق التقدم الصهيوني، وحين دخلت الجيوش العربية بتعليمات بريطانية خسرت الحرب في أسابيع، أما في حرب ال 1967

فقد اُحتلت بقية فلسطين وكل سيناء والجولان، وتدمرت القوات العربية في ستة أيام. أصبحت إسرائيل موجودة بقوة، وما أعاق الانهيار العربي الرسمي آنذاك هو تصدي الفلسطينيين والثوار العرب للاحتلال عبر الحرب الفدائية. بقية القصة معروفة حتى الوصول إلى اتفاقيات (أوسلو) بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، والإقرار لها بكل شعاراتها وغالبية أهدافها التي لم يكونوا أنفسهم يصدقونها. لكن الصهيونية تبتلع وتهضم وتطالب بالمزيد وترفض ما لا يعجبها من الوجبات. جاءت اتفاقيات (أوسلو) لتنهي ثورة الانتفاضة الشعبية غير المسلحة التي استمرت ست سنوات حتى أنهاها هذا الاتفاق ودخلت منظمة التحرير؛ لتنفيذ ما عجزت عنه إسرائيل .. قبل (أوسلو) كان لا بد من التخلص من بقايا روح المقاومة المسلحة، فتم اغتيال أبي جهاد في تونس، وبعلم وتنسيق مع جهات تونسية، وتبع ذلك قتل أبي إياد في تونس بواسطة عميل فلسطيني من حراس أبي الهول الذي قُتل في العملية أيضاً، وكانت إسرائيل قد اغتالت كل قادة فتح والمنظمة الذين كانوا تقليدياً ضد السلام الانهزامي ومشاريعه المتتالية .. ثم جاء اتفاق (أوسلو) وحمل معه شروط قمع الانتفاضة، وتوظيف مقاتلي المنظمة، وتكليف السلطة باعتقال أي مقاوم أو معارض في كل الأوقات في الأرض المحتلة، وتطبيع الشعب الفلسطيني عبر الراتب والمأكل والكهرباء وتغيير نظم التعليم الوطنية، وكل ذلك وأكثر منه على الرغم من تنصل إسرائيل من غالبية بنود اتفاق (أوسلو) .. بشكل أو بآخر يمكن رؤية رفض السلطة الفلسطينية للتطبيع الرسمي من قبل الإمارات والبحرين

والمغرب والسودان كمنافسة بين العرب من الذي سيخدم إسرائيل، ويتوقع رضاها أكثر من أخيه العربي، فالمنظمة والسلطة والفصائل الفلسطينية لم تعد كما كانت. هذه السلطة والفصائل الأخرى، وحماس تحديداً عطلوا فرص الانتخابات طوال خمسة عشر عاماً، ليستمر حكمهم على الشعب الذي لم يعد يطيعهم كما يعرفون، وعادوا للتفكير في تجديد الانتخابات بعد تسلم الرئيس الأمريكي الجديد (بايدن) القيادة، وإنذارهم بإجراء فوري للانتخابات حتى لا يتم معاملة حماس كمنظمة إرهابية، واستبدال قيادة السلطة بغيرها .. ولتخوف حماس والسلطة من النتائج، فلن تتم الانتخابات على الأرجح، او سيتم تفتيتها، وتزييف نتائجها.

أبتلاء المسلمين

لماذا هانت المجتمعات والديانة الإسلامية مقارنة بالمجتمعات الأخرى المجاورة لها؟ كيف أصبحت غالبية الدول الإسلامية في قعر قوائم التخلف العلمي والاجتماعي، وفي قمة قوائم الفساد والفقر والمجاعات والظلم والديكتاتورية؟ ما هو مبرر وجود دول إسلامية غنية بالمال من استخراج النفط، وجيرانها من المجتمعات الإسلامية تعاني من الجوع والأمراض الفتاكة، بل أن بعض الأغنياء يهاجمون بالأسلحة الثمينة ويقتلون الجيران المسلمين الفقراء! هل العلة في الدين مثلاً كون مجتمعات أخرى غير إسلامية كفت عن هذه السياسات والممارسات ضد بعضها منذ زمن ولجأت للتضامن والتكافل والوحدة؟

عندما انطلق العرب من وسط شبه الجزيرة، وغزوا العالم ووصلوا للأندلس وجنوب فرنسا الأوروبية، كانوا مندفعين بقوة السلاح وممارسة العنف والاحتلال، وفرض الإسلام على المحتلين كسبيل للنجاة، وتوسّع تقبل الإسلام بين سكان هذه المناطق تجنباً لدفع الجزية، وطلباً للأمان، ورغبة في المشاركة في الغزو التالي وتحقيق النصيب من الأربعة أخماس المغنم المخصصة للمقاتلين. ثم استقرت الغزوات وتجمعت الأموال، وتحقق الأمان وأقيمت الحضارة معتمدة على صيت القوة والتفوق الحربي. عندما تقدم الخصوم حربياً وبدأت الأوضاع تنقلب تدريجياً عادت الهمجية الحربية تغلب حتى بدون تملكها لحضارة، وإنما سحروا دينهم للانتقام الصرف بدون رحمة، فتقدم

النصارى وتراجع المسلمون ودينهم، ولم يفيقوا من التراجع في حين استبدل الآخرون تقدمهم وثبتوه بأسباب علمية واقتصادية وألغوا لاحقاً الدين الذي أعاق تقدم مجتمعاتهم حضارياً بعد تقدمها الحربي. إذاً هناك معادلة: استبعاد الدين واعتماد العلم، وعدم تجاهل القوة الحربية؛ وذلك لتحقيق التفوق الحضاري. هذه المعادلة لم تُستوعب من المجتمعات الإسلامية التي تفكر في الماضي، وتعتبر تفوقها الحربي السابق مرتبط بالدين، ويجب العوده إليه باستعادة أو خلق ظروف ذلك الماضي .. لذلك يطلقون الذقون، ويلبسون جلابيب الثلاثة أرباع والصنادل، ويؤلفون الفتاوى، ويكفرون الناس والمجتمعات.

أن فكرة إعادة التاريخ وتكرار التجربة الإسلامية في قرونها الأولى غير منطقية، أو حتى إنسانية سواء أكان آنذاك أم الآن، فمن يطالب ويتمنى تكرار ذلك الحال لا يعتمد سوى مبدأ القوة والسطو، وهو عملياً ما تفعله إسرائيل الآن في فلسطين .. أو فلنقل، للتقريب، ما يفعله المسيرون للدين اليهودي. لقد احتلوا فلسطين بالتدريج وبالقوة وهامهم يستولون على الأرض، ويطردون أصحابها، ويقتلون من يعارضهم، ويقبضون الضرائب من المطيعين كجزية؛ لعدم طردهم ولأطعامهم وتأمين حياتهم، ولهم السيطرة والقضاء والسلطة والسيادة .. هذا ما يفعله اليهود، أو يرضون عن فعل دولتهم له، وهو تماماً ما فعله العرب المسلمون حين انطلقوا من شبه الجزيرة، ووصلوا الصين شرقاً والأندلس غرباً. لو تأملنا سنجد أن اليهود معتمدين على تفاسير

دينهم يفعلون الآن ما فعله المسلمون حين شرعوا دينهم؛ ليرضي تطلعاتهم.

هل يمكن تسخير الدين في زمننا الحاضر كما سُخر قبل عشرات القرون؟ نعم؛ هذا بالضبط ما يفعله اليهود، ويطالب به المسلمون، بينما لجأ الغرب إلى العلمانية التي لا تمنع الأديان، وإنما تفصلها عن الدولة ومفاصلها وأدواتها. ننظر إلى المملكة العربية السعودية حيث انطلق العرب الأوائل من مكة والمدينة قبل أربعة عشر قرناً من الزمن .. ننظر إلى المملكة قبل وبعد تولي ولي العهد محمد بن الملك سلمان. قبل تولي محمد كان الشعب منغمساً مع حكومته في نصرة الإسلام الوهابي عسكرياً بالسلاح والمال، وتدريب الرجال وفتح المدارس الدينية الوهابية، ودعم لفلفة الإناث واضطهادهنّ، ونشر هذه المبادئ من خلال المسلمين وجمعياتهم عبر العالم، وكانت المملكة تسعى لتعميم الوهابية وقيادة الإسلام السني .. كما كان العداء الديني علنياً لليهود وإسرائيل، وكانت الصلاة والصيام في المملكة مفروضة بالكُرباج عبر هيئة المُطوِّعين، وهم الشرطة الدينية التي تتدخل حتى في لون أحذية الناس ونوعها. بالطبع كان الفساد المالي منتشرأ على كل المستويات، ولكن الاقتصاد مستور بفضل النفط .. وكان الشعب راضياً وغير معترض ومشاركاً ومستمتعاً ومرتكزاً في كل ذلك على الدين وتفسيره، وفتاوى كبار الشيوخ والائمة وطاعة أولي الأمر.

بعد تولي محمد انقلب الحال رأساً على عقب في كل المجالات، وألغيت هيئات الرقابة الدينية، وتشكلت هيئات للترويج والسياحة والغناء والمسرح، وحرية اللباس للإناث، واختلاطنهن وقيادتهن للسيارات وسفرهن للخارج من دون مرافقة ذكر محرّم لهن، وغير ذلك مما يعتبر انقلاباً حقيقياً خاطفاً في القيم، وبالطبع خف العداء لليهود وإسرائيل، وتناقص الدعم العلني للإرهاب الإسلامي السياسي، بل أنقلبوا ضد صنيعتهم، الإخوان المسلمين .. المهم في كل هذا وما يعنيننا أن النقيض تبدل إلى النقيض باسم الإسلام في الحالتين، والجمهور نائم في العسل ويصلي ويصوم ويطيع أولي الأمر الآن كما كان آنذاك. ولو حدث غداً انقلاب عسكري وأعلن إلغاء الملكية وإعلان جمهورية ديمقراطية تنتخب حكومتها، وقيل للناس إنها جمهورية تحترم بعض الشريعة والشورى، وستكون جمهورية علمانية إسلامية مثل تركيا، فبالأكيد سيواصل الشعب رضاه ونومه في العسل، وسيجد النظام الجديد من يبرر له إسلامياً، ويطالب بإطاعة أولي الأمر الكرام كما أطاع من سبقهم أولي امرهم من بعد موت الرسول الذي كان يطيع الله وينفذ أوامره.

لماذا أطاع بعض حُكام الخليج في السر والعلن أوامر الرئيس الأمريكي المعزول (ترامب) بالتقرب المجاني لإسرائيل، والتراجع عن الحل العربي والإسلامي والعالمي المتفق عليه للقضية الفلسطينية، بينما رفضت حكومات عربية فقيرة أو حتى محتلة من قبل الأمريكان مثل العراق، الإقدام على طاعة البيت الأبيض علناً؟ الدول الغنية ضمن

حكامها رضا شعوبهم بالمال والتدليس باسم الإسلام، بينما في الدول الأخرى، الجمهوريات، هناك خوف وبالتالي مراعاة لرأي الشارع المتشبع برفض الاحتلال الإسرائيلي والمتضامن مع الشعب الفلسطيني، هذا بالإضافة للرأي الديني الذي لا يمكن قلبه والانقلاب عليه بسهولة كما في دول نفطية يحكمها فرد أو أسرة ولا تحتاج لتقبل شارع أو تأييد برلمان أو نقابات أو أحزاب تعتمد الدين ضمن مبادئها. حيث توجد قوى تعبر عن رأي الشارع لا يمكن بسهولة الاكتفاء برأي الحاكم والدين الرسمي والتدليس لتبرير الانقلاب. وهناك العامل الاقتصادي المعاشي الذي يميز مواقف الشعوب تجاه الخيانة القومية .. حين تكون غالبية الشعب مرتاحة معاشياً من دون جهود تذكر، فإنها تخاف من قطع مصدر تمويلها إذا خالفت ولي الأمر المتحكم شخصياً في التوزيع. بينما في الدول الأفقر فالموقف الشعبي يتخذ من التخاذل والخيانة الحكومية مبرراً للثورة، ويصبح السبب السياسي تراكمياً إلى جانب الأسباب الأخرى، وفي مقدمتها الشح المالي.

"القرآن حال أوجه"، وأي دين قابل للتأويلات المتضادة. اليهود والإسلام مثلاً قيل بصددهم على مدار قرون، إن اليهود عارضوا الإسلام، وحاولوا قتل الرسول بالسم وتآمروا عليه، ومن ثم تم طردهم رسمياً من وسط الجزيرة العربية، وهناك استشهادات عديدة من الآيات القرآنية تعمق العداء مع اليهود. بعد الذهاب للتطبيع في الدول الإسلامية خف الدعاء ضدهم في المساجد، وانتشرت استشهادات بعلاقة الرسول معهم في مكة، ورهن درعه عندهم، والزواج منهم في

المدينة، وتكرار للآيات التي تحترم دينهم وتحبذ السلام، والتذكير بتعايشهم في الدولة الإسلامية، وازدهارهم في الأندلس الإسلامية .. طبعاً هذا النداء للسلام يتجاهل انقلاب الزمان الآن، ويفترض عدم وجود تفوق يهودي أو خلاف أو صراع معهم، أي؛ من يطرح الدين كخلفية للسلام إنما يقفز عن هدف الصهيونية؛ لإقامة إسرائيل الكبرى، وعن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني القائم منذ عقود، وعن مصير القدس والأرض الإسلامية، وغير ذلك من قيم التضامن والتعاقد المفترضة بين المسلمين. دعاة السلام تحت المظلة الدينية يخطئون في تفسير الآيات، ولذلك قيل قديماً إن القرآن حمال أوجه. في بدايه الرسالة كانت الآيات تنادي للسلام، واحترام الديانات الأخرى، وإكرام أهل الكتاب، لكن بعد فشل محاولات التوفيق ورفضهم الاعتراف بالرسول وبالإسلام نزلت في المدينة تباعاً آيات تنسخ ما سبقها، وتطالب بالشدّة والتشدد مع غير المسلمين، والذين يعودون الآن للآيات المنسوخة، وينسون النسخة، إنما يختارون ويجزئون حسب مزاجهم، ويخالفون مراحل تطور الإسلام في عهد الرسول.

المملكة العربية السعودية هي صاحبة مشروع السلام العربي الذي خفف الموقف العربي الإسلامي تجاه اليهود، وكسر حدة الرفض، ووافق مبدئياً على الاعتراف العربي الإسلامي بإسرائيل إذا انسحبت لحدود 1967، وقبلت بإقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس الشرقية. لكن إسرائيل ليست بهذا الوارد الآن أو سابقاً، والسعودية لا يمكنها القفز إلى السلام بالرغم من الرفض الإسرائيلي العلني والممارسات

المضادة على الأرض. هكذا مهدت السعودية طوال السنين؛ لتبليغ العرب السلام من دون شروط، وما كان محمد بن زايد، وملك البحرين يُقدِّمان على الاعتراف بإسرائيل من دون موافقة محمد بن سلمان الذي مهد لخطوات تقاربية إلى درجة نشر دراسة من مدير أكبر جامعة سعودية تقول بظلم الرسول محمد لليهود، وضرورة إعادتهم لشبه الجزيرة وتعويضهم، وأصبح الإعلام الرسمي السعودي يهنئ اليهود باللغة العبرانية بأعيادهم الدينية، والطائرات الإسرائيلية تحلق في أجواء المملكة. لكن النظام السعودي لن يقدم على الخطوة العلنية قبل ترتيب حل ما للقضية الفلسطينية كون النظام يسعى لمنافسة تركيا على قيادة العالم الإسلامي السني، ولا يريد انحصار التأثير عبر الخيانة العلنية لفلسطين والتصالح المجاني مع اليهود.

كما كان في مسلسل ذوبان الأنديس واندحار الإسلام منها والمسلمين عنها، بدأت العلاقات بين الأمراء المتنافسين، وبين الأعداء النصارى سرىاً، ثم تجلت بالتدريج حين تطلب الأمر تنفيذ الاتفاقيات بمساعدة الطرف للطرف الآخر عسكرياً، وهي تحالفات كانت موجهة غالباً ضد إمارة إسلامية أخرى. على ذات النهج فلقد كثرت المحاولات السرية في العلاقات العربية الإسرائيلية، بدايه من الهدنة بعد هزيمة النكبة مروراً بمساعي زعماء عرب للسلام مقابل مياه أو وساطة لدى أمريكا، وكبديل لمرور إسرائيل في مضائق بحرية، أو في قناة السويس بدون رفع علم، ومحاوله إقامة حلف بغداد العسكري بمشاركة إسرائيلية، وغير ذلك من التآمر العربي الإسرائيلي ضد طرف عربي

آخر حيناً، وضد القضية الفلسطينية دوماً. في السر أيضاً وجدت علاقات اقتصادية مع إسرائيل تمكن بضائعها من دخول دول عربية في المشرق والمغرب، ونسجت علاقات أمنية استخباراتية مع غالبية الدول العربية، وتآمر مع دول عربية ومشاركتها في ذبح الفلسطينيين، وعلى حصارهم وتجويعهم أينما كانوا، واغتيال قادتهم مراراً وتكراراً بدعم وتنسيق مشتركين.

لقد تجاوز الأمر في عهد الرئيس المخلوع (ترامب) ما كانت عليه الأمور في بدايه التساقط الأندلسي. الرئيس الأمريكي وإرادة يهودية يوجه الضغط المباشر للدول العربية الخليجية التي تهتم إسرائيل بإقامة علاقات معها لأسباب اقتصادية وأمنية ولتأثير أموالها في مجريات الاقتصاد العربي والعالمي، وبالتالي شق بقية التضامن العربي بين الأغنياء ومتوسطي الحال والفقراء. الضغط الأساس كان على محمد بن سلمان الذي لم يتمكن من إقناع والده، فتوجه إلى ملك البحرين ومحمد بن زايد في الإمارات العربية، ودفعهما في هذا الطريق انتظاراً لموت والده، والإقدام على الخطوة المشابهة مع إسرائيل. الكويت رفضت الانضمام كونها بحاجة لموافقات برلمانية وحزبية غير مضمونة بينما في البحرين والإمارات والسعودية فالقرار فردي. حتى يتم التحايل على الكويت منح (ترامب) الأمير الذي كان يعالج في أمريكا، أعلى الأوسمة العسكرية، وطلب من نجله الحضور للبيت الأبيض لتسلمها، ثم لفق أن الحديث دار عن التطبيع، والكويت هي الدولة التالية، وأضاف أن هناك سبع دولٍ تنتظر دورها، وأنه تحدث في يوم لقاء ابن

الأمير مع زعيمين مستعجلين على الانضمام!! كل ذلك ضمن خطة حرب نفسية لدفع السلطة الفلسطينية للاستسلام قبل فوات القطار، ولخلق تسابق بين دول الخليج الانفتاح على إسرائيل قبيل تغيير الإدارة الأميركية. أما قطر فقد أكد أميرها في خطاب أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في اليوم ذاته على التمسك بالحل العربي القائم على حل الدولتين ضمن حدود 1967 والقدس عاصمة لفلسطين.

من الضروري هنا الإشارة إلى أن اتفاق الإمارات الذي وقع في البيت الأبيض لم يعد شرعياً بعد أسبوع من توقيعه، كون دستور الإمارات السبع المتحدة ينص على الزام توقيع المجلس الأعلى على مثل هذه الاتفاقيات في بحر أسبوع أو تصبح لاغية. والمجلس يضم أمراء الإمارات المتصالحة التي اتحدت عام 1971 وهو المجلس الحاكم لكل الإمارات بينما كل إمارة لها أميرها وحاكمها ونظامها الوراثي. الأمراء لم يستشاروا قبل التوقيع، ولم يُطلب موافقتهم بعده، وبالتالي؛ فالتوقيع لا يشمل الإمارات وإنما كل إمارة وافق أميرها، ناهيك عن الشعب طبعاً الذي لا دور له سوى الاستهلاك .. علماً بأن تعداد السكان الأصليين في كل الإمارات مليونين وسبعمئة ألف نسمة. الرئيس الأول للإمارات هو المؤسس زايد بن سلطان آل نهيان، وكان أيضاً أمير أبو ظبي، تبعه بعد وفاته في المنصبين عام 2004 الشيخ خليفة بن زايد، وهو مريض منذ زمن، ويقوم بمهامه نائبه محمد بن راشد آل مكتوم، وهو حاكم دبي، لكن محمد بن زايد هو ولي العهد لأبوظبي والإمارات، والحاكم الفعلي للإمارة ويتصرف كرئيس لكل الإمارات، وهو الذي

هندس ووافق على صفقة القرن، وتنفيذ الجزء المخصص للعرب فيها، أي التطبيع العربي مع إسرائيل حتى بدون موافقة فلسطين على الصفقة.

لدينا إذا انقسام عربي حول هذه الصفقة (التي ذهبت مع خلع الرئيس (ترامب) وعصابته)، وخطوات التطبيع وانقسام بين دول الخليج، وانقسام بين الإمارات السبع المنضمة تحت لواء دولة الإمارات؛ إذ لم يوافق سوى محمد بن زايد، وربما يكون أمير دبي موافق، لكن بقية الإمارات لم يصدر عنها موافقة، بل ظهرت معارضة رسمية من بعض الحكام كما أعرب معظم أبناء الحكام الخمسة وبناتها معارضتهم لما يجري. وقد حاول محمد بن زايد إخراج معاهدة السلام كنصر وتأييد للفلسطينيين بالقول إن إسرائيل وافقت في المقابل على تعطيل مخططاتها لضم ثلث الضفة الغربية، لكن ننتياهو نفى الأمر فوراً بل أن (ترامب) لم يؤيد مقولة إلغاء الضم، بل قال إن الأمر ليس مطروحاً الآن على الطاولة. الملك سلمان لم يكن في الصورة، وعندما سمع بالاتفاق غضب وأوعز لوزير خارجيته التأكيد أن السلام لن يتحقق بدون حل الدولتين، والقدس عاصمة لفلسطين، والإشارة إلى أن الإمارات دولة ذات سيادة وحرّة فيما تفعل.

الذباب الإلكترونيّ المُسَخَّر من ابن سلمان وابن زايد وبعد انكشاف تبعيتهم لليهود ورفض ننتياهو لمقولة وقف الضمّ، أنقلوا لإشاعات أن فلسطين طُبِّعت، ومثلها مصر والأردن، وبالتالي من حق

الإمارات والبحرين البحث عن مصالحهما .. هنا يتم القفز عن حقائق مادية، مثل؛ احتلال إسرائيل لفلسطين ودخول الأردن ومصر حروباً ضارية عبر الحدود، كما أن ما فعله الفلسطينيون مرتبط بالاتفاق العربي للحل بينما ما فعلته الإمارات والبحرين والسودان والمغرب مخالف صراحة لذلك الاتفاق العربي .. والأهم أن السلام مع مصر والأردن رسمي، ولا يتجاوز تبادل السفارات، بينما هناك مقاطعة شعبية ومؤسساتية شاملة، وهذا عكس ما يبدو من أندلاق إماراتي بدعم مباشر من محمد بن زايد، اتفاقيات بنكية ومالية واستثمارات مشتركة، ومساهمة في ميناء حيفا، وتكالب النوادي على شراء لاعب كرة قدم إسرائيلي، ورفع الإعلام وشرعة طعام الكوشر للفنادق، وعشرات آلاف السياح في الأسابيع الأولى .. وقائمة أفعال للتغطية على عدم شرعية هذا الاتفاق أصلاً، إذ سيخلق مشاكل داخل الإمارات ومع جيرانها وخصوصاً إيران التي لن تتقبل توافد الأجهزة الإسرائيلية على الشواطئ المقابلة لها. هكذا ستكون الإمارات والبحرين قد سلكتا طريق الاندثار الأندلسي ومصيرهما إن عاجلاً أم آجلاً الاستسلام لإسرائيل أو لإيران كون السياسة الأمريكية لا يعول عليها حتى في أفضل الظروف، وهي سياسة بدأت في عهد الإدارة الجديدة، (بايدن)، تترى في الاستجابة لإسرائيل .

الرئيس (بايدن) واستجابة لمؤسسات التشريع ورغبة حزبه الديموقراطي سيقاطع وليّ العهد محمد بن سلمان، كما أن الرئيس الذي لا تعترف إدارته بضم إسرائيل للجولان، سيعيد العمل بالاتفاق النووي

مع إيران، والذي يعارضه النظامان السعودي والإسرائيلي، ولهذا استشاطت إسرائيل غضباً، وأعلنت إصرارها على مواصلة ضرب القوى الإيرانية في سورية وفي العراق، وأيضاً في اليمن، وهذا موقف إسرائيلي جديد للتقرب من السياسة الإماراتية السعودية، وتعويض الانسحاب الأمريكي العسكري الداعم للسعودية في عهد (ترامب) ..
و حين تتدخل إسرائيل بدون تغطية أمريكية ضد إيران في كل الشرق الأوسط، فمن سيضمن بقاء الأمور على حالها، سواء أكان على الجبهة اللبنانية أم في الجولان أم بالطبع، وقبل كل شيء في الخليج؟

بين القوة والتخلف

يمكن للعنف المتخلف أن يهزم المتحضر الأضعف منه، ويمكن للقوة المتطورة أن تهزم قوة متخلفة أقوى منها. الشق الأول ينطبق على ما جرى في الأندلس خلال قرون، والشق الثاني يوجز ما جرى في فلسطين ومحيطها العربي خلال قرن واحد، ولا زال يحدث بتسارع وتوسع للآن.

كان اليهود يعيشون مع العرب، قبل الإسلام وفي عهده الأول، في المستوى ذاته من التخلف، كل حسب ديانته، علماً أن الديانتين اليهودية والإسلام مشتقات عن بعضهما، لكن اليهود تميزوا بالأنانية تبعاً لمعتقداتهم، وتحديداً قناعتهم باختيار الرب لهم، وأن بقية الأمم خلقت لخدمتهم إن عاجلاً أم آجلاً. ونظراً لمطاردتهم من الآخرين على مدار التاريخ اليهودي لجؤوا إلى تخزين المال، وتسخير العقل؛ لضمان بقائهم وتقدمهم. عندما طرد المسلمون من الأندلس ذهبوا إلى بلاد إسلامية مجاورة وخصوصاً المغرب العربي، وشمال أفريقيا، ولم ينجزوا هناك أي نقلة حضارية مما ساد في الأندلس كما هو ثابت عبر القرون! نقلوا بعض فنون العمارة، والكتب المؤلفة والمطبوعة في الأندلس، لكنهم لم يخلقوا ثقافة جديدة، ولم يحتفظوا أو يطبقوا ما جلبوا معهم، فقد كانوا لاجئين بعد مطاردة وعنف صليبي، وهمُّهم البقاء على الحياة في ظروف دول وحكومات سياسية مختلفة عن الأندلس.

يهود الأندلس خرجوا بأموالهم مسبقاً، بعضهم إلى الإسكندرية ومصر، وغيرهم إلى دول أوروبية شرقية وغربية وإلى تركيا، وعاشوا في جيتوات غير محبوبة شعبياً، ولكنها مقبولة رسمياً نظراً لحاجة البلدان لأموالهم وأفكارهم وخبراتهم. استغلُّوا الحروبَ الأهلية الأوروبية، ومولوا هذا ضد ذاك، تحقيقاً لفوائد اقتصادية ووعود سياسية، وهذا ما ظهر في الحرب الفرنسية الإنجليزية وحملات نابليون إلى الشرق، ثم الانضمام للإنجليز، والفوز بوعد (بلفور) بعد فشل نابليون في تحقيق وعدٍ مشابه لهم. المهم هنا أن اليهود، ومنذ قرنين من الزمان على الأقل يسرون ضمن خطة واضحة يتم تطوير عناصرها حسب الحاجة .. هدفها وطن لليهود بحدود توراثية تُصنَّع حسب عوامل القوة الذاتية، بالإضافة؛ لإضعاف السكان وتفريقهم في الجغرافيا المنشودة والإيقاع بهم. وكلما صنع الطرف المقابل خُطَّةً للتصدي يتم إفشالها بكل الوسائل.

مع نهاية العهد العثماني، وبدايه العهد البريطاني الفرنسي في فلسطين وما حولها، كان اليهود جاهزين منذ زمن بالمال، وبالسَّيطرة على مفاصل الإمبراطوريات السائدة والأخرى الناشئة، كما كانوا يجهزون؛ لتهجير اليهود إلى فلسطين كمنطلق لرؤيتهم .. وكلما وصل يهودي يُودع في مستوطنات زراعية عسكرية ليتدرب على الأمرين. بعد كل من الحربين العالميتين أصبحوا يرسلون لفلسطين شباناً وشاباتٍ لهم خبرة في الحروب والأسلحة، وشاركوا على الجبهات الأوروبية التي استعملت فيها أحدث الأسلحة آنذاك، بما فيها الحرب النفسية. لم

يركزوا مثلاً على إرسال العجائز كما يثبت من صور البواخر التي كانت توصلهم لموانئ فلسطين. وبالطبع أقاموا في أوروبا شبكات لشراء الأسلحة وإرسالها إلى فلسطين، كل ذلك تحت عين الانتداب وبمساعده تبعاً لامساكهم بمفاصل السياسة في لندن.

الحال في فلسطين، وما حولها كان مختلفاً تماماً عن الوضع الأوروبي. كانت فلسطين منقسمة بين ريف ومدن متفاوتة من حيث الوضع الاجتماعي والسياسي، في المدن كهرباء وصناعة ومدارس ومسارح ورواد لها، بينما الريف وحتى مطلع الأربعينات لم يكن قد سمع الراديو، وكان سكان بعض القرى يظنون للوهلة الأولى أن سائق الباص الذي يحملهم إلى المدن ومنها هو جزء من الماكنة وليس بشراً، وكان التمايز في الريف بغالبيتته بين ركوب الحمار أو الحصان، بينما في يافا وحيفا معارض لأحدث السيارات الأمريكية الصنع. اجتماعياً كانت بعض العائلات، والأغنياء قد اشتروا الأراضي منذ أيام العهد التركي؛ إذ كان على صاحب الأرض دفع ضرائب، ودخول للجندية، ومشاركة في الحرب مما أبعد الفلاحين عن تسجيل أراضيهم، ولم يستوعبوا سرعة التغيرات مع الانتداب البريطاني، وبقوا خائفين من تسجيل أراضيهم رسمياً في الدوائر الحكومية الاستعمارية. أما العمل السياسي فكان محصوراً في شبه أحزاب عائلية لم ترتق إلى مستوى التنظيم الصهيوني من قريب أو بعيد.

القصد هنا ليس تحليل الواقع الاجتماعي السياسي الفلسطيني، ولكن الانتباه إلى الفارق بين الفلسطيني في بلاده وإقليمه، وبين الصهيوني القادم من أوروبا ضمن مخطط متكامل الأبعاد وقيادة ديناميكية مجربة ومدعمة بالمال والسلاح والتعاون مع القوى الاستعمارية المسيطرة على الأرض، والأخرى عبر العالم. ذلك الحال والفارق لا زال قائماً؛ لأن الصهيونية من خلال إسرائيل سعت بمجد ونظام؛ للحفاظ على الفارق وتوسيعه عبر تشتيت الشمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي الفلسطيني، والهيمنة على المحيط العربي؛ لتحييده عن فلسطين وشعبها، ثم كسبه إلى جانب إسرائيل. على سبيل المثال، بينما لم يُستعمل أي سلاح طيران عربي في حرب النكبة، وبالطبع لم يكن الفلسطيني يملك أي سلاح، بل جمعت الجيوش العربية الأسلحة من الفلسطينيين، وامتنعت الجامعة العربية عن تسليح المقاتلين وجيش الإنقاذ وتمويلهم، فقد جلب الصهاينة طائرات وطيارين، واستعملوها في الحرب ضد تجمعات الجيوش العربية وضد القرى التي لم يكن سكانها قد شاهدوا طائرة من قبل.

مع اتّضاح مطامع الصهيونية عبر بناء (الكيوتسات) وشراء الأراضي من العائلات العربية ومعظمها لبنانية الأصل، وطردهم للفلاحين من الأرض وتصادد الصدمات بين الطرفين عموماً، اشتدت حالة العداء النفسي والكراهية والحقْد بين الطرفين، وأصبح الفلسطينيون يتمنون إزالة الصهاينة، وبالطبع يتوقعون منهم معاملة بالمثل، وهنا؛ استغل اليهود ومنظّماتهم الإرهابية أسس الحرب النفسية،

والشائعات المنظمة، مثل؛ القول إن لدى اليهود سكاكين مكتوب على كل منها اسم فلسطيني ستدبجه، وجاءت تباعاً عمليات قتل همجية متبادلة وتهويل فلسطيني في الحالتين حتى جاءت مذبحه (دير ياسين) التي سجل اليهود وقائعها، وصاروا ييئون الصُراخ في الليل عبر ميكروفونات في القرى، وأضافوا إليها مطالب بالعربية للناس أن ينجوا بأعراضهم وأرواحهم، ويذكرونهم أن النبي قد هاجر، بينما الفلاحين لم يكونوا يعرفون أصلاً بوجود التسجيل والميكروفون مكبر الصوت، ويعلم الله ماذا كانوا يظنون، وهم يستمعون لذلك في الليل .. ثم يدرج رجال العصابات الصهيونية براميلَ مُنفجرةً على القرية، فيصاب السكان بالهلع، ويبالغون في الرواية؛ لتبرير الهروب، فيرهبون سكان بقية القرى المجاورة التي لم تمر بهذه التجربة، ولكنها اكتفت بالسمع. كل عملهم في الحرب النفسية كان ولا زال منظماً ويؤتي أكله.

الحرب النفسية كانت أيضاً تمارس من قبل الصهاينة عبر العالم؛ إذ يدعون أن فلسطين هي الأرض الموعودة من الرب، وهي أرض بلا شعب للشعب اليهودي المشتت بلا أرض، وأن اليهود يتوقعون الدعم المسيحي والعالمي؛ لإصلاح الأرض والمنطقة ورفقها وتحديثها، وهذا ما حدث خصوصاً وأن الشعوب الأوروبية رحبت بفكرة التخلص من اليهود وإبعادهم إلى أي مكان آخر. ثم رسم الصهاينة خارطة فلسطين الطبيعية وغيروا الأسماء فيها؛ لتوافق الأسماء والأماكن التوراتية، وعندما احتلوا الأرض طردوا السكان، ودمروا القرى العربية كلها، وهودوا أسماء الأحياء في المدن الكبرى مثل؛ حيفا ويافا وعكا وغيرها،

بينما القدس هي (أورشليم). فرضوا اللغة العبرية على كل اليهود وفتحوا باب المواطنة والتجنيس لكل مهاجر يهودي قادم.

استمر الإسرائيليون بإنكار الحقوق الفلسطينية بل أنكروا وجودهم، وذلك بالرغم من كل أشكال المقاومة التي لم تتوقف، والحروب التي قامت بسبب القضية الفلسطينية، وبالرغم من قرارات الأمم المتحدة، أكثر ما اعترفوا به وجود عرب يسكنون في أرض إسرائيل، ولكنهم لا يملكونها، ولا تراث لهم أو ثقافة أو مؤهل للتواجد الراقي. بالطبع رؤية الفلسطيني بالعموم مشابهة ضد اليهود، ولم يعترف الفلسطيني لهم بشيء من أقاويلهم، لكن وتحت ضغط الوضع، ونجاح المخطط الصهيوني استجابت منظمة التحرير الفلسطينية وألغت بنودا في ميثاقها، واعترفت بإسرائيل على ثلاثة أرباع فلسطين الطبيعية، وهكذا وقع الفلسطيني في الفخ حين أقر بالرواية التوراتية اليهودية الصهيونية الملفقة، مقابل اعتراف إسرائيل بوجود المنظمة وحققها في إدارة شؤون الفلسطينيين في مناطق الضفة والقطاع التي لم تقر اتفاقيات (أوسلو) أنها أراضي لدولة فلسطينية .. بل أن اتفاقيات (أوسلو) لم تذكر بأن فلسطين عربية للفلسطينيين الذين يسمحون لليهود بالبقاء في أجزاء منها يديرون حياتهم حسب القانون الدولي، أو أي صياغة تؤكد الحق الفلسطيني الأصيل على كل الجغرافيا، وأن الوضع الحالي سيكون ثمرة لسلام وحياء مشتركة .. المهم أن (أوسلو) اقرت للصهيونية بدولة على ثلاثة أرباع فلسطين، مقابل اعتراف إسرائيل أن منظمة التحرير هي الممثل الشرعي للفلسطينيين، وبذلك ثبتت الرواية اليهودية التي تم نشرها طوال

قرن سبق. كان اتفاق (أوسلو) دليل انهزام فلسطيني رسمي وجهل قيادي إداري، إلى درجة تقبل تغيير مناهج التعليم الخاصة بالجغرافيا والتاريخ الفلسطيني من دون المطالبة بتغيير المنهاج الإسرائيلي العنصريّ والزائف والتحريضي تجاه الفلسطينيين والعرب.

طوال أكثر من ربع قرن منذ اتفاق (أوسلو) (1993) لم يحقق الفلسطيني أيّاً من بنوده الاجتماعية والاقتصادية، ناهيك عن السياسية، وواصل الصهاينة تنفيذ مخططهم في تغريب الفلسطيني عن ذاته وأرضه ومحيطه، وعن العالم أجمع بالقهر والتحايل والمماطلة وتسهيل الخلاف المجتمعي الأسري والعائلي والقبلي والمناطقى الاجتماعى والسياسى بين الفلسطينيين وتقنيته، وإيصال غالبية الناس في فلسطين للركض خلف الحبز اليومي، والقلّة الباقية المهيمنة منهم تحولت لحياة العبيد سياسياً وأمنياً مقابل الرغد اقتصادياً. شجعوا التخلف وسيادته؛ ليساعدهم في استكمال خططهم المتواصلة، وإخلاء الأرض من أصحابها، أو تحويلهم إلى حطابين وخدم وعملاء، حسب المخطط الصهيوني الأصلي، الذي يُقر أيضاً باستعمال كل أنواع العنف والارهاب ضد المدنيين. ان الحرب الاحداث على قطاع غزة في رمضان مايو 2021 لا يختلف في اساليبة الارهابية الفعلية والنفسية عما حدث في مذبحّة دير ياسين نيسان 1948.

المُخزي أن هذا التسابق الذاتى الصهيوني اليهودي في المنطقة، وكل تقدم إسرائيلي، هو نتيجة للتخلف الفلسطيني والخذلان العربي.

المخططات الصهيونية ليست سرية ولم تكن، ولكنهم لم يتراجعوا أو يتهاونوا في الإعداد والتنفيذ من دون أن يجذوا أي خطط مضادة، واستعداد للتصدي. كل ما يفعله الفلسطينيون والعرب والمسلمون بالدرجة الأولى هو التعرف والتخمين والتأكيد على تفاصيل المخططات والأهداف الصهيونية ومجرياتها، ومن ثم كثرة الكلام عنها، ولكن انعدام أي تصدٍّ مُنظم لها. حتى الثورة الفلسطينية حين ظننا أنها تمردت على النظام العربي في التصدي أعادتنا بسرعة إلى وتيرة الشعارات، وضحالة التفكير والتخطيط، وضعف الإرادة في التحمل والتطوير حتى وصلت إلى الموافقة على منح اليهود أكثر من ثلاثة أرباع فلسطين من دون تأمين السيادة على البقية الباقية المتناقضة تبعاً .. وهناك لم تثبت بواقى الثورة التي تسلمت الحكم أي نجاعة، وحسن إدارة حتى أوصلت بسيئاتها الشعب إلى تمنى عودة الاحتلال، وأصبحت الأمنية الأقوى للفلسطيني أن يعيش في دولة واحدة مع اليهود حتى لو تحت سيادتهم. هذا الحال تكرر لما حدث في الأندلس حين نشبت الحروب الأهلية بين طالي كراسي الحكم، فتمنى السكان أن يُعمَّ الأمن، ولو تحت السيادة الصليبية التي بالطبع طردتهم تبعاً كما تفعل إسرائيل مع الشعب الفلسطيني الآن بالتضييق ثم فتح منافذ للهجرة، وإغلاق فرص العودة لمن يغادر.

التراجع الفلسطيني والعربي الرسمي عن الحق المطلق في فلسطين أصبح ينحر في التضامن العالمي، ويعكسه بالتدريج من دعم للقضية والحق الفلسطيني إلى تراجع وتحاذل وتفهم، ومن ثم تأييد للرواية

الإسرائيلية التي أبصرت النور بالاعتراف الفلسطيني فيها. كان الغرب الرسمي يؤيد إسرائيل، وهو يعرف كذب روايتها، ثم تحول مضطراً إلى تأييد الرواية التي أقرتها القيادة الفلسطينية. كانت البدايه مع مؤتمر مدريد للسلام (1991) الذي تبعه بعد شهر ونصف فقط إلغاء الأمم المتحدة لقرار عنصرية الحركة الصهيونية الذي صدر عام 1975. ولم تنقضي أسابيع طويلة بعد تراجع الأمم المتحدة حتى قال ياسر عرفات إن ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية (كادوك)، أي متقادم، ووافق المجلس الوطني على إزالة بنود عدم الاعتراف بإسرائيل، بينما على سبيل المثال لم يتراجع الجنوب أفريقيون عن قولهم بعنصرية النظام الأبيض هناك حتى زال واندثر، وتحولت البلاد إلى الديمقراطية، وكانت قضية جنوب أفريقيا قد بدأت هي الأخرى عام 1948 وفاز النظام العنصري بالدعم الرسمي العالمي الأبيض حتى قبيل انهياره، وقد سقط النظام بفعل صمود المقاومة واستمرارها، وتوسع المقاطعة الشعبية العالمية ضد العنصرية، فخرج (مانديلا) من السجن إلى الحكم، ولم يعمل في خدمة النظام العنصري الاستيطاني. أما في فلسطين فقد استوعب الرئيس الفلسطيني الثاني الذي هندس اتفاقية (أوسلو) المقصود من المخطط الإسرائيلي، وأقر أمام مجلس الأمن الدولي في فبراير 2018: "نحن نشغل عند الاحتلال، نحن نعمل عند الاحتلال الإسرائيلي. طبعاً هو لا يتتقد ذاته وهفوات الاتفاقيات التي رعاها، ولكنه يضع اللوم على إسرائيل التي لم تحسن النوايا، أو تطبق تصوراتها.

هكذا توألى التراجع الرسمي الفلسطيني، فتبعه التراجع الدولي، ولم تعد رواية إسرائيل أسطورية، ثم وبسبب الخذلان تراجع الموقف الشعبي الفلسطيني تجاه سلطته وثواره وقادته، وبالطبع وصل الانهيار للمواقف الرسمية العربية الباحثة عن مصالحها والمطبعة للتعليمات الأمريكية المنسجمة مع المخطط الصهيوني. في عام 2006 كان حوالي 70 بالمئة من الفلسطينيين تحت الاحتلال يؤيدون السلطة الفلسطينية وليده (أوسلو)، وفي عام 2019 تراجعت نسبة التأييد إلى نصف سكان الضفة والقطاع، وعلى الأغلب أن معظم المؤيدين هم ممن يقبضون الرواتب الشهرية من السلطة بشكل أو بآخر، ولو أجري استطلاع بين غير المستفيدين، ونفذته جهة غير رسمية لكانت النسب تقارب الـ 99 بالمئة رفضاً للسلطة والقيادة والسياسة الفلسطينية الرسمية. لقد أصبح الخذلان ينخر في الناس إلى درجة تسوق الفلسطيني تحت الاحتلال لبضائع إسرائيلية بل صنعت أو أنتجت في المستوطنات، يشتريها بدون أي وخز من الضمير أو التردد. كما أن البضائع الإسرائيلية معروضة في الأسواق العربية ويستهلكها المواطن وهو شبه متأكد من مصدرها غير المعلن، وفي بلد مثل الأردن يدفع كل بيت جزءاً من فاتورة الكهرباء للحكومة الإسرائيلية كضرائب على مبيعات الغاز المنهوب لتوليد الطاقة.

تشبيه الوضع العربي بدايه من فلسطين وجاراتها بالوضع الأندلسي الذي ذاب واندثر، يتطلب توقع النتيجة ذاتها ولكن في فترة زمنية أقصر. هنا سيناريو قد يحدث في أي لحظة: السلطة الفلسطينية

تصارع للبقاء؛ وقد تنهار ذاتياً أو بفعل إسرائيلي، وهذا سيؤدي إلى فوضى، وبالطبع إلى اشتباكات مُسلحة وعمليات عسكرية على الأرجح ضد المستوطنات في الضفة بغرض تحريرها .. هنا ستوعز إسرائيل للمستوطنين المدججين بالأسلحة والروح الاجرامية العدوانية، بعمل مجازر تؤدي إلى رحيل وترحيل أعداد كبيرة من الفلسطينيين إلى الأردن الذي لن يكون بوسعه التصدي العسكري لإسرائيل. ولا يُستغرب تنصل إسرائيل من افعال ال 600 ألف مستوطن الذين "يدافعون عن أنفسهم" ويدمرون عشرات القرى التي تقف أراضيها الآن بين مستوطناتهم. وعلى الأغلب أن تفاصيل السيناريو جاهزة في أنتظار اللحظة المناسبة للتنفيذ. ذاك السيناريو ليس الوحيد، وغني عن القول بعدم وجود مخططات فلسطينية وعربية مضادة تمنع تكرار ما حدث في الأندلس.

تجربة صمود سكان قطاع غزة في حرب رمضان مايو 2021 بالرغم من حجم الارهاب والتدمير، قد لا تتكرر لو كان الحدث في الضفة الغربية، حيث فرصة اللجوء الى الاردن اسهل خوفاً من القصف، وهذا ما حدث في اعوام 1948 و 1967 .. وقد تكون ردود فعل الشعب الفلسطيني مغايرة، وبدل الهروب للاردن التقدم لفلسطين المحتلة والتصدي للمستعمرين وتدميرهم .. لكننا لا نرى أي اعداد وتأهيل فلسطيني لطرق التصدي في ظل قيادات فلسطينية خائفة للعدو.

من النيل إلى الفرات

عندما يلمح العربيُّ مقولةً "من النيل إلى الفرات" يقفز إلى ذهنه مساعي الصهيونية؛ لإقامة إسرائيل الكبرى، ويتصور في مخيلته استمراراً للنهج الإسرائيلي بالتوسع من الوسط إلى الأطراف، أي؛ كما حصل وأشييع، من تل أبيب إلى مدن فلسطين ثم ثلاثة أرباع فلسطين والجولان وسيناء، ثم ضمُّ الأراضي في الضفة. هكذا يظن العقل العربي أن التوسع بين النيل والفرات سينطلق من فلسطين مثل انتشار النار من بؤرةٍ وسطيةٍ متوسِّعة، ولذلك يظن أن الأمر سيحتاج لزمان طويل ريثما يُجلبُ اليهود للتوسع في هذه المساحة، وطرد أو قتل سكانها، وبالتالي يطمئن العقل العربي ظناً أن اليهود سيستغرقون القرون؛ لاستيعاب فلسطين ثم الانتقال إلى الجيران.

واقع الأمر أن المخطط الصهيوني أشمل مما يظن العقل العربي العام. لقد باشروا منذ ما قبل النكبة للتخطيط في التدخل، وتشكيل قيادات دول المنطقة بتنصيب إما يهود أو متعاطفين مع اليهود، ومنصاعين في الحاليتين، وحين تظهر الاستثناءات المضادة يعملون على التخلص منها بعدة طرق؛ لإعادة الأمور إلى مجاريها؛ سعياً لإقامة إسرائيل الكبرى.

سنرى بوضوح أن العمل قائم على قدم وساق إذا نظرنا للوقائع في المنطقة بين النيل والفرات من منظور المساعي إلى إقامة إسرائيل الكبرى وخطواتها:

تفريغ أو تخفيف شديد للكثافة السكانية العربية في المنطقة المنشودة عبر حروب واجراءات غير منطقية، وتنفيذ بفعل غربي مدفوع من قبل إسرائيل . كل من العراق وسوريا فقدت نصف سكانها قتلاً أو تهجيراً مع إفقار عام، وخلق فوضى عارمة للباقيين.

تفريغ سيناء من السكان والموافقة الرسمية على عدم دخول قوات مصرية قوية فيها، واطلاق العمل الإسرائيلي الاستخباراتي هناك من الجو والفضاء، وعلى الأرض ومن البحر، كون هذه المنطقة قريبة من فلسطين المحتلة، وتقع ضمن حدود إسرائيل الكبرى.

تنازل مصر للسعودية، وبالتالي لأمريكا وإسرائيل، عن جزر في البحر الأحمر تقع ضمن الرغبة الإسرائيلية، وتحول الممرات هناك، جنوب سيناء، إلى دولية تستفيد منها إسرائيل فوراً بحق المرور التجاري والحربي قبل أن تسيطر عليها وتضع فيها قواعد بحجة الحماية للمنطقة من إيران.

مشروع (نيوم) في الأراضي السعودية المحاذية لمصر والأردن يقع في الحد الجنوبي لإسرائيل الكبرى ويلاصق جنوب سيناء عبر خليج العقبة. هذه المساحة الضخمة وحسب تصريحات رسمية لولي العهد السعودي ستخضع لإدارة عالمية وتخرج عن السيادة السعودية، وتبنيها رؤوس الأموال العالمية، ويسمح لمن يريد دخولها والاستثمار فيها بدون علاقة رسمية مع السعودية .. من يراجع ما قيل وكتب عن (نيوم) سيرى بوضوح أنها مشروع مستوطنة يهودية، وهي أيضاً تعرف في

التوراة باسم أرض (مدين) التي لجأ إليها سيدنا موسى؛ هرباً من فرعون، وأقام بها اليهود بعد الخروج من مصر وفقاً للرواية اليهودية، والهدف من الإعلان عن تخصيصها كمشروع سياحي واستثماري هو طرد السكان السعوديين منها، وتفريغها من أهلها المقيمين بها.

أن مشروع (نيوم) ليس الأول في المنطقة، فقد تم تجربته في أبو ظبي ودبي ضمن مشروع دولة الإمارات على الرغم من أنها خارج جغرافيا إسرائيل الكبرى، لكنها تعمل لخدمتها وقتما يتطلب الأمر ذلك. منذ الربيع العربي 2011 أنضح تمويل الإمارات وتسليحها للتخريب العربي. لا توجد دولة عربية تدمرت ذاتياً بدون دور إماراتي مباشر، وهذه الدول إما واقعة ضمن جغرافيا إسرائيل الكبرى أو كانت ذات أداء عروبي، وتوجب أضعافها. الإمارات تدعم الخراب وتشارك في الحروب، وتمتنع عن دعم الدول الثابتة والمحتاجة للدعم، أو قوى التحرر، بل لا تدخر وسعاً للإفساد بين الفلسطينيين، وتدعم من يقيم طرف محمد بن زايد؛ للزج به في محاولة رئاسة السلطة الفلسطينية في اللحظة المناسبة.

الإمارات، بالأحرى، محمد بن زايد ضغط على السودان؛ للتطبيع وأرسل مندوبيه للعسكر هناك، ونال ما يريد، أو بالأحرى كما طلب منه اليهود، وللإمارات استثمارات واسعة في السودان برؤوس أموال اجنبية. الإمارات عموماً وأبو ظبي ودبي خصوصاً تضم أعلى نسبة أثرياء في العالم حيث يقدر عددهم بـ"75" ألف مليونير، فيما يشكل

اليهود الأثرياء النسبة الأعلى فيهم، وهم من ساهموا في القفزة الاقتصادية للإمارات، وهذا تطلب توفير بيئة آمنة ومطيعه لهذا المخزون المالي الكبير؛ لذا ليس غريباً أن يكون من قاد محمد بن زايد من يده باتجاه إسرائيل هو المليونير اليهودي (حاييم سابان)، ويسعى للاحاق محمد بن سلمان به، وتكرار التجربة في (نيوم)، ولكن بشكل علني منذ البدايه حيث لا سلطة محلية ولا سكان محليين. لقد صُنعت الإمارات؛ لتقوم بما تقوم به الآن، وستقوم (نيوم) بدور المستوطنة الإسرائيلية الكبرى.

لا بُد من لفت الانتباه لادماج إسرائيل للإمارات في مخططها للتحكم في جغرافيا إسرائيل الكبرى ومحيطها. فمنذ الربيع (العبري) نهج محمد بن زايد عبر المال والمليشيات وارسال المرتزقة والاسلحة، الى دعم أحزاب وشخصيات لها فرصة في تولي زعامة البلاد، وذلك ليصبح هو المتحكم في سياسة ذلك البلد. فعل ذلك في سوريا، والعراق، وهو من شجع بن سلمان على افعاله، وفي ليبيا، وفي اليمن، وجزر القمر، ومحاولة قلب السلطة في سلطنة عُمان، ومحاولة الانقلاب في تركيا، والحرب على اليمن، وتجهيز قيادة جديدة للفلسطينيين، وبالطبع في السودان وغيرها. كل ذلك لضمان هيمنة على اكبر عدد من قيادات عربية واقليلية لتسخيرها للصالح الصهيوني. المحاولة الاحداث كانت ما حدث في الاردن ربيع 2021 من تأليب للامير ضد اخيه، بعد ان وافق على صفقة القرن واستعد لتبنيها حين يفوز بالحكم. لكن هذه المحاولة وكل ما سبقها نال الفشل والفضيحة.

للسودان حدود طويلة على البحر الأحمر، أي؛ جنوب حدود إسرائيل الكبرى، وبالتالي هناك أهمية؛ لأخطارها وربطها في التطبيع والسماح بإقامة قواعد عسكرية إسرائيلية فيها. وقد أمنت إسرائيل ذاتها حتى في جنوب السودان عبر علاقات قوية مع أثيوبيا، وتشجيعها إقامة سد النهضة، وتوفير حماية جوية إسرائيلية للسد الذي يشكل تهديداً لمصر والسودان. هذا التهديد قائم على التحكم بحجم المياه المرسلة للبلدين، وعلى إمكانية ضرب السد لتدفق المياه وإغراق كل من مصر والسودان .. أي أصبح في يد إسرائيل مبكراً سلاح يهدد مستقبل البلدين وسكانهما. ربما يتطور الأمر إلى ابتزاز لدول حوض النيل؛ لتوصيل المياه إلى سيناء وعبرها، فيصبح لإسرائيل الكبرى كل مجاري ومنابع الماء في المنطقة، ونحن نرى الآن كيف تُعطش إسرائيل الصغرى الشعب الفلسطيني، وتمارس التمييز الصارخ في توزيع الماء المنهوب أصلاً من الفلسطينيين والعرب.

جاء التخطيط لفكرة إقامة الإمارات، والاستفادة منها كواجهة عربية بعد هزيمة حزيران 1967، التي حطمت التطلعات القومية الوحدوية العربية، ومهدت الطريق أمام المخطط الصهيوني. قبل إطلاق يد الإمارات للعمل العلني أثناء حركات الربيع العربي لتخريب آفاق الثورات، قبل ذلك كانت إسرائيل قد خلقت واقعاً فلسطينياً مطيعاً لها منفذاً لمهامها بين الفلسطينيين، أي السلطة الفلسطينية التي أوصلت الأمور إلى ما هي عليه من هوان فلسطيني وخذلان عربي وتراجع عالمي، ولم تتجاوب السلطة مع أي معطيات للإصلاح والتحرر. هل من

المعقول أن كل النتائج لأفعال السلطة جاءت بالصدفة مناهضة لآمال فلسطين وشعبها في الداخل والخارج، وموالية لليهود ومشروعهم؟ تغيير منهاج التعليم الفلسطيني حسب رؤية إسرائيل، ومنع مقاطعة المنتجات الإسرائيلية، ودعم الاقتصاد الإسرائيلي بالعمالة الفلسطينية، والتمنع طويلاً عن تقديم شكاوى للمؤسسات الدولية بمجرائم إسرائيل، وتعطيل متعمد ومتكرر؛ لاجراء أي من الانتخابات الرئاسية والنيابية؛ لمنع تجديد وشرعنة القيادة، وسجن المعارضين والمقاومين، ورفض الصلح الداخلي بين القوي والمنظمات، وعدم مقاومة الفساد والمحسوبية، وخلق أمنية الرحيل والهجرة لدى الأجيال الجديدة، ووقف التفاوض مع إسرائيل، والتمنع عن قبض مخصصات الدخل الفلسطيني بحجج وطنية، وتحويل فئات واسعة من الشعب للتسول، وكسل في العلاقات العربية والدولية، وانعدام النقد الذاتي أو التغيير أو النهج .. كل ذلك والكثير غيره يتم تسخيرته تبعاً لصالح إسرائيل في المدى اليومي والمستقبلي. هذا بالطبع على عكس ما كان عليه الوضع قبل اتفاق (أوسلو) من ثورة وأنخراط شعبي في مقاومة الاحتلال وتعرية أساطيره الدينية، فتراجعت إسرائيل خطوة وقبلت باتفاقية سلام منقوصة سحّرت منظمة التحرير لخدمتها، لتقفز إسرائيل بعد ذلك لأميال تجاه هدفها.

قد يتبادر للذهن سؤال: لماذا تنشط إسرائيل في المركز، فلسطين، والإطار الأوسع في الوطن العربي، ولا تفعل في الجار الأردني ما فعلته مع الغير؟ الأردنُ بحماية حدوده مع فلسطين إنما يحمي أيضاً الحدود

للاحتلال، وهذه مهمة بالنسبة لإسرائيل خصوصاً مع استمرار حالة العداء النفسي الشعبي الفلسطيني والعربي ضد إسرائيل. كما أن الأردن كان على الدوام محطة استقبال للمطرودين من فلسطين، أيضاً الأردن لا يتهور في حروب ضد إسرائيل، وكان ثاني دولة بعد مصر يعقد اتفاقية سلام لم تنفذ إسرائيل الكثير من بنودها، مثل؛ إعادة أملاك المواطنين الأردنيين في الضفة والقدس وفلسطين.

لذلك ولغيره يُستثنى الأردنُّ من مسلسل التخريب الفوضوي الصهيوني بأيدي عربيةٍ كما حدث في سوريا والعراق وليبيا، بالرغم من كونه في وسط حدود إسرائيل الكبرى المنشودة، وفي مساحته الحالية كلها أسماء عبرانيةٍ توراتية في خارطة إسرائيل الكبرى التي وضعها (ايتمار بن افي)، ونشرت في نيويورك عام 1917؛ لتثقيف الشباب الصهيوني حول حدود البلاد الموعوده من الربِّ لليهود. تضم الخارطة كل فلسطين وثلثي سيناء حيث نصف خليج السويس، وكل خليج العقبة ثم منطقة (نيوم) في شبه الجزيرة العربية، ويمتد الحد مستقيماً للشرق باتجاه الخليج، ويصعد بزاوية لفم الخليج حتى الكويت، ومنها شمالاً مع النهر حتى حدود تركيا، ويهبط من هناك لشرق دمشق والجولان. ما تحقق للآن هو احتلال فلسطين والجولان، والهيمنة على المنطقة المنشودة في سيناء، وضمان مستقبل (نيوم)، وتخريب العراق وسوريا، وتشريد نصف سكانهما، وإشعال الفتنة لدى المتبقين، وتعطيل قواتهما المسلحة.

الاستراتيجية الصهيونية لا ترى التوسع من البؤرة للأطراف، ولكن بعد السيطرة على البؤرة تسعى؛ لتجهيز متواصل للأطراف الأبعد، ثم الارتداد للبؤرة، الأمر الذي يصبح سهلاً بعد ترويض وتأهيل المنطقة وسكانها، وفي الوقت ذاته الاستعداد الذاتي، وتأطير الظروف الدولية للخطوات التالية؛ لتأتي بشكل طبيعي وكحل لمشاكل ترهق العالم. من هنا بالذات نرى مغزى تمني الأغلبية من الشعب الفلسطيني ومطالبتها بالانضمام لليهود في دولة واحدة، أو حتى عودة الاحتلال العسكري ليحكمهم بدل سلطتهم الوطنية ومنظماتهم. لهذا رأينا أيضاً تقبل العراقيين بالمجمل لتغيير نظام جمهوريتهم، وتقبل الاحتلال الأمريكي، ولهذا لم تنفض أي شعوب عربية ضد التطبيع الإسرائيلي مع الأطراف الخارجية لإسرائيل الكبرى المنشودة. ولا تخلو ساحة المثقفين العرب من مقارنات بين الديمقراطية والحريات المتاحة للإسرائيليين، وما هو غير متاح في الأقاليم العربية المستهدفة.

التخطيط الصهيوني قديم وذات هدف واضح، ولكنه غير جامد. بعد زوال شاه إيران حدثت الصهيونية خططها، فأصبحت الجمهورية الإسلامية في مرمى أمريكا، وتحوّلت إلى عدو للعرب في الخليج؛ لدفعهم بالتدريج لإسرائيل. الأمر ذاته يُطبق على تركيا بعد تسلم أردوغان للحكم، وأصبحنا نرى تحالفات علنية خليجية إسرائيلية ضد إيران، وتحالفات أخرى إسرائيلية مصرية قبرصية يونانية، أي؛ أوروبية ضد تركيا، وذلك ضمن لعبة قديمة متجددة في ورثة الرجل العثماني

المريض، والآن الصراع على تركة الرجل والوطن العربي المنذر كما حدث للعرب في الأندلس.

في الأندلس كان تحالف الصليبيين، على أنواعهم، ضد الوجود العربي والتراث الإسلامي، والآن لدينا أهداف ظاهرة لإسرائيل في منطقة جنوب شرق البحر المتوسط، بينما تنشط القوى الغربية وروسيا وتركيا وإيران سعياً للهيمنة على شمال الضفة الشرقية للبحر المتوسط، وكل الضفة الجنوبية. لذلك نرى الآن أن ما كان يقوله رواد التحرر العربي بأن إسرائيل خطر على كل الأمة، وليس على الفلسطينيين فقط، كان حقيقة وإنهم صادقون تماماً، ويعنون ما كانوا يقولون .. أما من يريد معرفة المصير الذي ينتظره والأجيال القادمة في المنطقة فما عليه سوى مطالعة التوراة والرؤية اليهودية للأغيار في إسرائيل الكبرى.

لقد أطلق الإسرائيليون على اتفاقية السلام مع الإمارات والبحرين وأمريكا، اتفاقية إبراهيم. لا بأس، فالعرب يعتبرون ذاتهم من سلالة إبراهيم وإسماعيل، واليهود من سلالة إبراهيم وإسحاق، وبالتالي فالجد واحد. لكن ما يُعلّمه اليهود لأبنائهم وأجيالهم يختلف تماماً عن الرؤية العربية الإسلامية لأبناء إبراهيم. إسماعيل والإسماعيليون بالنسبة لهم أولاد حرام من (الخادمة) هاجر التي أذنت سارة لإبراهيم بمعاشرتها. بينما إسحاق هو ابن إبراهيم وسارة الشرعي، ولذلك اعتبروا اليهودي تابع لأمه، وليس لأبيه حتى يتصلوا من أبناء إبراهيم الآخرين، وهم كثر من نساء مختلفات، ولكن يتم التركيز على

ابن هاجر، إسماعيل، وابن سارة إسحاق. إن تسمية الاتفاقية تعني كل شيء لليهودي، فالإسماعيلي لص وقاتل، ويحمل كل الموبقات، ولا حقوق له، وموقعه ومصيره محدد سلفاً في المنطقة عبر رؤية التوراة. رجال الدين يلقنون ويدرسون شرعية إسحاق وعدم شرعية إسماعيل، ولا زال اسمه ونسبه شتيمة لدى اليهود. بينما المدرسين يلقنون الصغار أن الإسماعيلي مفترس، ويستشهدون بأئفه مثل الصقر المفترس. وكل المربّين الإسرائيليين يدّعون أن مصر كلها لهم، وهم من بنوا الأهرام، وعمرّوا مصر سابقاً ولاحقاً حتى طردهم عبد الناصر، وهم يجهّزون قوائم التعويض عن الخسائر التي أصابتهم؛ ليفلسوا مصر وتدان لهم طوال أجيال قادمة. هذه الادعاءات أصبحت تتكرر في العلن الآن على لسان شخصيات بارزة مثل، إحدى سفيرات واشنطن في القاهرة التي تقول أيضاً إن موعد إسرائيل الكبرى يقترب، وهي فخورة بالدور الذي لعبته على طريق الإنجاز.

حتمية الصراع!

هل الصراع هو الحتمي دوماً في كل مكان وتتخلله فترات سلام مؤقتة، أم أن السلام هو الدائم وتتخلله فترات صراع تكون أحياناً عنيفة بالحرب، وغالباً ما تكون صراعات أخرى غير حربية؟ بالنسبة للشعوب المنتمية لأحدى تفرعات الأديان ما بعد الصنمية، فإن الأيديولوجيا تُحتم عليهم الصراع سواء أكان طائفيّاً في تفرعات الدين ذاته أم في مُجابهة مع الأديان الأخرى. قد يقال إن الأديان لا تدعو للكراهية والحرب، وهذا قول قابل للشجب أو القبول باستشهادات ونصوص متضادة، لكن في واقع الأمر فقد تم تسخير الأديان لخدمة الحروب.

الصراع العربي الإسرائيلي، أو الفلسطيني الإسرائيلي قائم على فرضية استعادة اليهود لأرض منحها لهم الرب، وبالتالي لا مجال للمناقشة طالما بوسعهم تحقيق رغبة الرب بالقوة. الصراع الصليبي العربي الإسلامي كان هو الآخر بخلفية دينية مباشرة، واستمر بأشكال هيمنة اقتصادية واجتماعية حتى الآن، وتقبل الصليبيون الجدد المشروع اليهودي الصهيوني الديني في المنطقة ودعموه.

هذا الواقع الحالي حيث تفوق إسرائيل، وطاعة الغرب بشكل واسع لها، وضعف الحال الفلسطيني العربي الإسلامي، وتلبية متتالية من العرب لتقبل التطبيع والسلام مع إسرائيل بدون إنجاز حلول مقبولة للقضية الفلسطينية .. هذا الواقع، هل يمكن أن يؤدي إلى سلام دائم؟ القاعدة الأساس لأي اتفاقية تحمل صفة السلام يفترض أن تكون قائمة

بين طرفين كانا متحاربين متخاصمين، ولديهما قوى متعادلة يُفترض أن تقنع كل طرف بعدمية استمرار الصراع ضد الآخر، من دون ذلك فأي اتفاقية سلام هي في الحقيقة استسلام طرف لآخر؛ بغية درء خطر أكبر، أو رُبما جبناً ومحاولة لمجرد كسب الوقت من دون تسخيره لعوامل تصدٍ، كما كان في حالة الأندلس من تضييع للقدرات والوقت.

في العصر الحديث حيث أصبح للشعوب دولاً، فللدولة مقومات لا يُعترف بها بدونها ولا تكون دولة، وهي: وجود شعب متجانس ثابت السكن على مساحة محددة، وحدود مع الجيران معترف بها، ومتفق عليها، وضمن الحدود يجب وجود حكومة مقبولة من الشعب، وبناء على ذلك يتم الاعتراف الدولي بهذه الدولة. إسرائيل عملياً تم الاعتراف بها في الأمم المتحدة على أساس حدود قرار التقسيم الذي يعطي الدولة الفلسطينية 47 بالمئة، ويعطي إسرائيل الباقي، ويرسم قرار التقسيم حدوداً واضحة لا لبس فيها، كما يشترط القرار الاعتراف بدولة إسرائيل ضمن قيام الدولة العربية الفلسطينية، وإعادة اللاجئين، وتعويض كل طرف عما خسره من اراضٍ وأملاك، ومنح حرية السكن للعرب واليهود، حيثما وجدوا إذا لم يرغبوا في الانتقال للمنطقة، الدولة، المخصصة لهم. هذا كله رفضته إسرائيل بناءً على رفض الدول العربية آنذاك لقرار التقسيم مبدئياً. المهم أن إسرائيل لم تعلن حدودها، وأخذت تضم كل منطقة تحتلها، وتعلن أن حدودها حيث تصل دباباتها، وهذا ما حافظ على رؤية إسرائيل الكبرى.

بعد حرب حزيران أصبحت الحدود الإسرائيلية تضم الجولان وسيناء، والضفة التي كانت تابعة للأردن رسمياً وجزء من المملكة. بعد حرب أكتوبر 1973 عقدت مصر وإسرائيل أول معاهدة سلام عربية إسرائيلية رسمت حدود إسرائيل مع مصر، ومنحت إسرائيل مزايا في جزء من شبه جزيرة سيناء، وحدث من صلاحية الدولة المصرية هناك. لكن المعاهدة لم تتطرق إلى بقية حدود إسرائيل مع جيرانها العرب ورسمت حلاً للقضية الفلسطينية بناء على حكم ذاتي تحت الاحتلال في الضفة والقطاع. المعاهدة العربية الإسرائيلية الثانية كانت مع الأردن، وأقرت أن الحدود بين البلدين هي حدود الانتداب، أي نهر اليرموك شمالاً، ونهر الأردن والبحر الميت حتى العقبة غرباً، وبالتالي وقعت الضفة خارج الحدود الأردنية، ولكن الاتفاقية تحدثت عن ضرورة احترام القوانين والمعاهدات الدولية وقرارات الأمم المتحدة بما فيها 242 الذي يفسره كل طرف بشكل مختلف، والذي يطالب إسرائيل بالانسحاب من الأراضي العربية المحتلة عام 1967، وتفسر إسرائيل القرار بأنه يطالب بالانسحاب من، وليس كل، الأراضي وضمن ترتيبات أمنية.

اتفاق (أوسلو) بين الفلسطينيين وإسرائيل ترك مسألة الحدود إلى المفاوضات النهائية، بينما اتفاقية الإمارات والبحرين لم تتحدث عن أي حدود بالطبع كونهما بلدين بعيدين عن جغرافية فلسطين، وكان بوسع البلدين طلب معرفة حدود إسرائيل التي اعترفوا بها وعقدوا معها اتفاقيات. كان العرب يريدون اتفاقية سلام شاملة ضمن مشروع السلام

العربي المتفق عليه بين العرب والمتعاهدين على عدم خذلانه، وأن لا حلول بدون حل قضية فلسطين ضمن ذلك المشروع على أمل رسم حدود لإسرائيل يؤمن جيرانها من العدوان والاحتلال اللاحق. ذلك لم يتم كون الإرادة الإسرائيلية لا تريد التعامل مع العرب كمجموعة، بل دول محتاجة متفرقة مما يمنحها مزايا، أولها: بقاء حدودها مفتوحة حيث يمكنها الوصول، أو حيث تأمل أن يُطلب منها الوصول والتّموّضع، حتى لو كان في أراضي الخليج ومياهه بُحْجَة التّصديّ المشترك للخطر الإيراني.

بالنسبة للحدود مع سوريا، فقد ضُمت إسرائيل منطقة الجولان التي احتلتها بالقوة المسلحة، وذلك بموافقة أمريكيّا ودعمها في عهد الرئيس المخلوع (ترامب)، وعدم قَبُولِ دوليٍّ بالضم، ولم تقر إسرائيل أن الجولان هو حدها النهائي كونها لم تعقد اتفاقية سلام مع دمشق التي تطالب بالأرض المحتلة. فيما يتعلق بالجار اللبناني فقد عادت اللقاءات الرسمية العسكرية لتحديد الحدود البحرية، وذلك بعد شهر من الاتفاقية الإسرائيلية الإماراتية، ويفترض بعد الانتهاء من ترسيم الحدود البحرية ترسيم الحدود البرية، وإنهاء قضية احتلال إسرائيل لمزارع شبعا اللبنانية التي كانت السببَ العلنيّ في استمرار هجمات المقاومة ضد القوات الإسرائيلية.

على افتراض انسحاب إسرائيل من مزارع شبعا وترسيم الحدود البحرية، وهي الأخيرة بالنسبة لتل أبيب كونها رسمت حدودها البحرية

مع مصر، وضمت مياه قطاع غزة، وحدودها مع قبرص مُرسمةً أيضاً، وهذا سيفتح مجال استخراج الغاز الطبيعي من البحر دون مشاكل قانونية بين الدول، وستكون إسرائيل قد ضمنت حدودها البحرية كاملة من دون حق لفلسطين، ورسمت حدودها مع مصر ولبنان والأردن مما أوقع الضفة الغربية ضمن القرار الإسرائيلي الذاتي الداخلي، ولن يكون لفترة طويلة قادمة أيُّ فرصة لسوريا لاسترداد الجولان، وهي الجبهة المفتوحة أمام إسرائيل حتى الفرات.

النتيجة الحالية أن العرب المجاورين لفلسطين، ما عدا سورية، قد أمّنوا حدودهم الجغرافية مع إسرائيل ضمن اتفاقيات مسجلة دولياً وتصبح هكذا حدود إسرائيل مُعرّفةً دولياً، وتشمل كل فلسطين الطَبِيعِيَّة، أي ضعفَ المساحة التي اعترفت بها الأمم المتحدة ودول العالم حين أعلن عن قيام إسرائيل وفلسطين عام 1947، وتحول القضية الفلسطينية إلى شأنٍ إسرائيليٍّ داخليٍّ يُمْكِنُها عملياً حلُّه كما تريد .. والحل سيكون التضييق على الفلسطينيين ومصادرة أراضيهم بمقدار توسع الاستيطان، الذي قد يحتاج لربع قرن، وسيطر اليهود فعلياً، ويصبحون في حاجة لانطلاق جغرافي جديد ربما يكون من الجولان عبر شمال نهر اليرموك والحدود الأردنية السورية باتجاه العراق ونهر الفرات، وهي منطقة قليلة الكثافة السكانية، وتوجد بها قواعد أمريكية حالياً.

ليس بالضرورة أن تلجأ إسرائيل للعنف المسلح الواسع لفرض هيمنتها على ما تعتبره حدود إسرائيل الكبرى، إذ يمكنها عبر سياسة التخريب والترغيب والتحالفات من تحقيق مبتغاها حسب ما يناسبها من ظروف. سياسة التخريب بدأت منذ زمن، وليس فقط حين جاء الربيع العربي، وذلك بدعم أمريكي وعربي، كما أن التحالفات بين إسرائيل والميليشيات الدينية في سوريا ليست سراً، ويقدم لها الدعم اللوجستي عبر الجولان. الخراب يعم الدول الواقعة ضمن الحدود المنشودة صهيونياً، والإيقاع وصل إلى درجة مطالبات علنية عربية بعقد تحالفات دفاعية مع إسرائيل ضد إيران، وضد تركيا أيضاً.

مسلسل شيطنة إيران كان واضح الأهداف والخطى وتككل بانسحاب واشنطن (ترامب) من الاتفاق النووي، ومحاصرة إيران ومقاطعتها من دون التوقف عن النفخ في أوهام قوتها واقتربها من القنبلة النووية التي ستدمر بها إسرائيل وجيرانها الخليجيين. طبيعة الحكم الإيراني منعه من التعاون على فض الاشتباك الوهمي السني الشيعي، فلجأت دول الخليج إلى إسرائيل للتصدي معاً لمخاطر إيران المشتركة عليهما. وكانت واشنطن في عهد الرئيس (أوباما) قد تماشت مع إيران ضد رغبة كل من إسرائيل والسعودية، وهذا ما غير الأجواء السياسية، وقرب التواصل الصهيوني الخليجي؛ سعياً للاستفادة من اللوبي اليهودي، ومن القوة العسكرية والردع النووي الإسرائيلي. في المقابل قدمت السعودية منطقة (نيوم) كهدية تمثل حدود جنوب إسرائيل الكبرى، ولم تعارض التطبيع الإماراتي والبحريني، وسيكون على دول

الخليج الاستثمار في الاقتصاد الإسرائيلي المتعثر ليحل المال الخليجي بدل الأمريكي، وتأخذ إسرائيل من أمريكا بالتالي دور الحارس ضد العدو الفارسي.

في أفضل الأحوال فحكومات الخليج وأسرها تبحث عن الحماية العسكرية الذاتية لاستمرار الحكم، وتظن أن خطر إسرائيل الكبرى مؤجل، وربما يمكن الحد من أطماع الصهيونية عبر إطعامها والاستفادة منها عبر السلام. وهذا بالطبع إقرار بعجز ذاتي عن الدفاع والفعل والفشل العربي الجماعي. عموماً من الشروط المنطقية الأخرى للسلام تهئية الأجواء الداخلية مثل مجابهة العنصرية والكراهية الذاتية ضد الطرف الآخر؛ لاعطاء أي اتفاق سلام فرصة للنجاح. لقد غيرت كل من مصر والأردن والسلطة الفلسطينية مناهج التعليم ووضعت اسم إسرائيل على الخرائط، وأزالت مواد التحريض، وتحدثت عن السلام، وتقبلت السياحة الإسرائيلية وغير ذلك مما لم تقبله إسرائيل بالمثل، بل الملاحظ في دراسات اجتماعية إسرائيلية أن نسبة الكراهية بين الأجيال اليهودية الناشئة تزيد عما كانت عليه في الأجيال الاسبق، بالرغم من عدم تعرض إسرائيل لحروب منذ أكثر من 40 عاماً بينما لم تتوقف قواتها عن قصف للجيران وهجمات ضدهم كإجراءات تدريبية لقواتها التي تتعلم الكراهية منذ دخولها لدور الحضانة. في المقابل أصبحت المجتمعات العربية أكثر تقبلاً لفكرة التعايش مع إسرائيل ضمن اتفاقيات سلام، بل إن نسبة كبيرة من الشعب الفلسطيني أصبحت تفضل العيش في دولة واحدة مع اليهود، الذين في المقابل تتزايد عندهم

روح العنصرية والكراهية؛ لاستمرار تدعيم الأجيال بقناعة أن العرب يحتلون أرض إسرائيل الكبرى، وطرّدوا اليهود منها، وصادروا أملاكهم.

السلام الحقيقي العادل المنصف قليلاً لمضومي الحقوق الفلسطينيين يتطلب من إسرائيل رسم حدودها بالتوافق والعيش بسلام مع الجيران، وبالتالي إلغاء ميزتها الأولى بالتفوق العسكري وليّ ذراع من تريد. لكن مساعيها وخططها تهدف إلى الاستسلام من الجيران بالأمر الواقع على حساب الحق الفلسطيني. بوسع الفلسطيني تقبل العيش مع الإسرائيلي إذا أخذ حقوقه أو تعويضاً عنها وضمن كرامته في موطنه، وبوسع العربي العلماني التعايش مع مثيله الإسرائيلي وربما يفضل التعامل معه، وبوسع المسلم إيجاد مبررات دينية تسمح له بتقبل الإسرائيلي اليهودي، لكن هذا الأخير بالمجمل غير مستعد للتعايش المتبادل المتعادل المتطلب منه التنازل عن الكراهية والعنصرية والشعور بالتفوق، والأيديولوجية الصهيونية المتحكمة في المجتمع غير مستعدة للتنازل عن إرادة الرب في إقامة دولة إسرائيل الكبرى ومعاملة الأغيار ضمن حدود هذه الدولة حسب رؤية التوراة وتعاليمها التي لا يكفوا عن الترويج لها بين كل أجيالهم.

للأمانة التاريخية فقد كان الفلسطينيون والعرب في العموم يجذبون إبادة إسرائيل، أو على الأقل إعادة المهاجرين اليهود إلى بلدانهم الأصلية التي جاؤوا منها، وكان اليهود يدعون أمام العالم أنهم راغبون في السلام والتعايش مع الجيران، وأن حروبهم هي دفاع عن النفس ضد

محيط عربي يكرههم .. المهم هنا أن الغالبية العربية كانت تؤمن بهذه الرؤية، والأغلبية الإسرائيلية واليهودية العالمية كانت تصدق ما تسمع من دعاية إسرائيلية مطالبة بالسلام. بعد الهزائم العربية، ونزول العرب رسمياً وشعبياً عن مطالبهم ورؤيتهم الحربية انقلبت الآية، وأصبح الشارع الإسرائيلي يرفض التنازل عن المكاسب الجغرافية والاقتصادية ويتطلع بالفعل إلى تحقيق إسرائيل الكبرى، ونضب فعل القوى الليبرالية واليسارية الإسرائيلية، وهيمن اليمين الديني برؤيته العنصرية على افكار الأغلبية، مستقوياً بالتأييد الديني الغربي وتحديداً الأميركي.

هل يمكن توقع قيام هذه إسرائيل الكبرى وكيف ومتى؟
الإجابة الموجزة: نعم وقريباً نسبياً، وفيما يلي سيناريو، بل عمل جارٍ يفسر كيف سيكون استمرار العمل نحو ذلك الهدف: استفزاز إيران؛ لتضرب هدفاً خليجياً بحرياً أو أرضياً، فتقوم الطائرات الإسرائيلية بالرد المحدود على إيران، والهبوط في القواعد الأمريكية أو السعودية. ثم لأسباب عديدة يُسمح بالتواجد العسكري الإسرائيلي بأنواعه، ومنها الاستخباري في الخليج مقابل إيران. تسمح السعودية بإقامة قواعد عسكرية في جزر خليج البحر الأحمر التي خرجت من ملكية مصر إلى الملكية السعودية قبالة منطقة (نيوم). التوتر سيرفع أسعار النفط، ويزيد المداخل الخليجية الإسرائيلية، وتقوم إسرائيل بالدور الأساس الذي أقيمت من أجله بالنسبة للغرب، وهو تولي حماية مصالحهم في المنطقة بعد أن أصبحت الدول الغربية غير مؤهلة ذاتياً وجماهيرياً؛ لاحتلال

دول أخرى واستعمارها. سحب فتيل الاشتعال لن يتم إلا بالتوافق الإيراني الخليجي وبالتالي سحب البساط من تحت المتآمرين.

هناك بالطبع سيناريوهات أخرى عديدة يمكن رسمها، أو توقع أحداثٍ بوسعها أن تؤدي إلى سرعة التحول نحو هيمنة إسرائيل على المنطقة من دون الترويج الإسرائيلي لروح السلام والتعايش بين اليهود. تبقى المعضلة هي رفض إسرائيل المنهج في السياسة والتربية، وتعليم الأطفال العداء للعرب والمسلمين إلى درجة أن كل جيل جديد من الإسرائيليين أشدَّ عداءً وعنصريةً ضد الفلسطينيين وبقية العرب، ولم تعمل إسرائيل بينود السلام الذي وقعته لتغيير مناهجها .. وطرحها الأمور كاسترداد ديني لأراضيهم الموعودة من السماء، بينما في الأندلس كان الوضع على شاكلة استرداد قومي للأرض بالاعتماد على الدين الكاثوليكي ... إن الإقرار بوجود الأديان وحقيقتها وأحقيتها يتبعه التزام بمحتواها، أو الحرب لإقرار الصحيح منها .. والإسلام والعرب أقرّوا باليهودية، وكتبها على الرغم من الاتهام بتزييفها، أو تحريف أجزاء منها، لكن التعاليم اليهودية بالإجمال لا ذكر فيها للإسلام اللاحق لليهودية.

أن نظرة إسرائيل للإسماعيليين العرب قبل وبعد اعتناقهم للإسلام مشبعة بالعنصرية والازدراء، وأحدث الأمثلة ما قالته الإمارات العربية أن إسرائيل قبلت بوقف ضم أراضي الضفة الفلسطينية في مقابل معاهدة السلام الإماراتية الإسرائيلية، وهذا ما نفاه نتنياهو على الفور، وعاد ليعلن عن بناء مستوطنات جديدة في الضفة في اليوم التالي

لتوقيع الكنيست الإسرائيلي على الاتفاقية التي عقدت قبل شهر من تاريخه .. أي إن الاستضراط الإسرائيلي لليهودي للعرب ورغباتهم لا حدود له، إذ لديهم قناعة تامة أن العرب يفعلون ما يؤمرون به عند احتياجهم لذلك، وهم الآن يفضلون مسايسة العدو الإسرائيلي على حساب القضية الفلسطينية خوفاً مما ينتظرهم من خطر إيراني.

جدلية التَّخَلُّفِ والتَّسَلُّطِ

غريزة التسلط عنصر أساس في أداة الحكم، وهي من أهم أسباب التخلف والكوارث وأدواتهما، ولذلك تم عبر آلاف السنوات من التجارب التوصل للأسلوب الديمقراطي الذي ينتخب الزعيم، ويحدد صلاحياته زمنياً، ويوفر أدوات لرقابته. مشوار طويل تخلله حكم القوي جسدياً للقبيلة، وحكمُ الفاسد، وحكم الدكتاتور من الأباطرة والملوك، وحكم العسكري، والحاكم المرتبط بالسَّماء والموكل منها. وبالرغم من الوصول البشري لبرِّ الأمان عبر الحكم الديمقراطي إلا أن بعضهم يحاول التسلط ويتصرف كإمبراطور وبالتالي يسبب الخراب مؤقتاً لبلده وجيرانه ريثما تتم إزاحته. القائد وأسلوب القيادة هما اللذان يحددان مستوى رفاهية الشعب وتطوره. أيُّ متابعة بين أساليب الحكم ومستوى التقدم والتخلف ومقارنتها ببعضها ستثبت بديهية تلازم التخلف مع الحكم المتسلط.

الحاكم المتسلط يريد الاستمرار لذاته وسلالته، حماية لمكتسباته الشخصية وخوفاً من الحساب والعقاب لو فاز آخر بالحكم، ولذلك تراه يستعين بمطيعين هم في الحقيقة جناء ومنساقون وانتهازيون، ومصالحتهم تقليد الزعيم جزئياً، وبالتالي يتفشى الخراب في البلد. حين يُرْزَقُ البلد المتخلف، بالصدفة أو غيرها، بقائد جيد بعيد عن الغوغائية والشعبوية، وتتوفر فيه كثير من العناصر الإيجابية والوعى، فيستعين بشخصيات مماثلة، ويرسم الطريق، وينسف الفساد والفاستدين، فحينها

سيقفز البلد للأمام، ويزدهر كما حصل في بعض الدول، مثل؛
سنغافورة التي تستحق تجربتها أن تُدرسَ من الجميع.

في هذا العالم المتصارع على الهيمنة طوال حقبة تاريخية ممتدة للآن نجد أن القوى الاستعمارية نصَّبت عملاء لها كحكام محليين في فترات الاستعمار، وواصلت ذات النهج بعد مراحل التحرر الوطني بتشجيع الحكام المطيعين وتأهيلهم، فتجدهم مرتبطين ثقافياً بمن يدعمهم، ويمولهم عبر القروض التي مصيرها التَّهْبُ وتضخيم مديونية البلد بمئات الأساليب. ويمكن لهذا الزعيم المدعوم أن يُهاجم لفظياً مُؤليه من قوى الاستعمار والإمبريالية، ولكن أسلوبه في الحكم هو ذاته أسلوب من يتمسك بالكرسي ويستعينُ بالشيطان، ويكون من مصلحته الشخصية تخلف الشعب، وتطفيش الأفكار التي قد تؤدي للتطوير وبالتالي لإزالته، فمصيره أهم من مصير البلد وازدهارها .. مثل هؤلاء يستمرون في الحكم لعقود طويلة، ويسعون للتوريث، وهناك بالطبع أنظمة الحكم فيها وراثي وهي تتخبط بين جداول التخلف حتى لو توفر المال لدى بعضها، فالتخلف هو الضمان لاستمرارية الحاكم والحكم.

إسرائيل هزمت مجموعة دول عربية تأسست قبلها، وأكبر منها في الشعب والموارد .. هزيمة النكبة كانت بسبب رئيس يعود لتنصيب الاستعمار للحكام العرب آنذاك وتوجيههم بالعمل نحو النكبة. الهزائم التالية كانت بسبب الفوارق في أنظمة الحكم بين الدكتاتورية العربية الصانعة تلقائياً للتخلف ونظام الحكم الديمقراطي في إسرائيل.

والديموقراطية بالمنظور الإسرائيلي اليهودي لا علاقة لها بالحق والإنسانية ومناصرة المظلوم غير اليهودي، فهي النظام المتحالف مع الدكتاتوريات العسكرية ويمدها بالأسلحة، لكنها ديمقراطية حكم ورقابة على الحاكم، وهي من أكثر الأنظمة التي جددت الانتخابات والزعامات، وسجنت رؤوساء، ورؤوساء وزراء بسبب التحرش الجنسي والفساد، وهذا أمر نادر عبر العالم، ومستحيل في الدول العربية التي حاكمها وورثته لا يتغيرون، بدون رغبة الآلهة، وبوسعهم السباحة في الفساد، وممارسة الرذيلة بأشكالها.

هذا الكيان الجديد الحديث التنظيم الإداري والسياسي والعسكري، قليل السكان المتخصص في الصناعات، أصبح محط أنظار دول عربية غنية؛ ليوثر لها الحماية من الجار الإيراني المسلم. كانت دول الخليج تحت الحماية العسكرية الأمريكية، وقبلها البريطانية، توفر لها الأمن الخارجي والداخلي مقابل حرية استفادة مشتركة مما كان، موقع استراتيجي وتحول إلى مصدر نفطي. والآن تتجه دول الخليج لإسرائيل على أمل استغلالها عسكرياً ضد العدو الإيراني المشترك، أو هكذا على الأقل توهم دول الخليج ذاتها بأنها سوف تُسخر إسرائيل عسكرياً لخدمتها، كما سخروا عراق صدام حسين لثمان سنوات.

دولة بحجم السعودية وأموالها وخيراتها تفشل عن الحسم العسكري في اليمن الجائع الفقير، وترتعد من الخطر الإيراني. القوات العسكرية والاستخبارية السعودية وجدت وسُخِّرَتْ؛ لحماية الحكم من

الأخطار الداخلية، وكما أصبحت الثورة الإسلامية الإيرانية تصدّر الثورة للجيران، فقد كانت السعودية تصدّر الفكر الوهابي للمسلمين عبر العالم مستغلة الأموال، وساعية لقيادة العالم الإسلامي السني بدون تجهيزات عسكرية وحضارية، وإنما بفقّه ابن تيمية الذي ولد الإرهاب عبر العالم، وارتد من خلال دولة الخلافة الإسلامية؛ ليدمر الدول السنية المعارضة للرؤية السعودية بين النيل والفرات، وفي ليبيا والسودان.

كلّ البلاوي مصدرها القيادات، فهي تفعل تماماً المطلوب منها، وتمارس دورها المرسوم، وهذا سيؤدي للمزيد من الكوارث ... بالنسبة لمستقبل إقامة إسرائيل الكبرى وفرص هيمنتها، علينا تصور الطاعة والخنوع التلقائي حين تحميك من العدو الفارسي كما ظنّوا أن إنجلترا، وبعدها أميركا كانت تحميهم. إسرائيل في هذه المرحلة لا تحتاج لاحتلال جغرافي يحكم بشكل مباشر رؤيتها الجغرافية المستقبلية، ويكفيها الفوائد الاقتصادية، والانصياع الخليجي لسياساتها. لو اصطنعت إسرائيل أي عمليات عسكرية إيرانية، ثم تصدت للخطر بشكل لم تفعله بريطانيا أو أميركا للآن، مثل تدمير مصانع الطاقة النووية، وضرب القوة الجوية الإيرانية، فلن يوجد في الداخل الخليجي من يعترض على دور إسرائيل التي تحميهم وأرباحها. لقد رضخوا للإرادة الغربية في السابق لأسباب أمنية داخلية وخارجية، وتعايشوا مع الجشع الغربي في النفط، وتجارة الأسلحة المقدسة في المخازن؛ لإنعاش الاقتصاد الغربي، فلماذا لا يتكرر الأمر مع إسرائيل؟ وهاهم المنظرون يتذكرون علاقة الرسول باليهود وحياتهم في يثرب، وهناك من يطالب

لهم بتعويضات عمّا أصابهم من ضرر عبر أفعال الرسول وعمر بن الخطاب. بالطبع لن يطرح أي إنسان سؤال لماذا لم تتطور السعودية وغيرها من دول مجلس التعاون إلى شيء شبيه بإسرائيل من ناحية القوة والقدرات الحربية، أو حتى شبيه بسنغافورة حضارياً، الخالية من الفساد البعيدة عن الأخطار الإقليمية.

لقد أعادت السياسة السعودية الرجعية العفوية المتقلبة الأنانية، الوطن العربي إلى ما يشبه زمن قبيل انهيار الخلافة العثمانية. ضربت العراق بإيران في حرب طاحنة ثمان سنوات، ثم تخلت عن العراق بشكل مشين تأمري مع أمريكا ودول الغرب؛ للقضاء على أي خطر عربي قد يوجه لإسرائيل. استغلت نفط المنطقة في معظم الأحيان لصالح الغرب وضد منتجي النفط في ضربها للأسعار عبر زيادة الإنتاج، وكأنها دولة صناعية تستهلك النفط، وليست منتجة له. خلقت عداء مع إيران وتركيا كان من السهل تجاوزه، واستبعاد التلاعب الغربي في المنطقة، ومع ذلك لم توزع الأموال النفطية أو تستثمرها في الدول الإسلامية السنية التي تريد قيادتها دينياً واجتماعياً وسياسياً، ولكنها تحرمها من أموال الإسلام وتخنقها اقتصادياً. لم تنم الجزيرة العربية ذاتها، ما عدا في قطاع البناء والشوارع وبعض الخدمات، لكن مستويات الفقر والأحياء المعدمة، وتكدس الأموال في إيادٍ محدودة وهيمنة اقتصادية سياسية لأفراد العائلة المالكة، كل ذلك استمر على حالة، وأعاق أي تطور للشعب والمجتمع والاقتصاد في البلاد، ناهيك عن الفشل في بناء قوة عسكرية ضاربة بالرغم مما ينفق على السلاح.

هكذا أصبح الوطن العربي أتعس مما كان عليه في الماضي، بالرغم من الإمكانيات المالية المتوفرة التي أهّدت. دول الخليج الغنية مهددة في أمنها الداخلي والخارجي ومنصاعة تباعاً لرغبة الأعداء. الحالة في كثير من الدول العربية تراجعت لما يشبه فترات الهوان والتخلف في العهد العثماني .. جماعات ودول متقاتلة، وأمراض وفيضانات في كل مكان يصعب ردعها، أو التخطيط لعدم تكرارها حتى في دول الخليج التي صارت تعاني سنوياً من سيول الأمطار. عجز إداري حكومي عميق، واقتتال مجتمعي، وعودة للقبلية والبداءة في كل مكان .. دول كانت مكتفية معاشياً على الأقل بعد الاستعمار المباشر عادت إلى الخيام والهجرة والبحث عن الخبز بكل السبل بما فيها بيع الكرامة بأنواعها، وكل هذا أمام أعين اليهود وأجيالهم الناشئة ويؤكد لهم ما يتلقون به من المدارس والجيش ورجال الدين ..

الجوع يهاجم ملايين اليمنيين، ويدب في مدن سوريا، ويزحف إلى دمشق ويدق أبواب لبنان .. وهو يختبئ منذ زمن في مصر، ويكرر زيارته للعراق .. هل بقي بلد شعبان بين النيل والفرات؟ أما اليمن السعيد فقد أصبح اسمه رمزاً للدمار والجوع والأمراض. لبنان، الجميل؛ باريس الشرق، أصبح في النصف الثاني من 2020 يُصدر المهاجرين في قوارب الموت إلى قبرص واليونان، وتعود من البحر قصص الغرق والذين ربطوا جثث أولادهم وأحبائهم في المركب حتى لا يفقدونهم في البحر. إذا كان الخوف من الحرب ونتائجها قد دفع بالسوريين والعراقيين والليبيين واليمنيين والفلسطينيين للهجرة، فإن

الجوع المباشر هو الذي يدفع باللبنانيين؛ لمغادرة بلادهم، بينما الإقطاع السياسي يتحجر ويحتجز البلاد ضد رغبة الناس عيني عينك، ويرفضون الحلول والتغيير إذا لم يكن لهم نصيب الأسد مما سيقدمه العالم، لإنقاذ لبنان. في شهري صيف 2020 وصل عدد مراكب المهاجرين ضعف تعداد كل عام 2019، وأضيف حوالي ثلاثة أرباع مليون طفل إلى صفوف من يعانون سوء ونقص التغذية في لبنان من دون احتساب بقية سكان لبنان مثل؛ آباء وأقارب هؤلاء الأطفال، أو اللاجئين السوريين، وسكان المخيمات الفلسطينية.

في فلسطين ولبنان وسوريا وبقية الدول التي تعاني من المجاعة، فأنت لا ترى مظاهر للمجاعة والفقر لدى أي واحد من الطبقة الحاكمة أو حتى من السياسيين .. هناك طبقة سياسية منتشرة عبر كل العالم العربي والإسلامي تفرض بقاء الحكم لدى الأغنياء بعيداً عن الفقراء، وتحول السياسي الفقير إلى غني إذا اقترب من الحكم. نعم؛ إنه الفساد الأخلاقي المؤدي إلى بقية البوائق. كيف، ولماذا يعم هذا البلاء بكثافة في الدول العربية الأكثر تعليماً والأعمق حضارة وفي المنطقة الأخصب؟

هنا بالذات تفرض حالة الأندلس ذاتها للمقارنة! منذ دخول عبد الرحمن الأول إلى الأندلس ناجياً وهارباً من مذابح السفاح العباس، ارتبطت المجاعات في البلاد بواحد من ثلاثة أسباب: الأول صراعات مع الخارج؛ إذ لم يترك العباسيون للأمويين فرصة الاستقرار في الأندلس كملجأ أخير، فحاربوهم وألبوا جيرانهم من عرب وفرنجة عليهم، وهذا

ما يحدث الآن بين النيل والفرات بتخطيط خارجي وإرادة خارجية أذكى وأقوى من قيادات المنطقة الموضوعة.

السبب الآخر، الثاني، لخلق المجاعات والبلاء في الأندلس في حياة كل أمير مرة أو أكثر، كانت الصّراعات الداخلية بدعم عباسي، أو لأسباب طائفية، مثل بربر ضد عرب، يمنية ضد شامية، مولدين ضد غيرهم، وأيضاً صراعات داخل عائلات الأمير على تولي الحكم، فقد كان معظمهم أبناء محظيات لا يتوقف الطمع فيهم والتآمر عليهم. أما السبب الثالث فكان الطبيعة، مثل غياب الأمطار وتأخرها، فيلجأ الأمراء إلى صلاة الاستسقاء باستمرار كدواء وعلاج سحري لم يشتغل في معظم الأحيان، وذاك في بلد مليء بالأنهار والبحيرات، وكان بحاجة للمزيد من التقنية التخزينية التي عرفها أجداد الأجداد في اليمن من إقامة السدود والقنوات.

هذه العوامل لا زالت على حالها في وطن العرب اليوم، وتتسبب في المجاعات والفقر الموسمي في أغلب السنوات، وعلى استمرار العقود؛ لتعود الكرة بعد الأخرى لقرون دون احتراز وتخطيط وتفادي أشكالية الغرق في الشتاء، والعطش والجفاف في الصيف. هل هناك أي قيراط من المنطقية في استمرار الاستسقاء من السماء كل شتاء تماماً كما كانت قبائل الهنود الحمر، وقبائل أفريقية ترقص تنزيلاً للأمطار قبل مئات العقود والقرون؟ حتى الأسباب شبه الطبيعية الأخرى التي كانت تضرب المواسم في الأندلس، وتُسبب المجاعات، وتنتشر الأوبئة لا زالت

تفعل فعلها بجدارة مثل؛ الجراد الذي كان ولا زال يلتهم المحاصيل. هذه المنطقة العربية التي كانت سلة غذاء العالم أيام الرومان أصبحت دار مجاعة وخراب سياسي واجتماعي. كل العرب بالإجمال، وما بين النيل والفرات بالتحديد، أصبحوا يعتمدون بنسب من 60 إلى 75 بالمئة من الحبوب والزيوت والسكر على المستورد، بينما تتوفر الأراضي والأنهر، فكيف يحصل هذا؟ وهل يملك القرار السياسي الذاتي من لا يملك الغذاء والاكتفاء من إنتاجه؟ ضمن أي منطق أصبح مصر أكبر مستورد للقمح في العالم، أو يعاني السودان من المجاعة؟!

إن ما يجري بين النيل والفرات ليس غضباً طبيعياً يعم القارة أو العالم، فهناك في وسط الإقليم من ينتجون كل شيء ويصدرون، ولكن الأمور تسير حسب مخطط تخريبي يجري تنفيذه بعناصر مشتركة، تشمل الحروب والتهجير والإفساد، وتعميق التبعية، وتسعير الطائفية، وضمان القيادات، وصولاً لتذويب مكونات المنطقة والهيمنة عليها.

الاستهواء العربي والتَّنصر الأندلسي

إن ما يجري من تطبيع وخنوع عربي يؤدي بالضرورة، ولو بعد حين، إلى تراجع عن القرآن ذاته، وتغيير الكثير من تفسيره، لصالح التَّوراة وتفسير الإسرائيليين الحاليين لها .. ولو تأملنا مجريات الأحداث الآن، خصوصاً في الدَّول رافعة رايات الإسلام لتأكد لنا ذلك.

معروف أن أصل اليهودية والإسلام من الجزيرة العربية، وهناك كثير من النصوص المتطابقة بين التَّوراة والقرآن، وطبيعي أن يكون التنافس الديني في منطقة جغرافية واحدة الزامياً حتى يغلب طرف على الآخر، أو يتهادنا كنتيجة لتعادل القوى. المأساة التَّطبيعِيَّة الآن هي استهواء الأنظمة العربيَّة على حساب الإسلام والحقوق الوطنية من منطلق انهزامي وانتهازي يؤدي؛ لتعميق الرُّؤية الإسرائيلية الدينية التوراتية بأنهم الأفضل والأقوى والأصحُّ دينياً.

مثل ذلك حدث بالفعل في الأندلس، ولكن على مدى زمني طويل، بعكس السرعة الصاروخية التي تندفع فيها المنطقة الآن إلى النتيجة ذاتها لصالح اليهود هذه المرة. كانت نتيجة التَّنصر في الأندلس إكراه من يريد البقاء في بلاده على تغيير ديانته، وإثبات يومي لصحة تنصره، وفي النهاية لم يصدق الصليبي تنصر أي من المسلمين، وانتهى المطاف بطرد حتى الذين تنصروا.

وجد الدين اليهودي (والنصراني) وأتباعهما في الجزيرة العربية واليمن والعراق قبل الدعوة الإسلامية بقرون طويلة .. فهم أهل الكتاب، وأهل الذكر، آنذاك، الذين يشير إليهم القرآن، ويطالب بسؤالهم. حاول الرسول استمالتهم، ولكنهم تمسكوا بدينهم، وكان من المفترض أن يسلموا خصوصاً مع التشابه في كثير من النصوص بين كتابهم وما جاء تباعاً في القرآن الذي أراد التحديث والتطوير للتشريعات اليهودية والنصرانية. رفض اليهود الانضمام للإسلام، بل ومحاربتهم له أدى للخلاف والصراع والاتهامات الإسلامية إذ زيفوا كتابهم الذي يقر القرآن أنه منزل من السماء، ثم نزلت تباعاً آيات مضادة لمن لا يسلم منهم، ونسخت الآيات الجديدة التي سبقتها، التي كانت ترى معاملتهم بالحسنى.

الاتِّهامُ الإسلاميُّ بالتَّزييفِ في التوراة تركّز على كون اليهود رفضوا الإقرار بوجود نصوص توراثية تبشر بقدوم النبي محمد، وأن الأوصاف تنطبق عليه. كذلك جاء اتِّهامُ التَّزييفِ لبعض النصوص، وليس إنكار كل المحتوى، وذلك لحقيقة تشابه نصوص قرآنية مع توراثيه (وإنجيلية) في المحتوى العام وفي النص، وبالتالي، فإنكار الكلِّ التوراتي سيعني إنكار الذات الإسلامية. قبل استكمال الرواية بما حدث لليهود جراء هذا الصراع سأورد هنا بعض النصوص المتشابهة في الكتابين كأثلة فقط. لقد كتَبَ كثير من الباحثين الجادِّين في أوجه التَّشابه بين النُّصوص لكتِّب الديانات الأحدث، ويسهل العثور عليها ومقارنتها من المصدر ذاته.

بالرغم من الاختلاف في التفسير الفلسفي لرؤية اليهودية والإسلام في شأن يوم القيامة والثواب والعقاب إلا أن التشابه واضح في كثير من الآيات التي تصف ذلك اليوم، وهنا مثال من ذلك:

في التوراة: ولولوا لأن يوم الرب قريب. في القرآن: إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً.

في التوراة: يصنع فناء باعثاً لكل سكان الأرض. في القرآن: بل تأتيهم بغتة فتبهمهم.

في التوراة: هو ذا الرب يخلي الأرض ويبيد سكانها. في القرآن: ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض.

في التوراة: النجوم تغير مجراها وتتساقط على الأرض. في القرآن: وإذا النجوم أنكدت .. وإذا الكواكب أنثرت.

في التوراة: وأسس الأرض تزلزلت. تزعزعت الأرض تزعزعاً وترنحت مثل السكران. وفي القرآن: إذا زلزلت الأرض زلزالها .. إذا رُجت الأرض رجاً.

في التوراة: سوف تُلغى الأرض الأجساد الثابتة فيها .. في ذلك الوقت ستعيد الأرض أمانتها. في القرآن: وأخرجت الأرض أثقالها .. وإذا الأرض مدت والقت ما فيها وتخلت.

في التوراة: وتلتف السماوات كدرج. في القرآن: يوم تطوى السماء كطي السجل للكتب .. والسماوات مطويات بيمينه.

في التّوراة: يقوم الأصدقاء والإخوة ضد بعضهم ويتقاتلون. في القرآن: ولا يُسأل حَمِيمٌ حَمِيماً يُبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ بينه وصاحبته وأخيه.

يمكن الاستمرار في هذه المقارنات إلى أمد طويل، وهي مقارنات معروفة، ولا تقتصر على قصة آدم والجنة، أو يوم القيامة، أو قصة ابني آدم وقتل أحدهما للآخر، أو قصة نوح والطوفان التي وجدت في الأصل قبل اليهودية بأكثر من ألف عام، ولها مترادفات في أساطير بابل، وأمم غير مشرقية أيضاً، وهناك دراسات عدة توضح التشابه في محتوى التّوراة مع الديانات والأساطير التي سبقتها.

تمتدُّ المقارنات إلى حوالي ثلثي مادة القرآن وتعرف بالإسرائيليات وقصص الأولين، وتتجلى الاختلافات الجذرية القرآنية في المحتوى مع التّوراة، وكتب غيرها من الديانات، في السّور والآيات المدنية (التي نزلت في المدينة المنورة) حيث جاءت هذه الآيات تبعاً استجابة لتساؤلات المسلمين والمسلمات الجدد، وحلاً لإشكاليات تحدث كل يوم في هذا المجتمع الجديد قيد الإنشاء والتوسع التشريعي والجغرافي. كانت الآيات المكية في معظمها قصص وأساطير تماثل بعض ما ذكر في التّوراة، بينما الآيات المدنية إجمالاً لا علاقة لها بالتاريخ والقصص والأساطير التي كانت تُنزل للرسول كآيات في مكة لمواساته، نظراً لما كان يُلاقيه من سوء بني قومه وتصديهم له هناك طوال سنوات البعثة، وقلة

الذين آمنوا به قبل الهجرة إلى المدينة، ويقدر عددهم بالسبعين وغالبيتهم من المظلومين.

بالعودة إلى موضوع يهود الجزيرة العربية الذين رفضوا الإسلام، وتصدوا له وفشلوا وهُزموا وُطردوا من المدينة، أي من قلب الدولة الإسلامية الجديدة في عهد الرسول، ثم تابعت مطاردتهم الضمنية بانتشار التوسع الجغرافي الإسلامي، حتى أقروا بالهزيمة واستكانوا، ودفَعوا الجزية في كل الأقطار المهيمن عليها إسلامياً مثلهم مثل النصارى، وواصلوا ممارسة دينهم، بل تطوروا في الأقاليم الإسلامية تجارياً واقتصادياً وعلمياً بعد أن كفوا عن التصدي العلني للدين الإسلامي.

(لقد أسلم خمسة من اليهود في المدينة في عهد الرسول ويُعدون من الصحابة: عبد الله بن سلام من بني قينقاع، وأسد بن كعب القرظي من بني قريظة، ويامين بن عمير من بني النضير، وصفية بنت حيي بن أخطب، أم المؤمنين، ورفاعة بن قرظة القرظيُّ من بني قريظة، وقد خير الرسول ريحانة بنت زيد من بني قريظة بين أن تسلم ويحررها ويتزوجها أو يتسررها، وتبقى على دينها فقبلت بالسرير واليهودية. أما عبد الله بن سبأ اليهودي اليمني الأصل، فقد أسلم في عهد الخليفة عثمان، وتقول مراجع إسلامية إنه الذي تسبب في الفتنة، وقتل عثمان، وموقعة الجمل، وهو الذي ادعى ألوهية علي ابن أبي طالب، وأنكر موته وأدعى أنه غاب وسيعود).

بدورها سعت الدولة الإسلامية القوية المنتصرة المنتشرة جغرافياً للاستفادة من مزايا اليهود طالما بقوا هامدين دينياً في العلن، وهذا الحال منح اليهود مزايا اجتماعية، ومنع أي نقاش ديني، وبقي الخلاف والعداء والكراهية كالنار تحت الرماد، واستفاد اليهود من كون دينهم غير تبشيري وإنما وراثي أنثوي، وبالتالي يمكنهم الخمود مع الحفاظ على عاداتهم وطقوسهم. بقي اليهود غائبين معنوياً وظاهرياً عن منطقة الخليج، أو متخفين هناك كمسلمين حتى نشأت الدولة الوهابية السعودية التي أعادت السيرة الأولى في منع تواجد اليهود في كل الدولة، لكن اليهود كانوا يعيشون طبيعياً اجتماعياً في بقية العالم الإسلامي، وكان وضعهم أفضل كثيراً عما هو في أوروبا.

مع بدايه النّهائية للخلافة العثمانية تولدت فكرة الصهيونية بإقامة كيان في فلسطين وواصلوا المخطط المعروف بالتعاون مع (نابليون) ثم الإنجليز فوعد (بلفور) وتنفيذه، وإقامة إسرائيل التي باشرت بجلب بعض يهود العالم، ومعظم يهود الدول العربية عبر الترغيب والترهيب بنشاط استخباراتيٍّ إسرائيليٍّ مضادٍّ لليهود في الدول العربية لدفعهم على الهجرة .. قيام إسرائيل ونكبة شعب عربي أثار حفيظة أمة العرب بالطبع وعاد العداء وفرض على الحكام العرب تجاوباً مع الشعوب، واكتسى العداء الوأناً دينية وسياسية ونتائج حربية.

قامت إسرائيل دون تأخير طويل بإعلان نواياها أن الهدف هو إسرائيل الكبرى حسب وعد الرب لهم، والإعلان أن حدودهم متحركة

وهي حيث يمكن لدباباتهم الوُصُول، وكونهم يسرون في مُخطط مدروس يشمل التأثير البالغ على قيادة العالم وبقية قاداته، فقد تمكّنوا ووصلوا إلى أبعاد واضحة متتالية. المفارقة أنه كلما عظم التأثير الإسرائيلي على الولايات المتحدة والغرب، كلما وهن العرب، وتخلف المسلمون واختلفوا فيما بينهم وابتعدوا عن بقية قوى العالم، وتعمق خنوعهم لواشنطن وللغرب، حتى وصلوا إلى مرحلة الاستعانة باليهود كلوبي سياسي في الغرب وأمريكا، والاستقواء بإسرائيل كقوة عسكرية للتصدي لإيران المسلمة الجارة، وهذا هو السبب الرئيس لإعلانات التطبيع من الحكومات العربية، مع شخير الشعوب الحاملة بالرغيف أو الطامعة بالحماية من جراء هذا الاستهواء.

هذا التطور المتسارع اليهودي الإسرائيلي وما يقابله من التخلف العربي الإسلامي، يحدث بينما إسرائيل تحت قيادة وتأثير يميني ديني توراتي وتأثيره سيؤدي إلى تكرار التجربة الإسلامية بالتوسع في القرن الهجري الأول على حساب الأمم الفقيرة والمسالمة والضعيفة عسكرياً. الأسلوب الإسرائيلي يقلد تماماً الأسلوب الصليبي في الأندلس قبل مرحلة النهاية وطرد المسلمين، كما أن تفاعل العرب الآن يشبه تماماً أفعالهم في فترة تراجع النفوذ والسلطة في الأندلس والتسليم للعدو، ثم الاستسلام له ثم تحمل نتائج الطرد.

النتيجةُ المشابهة مع الفتح والتوسع الإسلامي، وحركة الاسترداد الصليبي للأندلس واحتلال جزء من شمال أفريقيا، هذه النتيجة في

وضعنا الحالي ستكون إقامة إسرائيل الكبرى، ولو توفر للكيان الصهيوني القوة البشرية لتوسعت منذ زمن في ذات المنطقة التي احتلتها الدولة الإسلامية الداعشية، فهذه بالذات هي ادّعاء حدود إسرائيل الكبرى المعلنة حسب الصهيونية وتفسيرات اليمين اليهودي للتوراة. لم توجد قوى محلية لا سورية ولا عراقية ولا مصرية أو غيرها استطاعت منع داعش ومقاومتها، بل الولايات المتحدة والغرب هم من قاموا بالمهمة، وهم بالطبع من صنعوا داعش لتخرّب وتجرب فكرة توسيع إسرائيل. من يراجع فترة سيادة داعش سيعثر على تعاون علي إسرائيلي داعشي سواء أكان بالتسليح أم تطيبب المصابين عبر نقلهم للجولان المحتل.

لقد تمددت الدولة الإسلامية بسرعة في قرنها الأول وتوقفت، وفي القرن الثالث بدأ الانهيار، وظهرت النتائج رويداً رويداً في الأندلس، وفي بقية الدولة الإسلامية، إذ باشر الأعداء الخارجيون باحتلال أطرافها ثم قلبها، بغداد. القوة دوماً هي التي تنجز، ويبدو أن المخطط الإسرائيلي يحقق مأربه الآن عبر الهيمنة العسكرية، وفرض الحماية وتحقيق المكاسب الاقتصادية. كما أن السعي الإسرائيلي للتطبيع هو بدايه ويهدف إلى اعتراف ديني إسلامي باليهودية وبالتوراة كما يفسرُها الصهاينة، وبالتالي بأهدافها، وأدعاء وعود الرب لليهود. حتى الآن أقر المطبّعون والمسالون ضمناً بالقدس كعاصمة لإسرائيل، وتقبلوا ما تفرضه إسرائيل من حلول واحتلال في الأرض الفلسطينية والسورية، وأظهروا رغبتهم في تقبل الدعم الإسرائيلي السياسي والاقتصادي

والعسكري، أي منح إسرائيل دور القائد والزعيم في المنطقة كالذي أخذته لندن من إستانبول العثمانية، واستولت عليه واشنطن من لندن وباريس بعد الحرب العالمية الثانية، وهامي (تل أبيب) تأخذه بالتعاون مع واشنطن، وبوضوح أثناء فترة الرئيس (ترامب).

هكذا من المؤكد بداية حملة قريباً من المشايخ والشيوخ للتطبيع الديني مع اليهود واليهودية تحت دعوة التعايش والاحترام الديني، والإقرار بالتالي بصحة كتابهم وبالوعود الربانية حسب رؤيتهم، وسيكثر الاستشهاد بزواج الرسول من يهوديتين. كل هذا والعربان يتجاهلون أن العداء اليهودي لا يخص الشعب الفلسطيني وحده، ولا يقتصر الخطر على فلسطين وشعبها، ولكنه يشمل كل بني إسماعيل وجغرافيتهم.

(في عام 1960 حين كان الحسن الثاني ولياً للعهد في المغرب اقترح ضم إسرائيل إلى جامعة الدول العربية، وسار على هذا الطريق لاحقاً، وكانت هناك علاقات معهم بين السرية والعلنية، وفي ديسمبر 2020 جدد ضاحي خلفان الإمارات اقتراح الضم لجامعة الدول العربية وتسير بلاده الآن في طريق التطبيق، بينما اليهود الإسرائيليون يريدون ما بين الأزرقين: النيل والفرات !!).

إغماضُ العينِ وإقفالُ العقلِ

منذ خروج الأندلس عن سيطرة الكنيسة مع نهاية القرن الهجري الأول، وهي تخطط وتحاول من أجل استرداد الأندلس، وباشرت مبكراً في توحيد ملوك أوروبا وأمرائها قدر الإمكان، وشجعتهم على الغزوات الصليبية في الشرق بينما كانت المقاومة النصرانية تتلقى الدعم الكنسي في الأندلس. مع بدايه الاسترداد في شمال الأندلس والزحف جنوباً لم يكن هدف الكنيسة التعايش مع المسلمين، أي لم يسعوا للسيطرة على الحكم واستبقاء تجربة التعايش تحت الحكم الإسلامي إذ قادت لثورة في العمران والاقتصاد والثقافة والعلم والفن إلى درجة اللجوء للمؤلفات الطبية والفلسفية والجغرافية الأندلسية الإسلامية وتدريسها في معاهد وجامعات أوروبا.

كان الدَّفْعُ التَّحْريضيُّ قائم على الانتقام من المسلمين، واستعادة بيت المقدس والأندلس، والبلاد التي كانت رومانية مسيحية قبل الإسلام، وأيضاً القضاء على الدين الإسلامي المنافس عبر الخلع من الأندلس. عندما تحقق النصر للملكين الكاثوليكين (فرناند وإيزابيل)، وتسلم مفاتيح الحمراء باشرت الكنيسة عملية التطهير. في البدايه فرضوا التنصير للمسلمين الذين لم يغادروا بلادهم، ومن ثم عدم تصديق نصرانيتهم وطردهم من البلاد. وكانت الحملات الصليبية في الشرق تبيد من البشر قدر استطاعتهم، ولم يحاولوا التعايش بين الغالب والمغلوب، والاحترام المتبادل بل طبخوا وأكلوا الأطفال لإشهار

وحشيتهم وإرهاب المسلمين، وكرّروا المذابح للمدنيين أينما أتيت لهم فرصة، ومن هناك جاء اصطلاح "صار الدّم للرّكب"، لأن هذا ما حصل بالفعل في عكا والقدس، وفي معاقل التعذيب في الأندلس.

القاعدة العامة هي أن الأديان لا تتعايش إلا تحت حكم قوي غير ديني، ومثل هذا الحكم لم يتوفر الا في القرن العشرين في بعض البلدان الغنية القوية، وحتى الأربعينات من القرن الماضي كانت النّصرانية ممثلة في الحكم الفاشي والنازي، تحرق وتبيد جماعات دينية مختلفة مثل اليهود والعجر في أوروبا، وتقتل وتستغلّ المسلمين في أوطانهم. المتدينّ القوي، والمستغل للدين، يفعل كل ما يستطيع، ولآخر قطرة في الطرف الضعيف، فعنصر الرّحمة غير معمول به لدى الدين السياسي؛ أي الحاكم للبلاد.

هكذا خضع جنوب حوض البحر المتوسط وشرقه والأندلس للقوة الإسلامية في القرن الهجري الأول، وأنقلبت الأوضاع في الأندلس لاحقاً وتدرّجياً، ثم مارست أوروبا النصرانية تأثيرها واحتلالها الاستعماريّ التّدميريّ الانتقامي لحوض المتوسط، ونشأت النازية والفاشية؛ لتعمّق وتعمّم الكراهية القديمة بين النصرانية واليهود في كل أوروبا، حتى تنظّم وتكيّف اليهود، واستعادوا السيطرة والتأثير على الغرب النصراني بالمال وبالتأثير الإعلامي، وطرق حديثة أخرى، وأصبحوا يطبّقون النظرية الدينية ذاتها ضدّ المسلمين والنصارى في فلسطين بطرق استعمارية استيطانية مطورة مركزة على تفسيرات

للتوراة لم تثبت صحتها، وحتى لو ثبتت صحتها، فلا يجب أن تؤدي إلى هذه النتيجة الراضة للتعايش عملياً. لكن بأساليب وديماغوجيا متحورة، لتناسب الظروف المتغيرة، وتضع المفعول به وكأنه المعتدي الراض للسلام، وذلك؛ لتسهيل التبرير والدعم الغربي تحت مسميات عدة.

إنَّ ما جرى في العقود القليلة الماضية لا يختلف كثيراً عما حدث عبر قرون صراع الأديان، لكن الفارق هو تحالف صارخ حيناً، وخفي أحياناً قد حدث بين اليهودية والنصرانية السياسية. هكذا تم دعم فكرة بناء دولة يهودية .. دعمها دبلوماسياً وسياسياً وحرياً على حساب ويلات الشعب الفلسطيني، وقسموا الوطن العربي؛ لضمان نجاح فكرتهم، وأوقعوا بين العرب، وادعوا حمايتهم من بعضهم البعض، ومن الجيران، وسكتوا عن المفاصد وشجعوها بين العرب، وطنشوا حقوق الشعب الفلسطيني. وكون القضية الفلسطينية ساطعة كالشمس يريدون إبهاتها؛ لتبقى مثل قضية الهنود الحمر والأندلسيين. في المحافل الدولية يؤيدون القرارات شبه المنصفة للفلسطينيين، ولكن كونها تنتقص من مكاسب إسرائيل تراهم يسكتون عن تطبيقها ويقبلون أي أعذار يهودية. هكذا تتناقص مساحة فلسطين وتهدر حقوق الفلسطينيين بسرعات تفوق ما حدث لأي شعب في أي حالة استعمارية أخرى على الرغم من أن كل ما هو معلن ومؤكد من بقايا الحقوق الفلسطينية. يسلحون إسرائيل التي تواصل الاحتلال، والقهر والتنكر للقانون الدولي ويدعمونها .. وكلما تقبل الفلسطيني تنازلاً لصالح السلام

تراهم يطالبون بالمزيد، والغرب المسيحي يقفل أذنيه وعينه .. لأن هدفهم واضح ومعلن.

كل الهدنات والمعاهدات والاتفاقيات السلمية والوعود التي قدمها ملوك النصارى في الأندلس للمسلمين تم إلغاؤها واستباحتها، والتَّنكُّر لها كلما أُتيحت الفرصة، وظهر فارق القوة، بالرغم من التزام الممالك الأندلسية الإسلامية بالاتفاقيات إلى درجة مشاركتهم عسكرياً في الغزوات النصرانية ضد ممالك إسلامية مجاورة، حتى جاء الدور على الثور الأسود. والمستَهجنُ أن قيادات الدول العربية الآن تريد إقناع ذاتها وشعوبها برغبة، أو على الأقل بإمكانية تقبُّل إسرائيل للسلام، وهي في حالة تفوق وارتكاز للغرب المسيحي.

كانت الحكومات العربية في الفترة بين نهاية العهد العثماني، ونهاية العهود الاستعمارية ترفض ظاهرياً التعاون مع فكرة إقامة وطن لليهود في جزء من فلسطين، ولكنها عملياً تعمل ما يطلب منها لدعم الفكرة، وعندما حان الوقت للمقاومة المسلحة، أو دعم المقاومة الفلسطينية منذ الثلاثينات، تخلف الحكام وجيوشهم، ومن شارك منهم كان اداؤه سلبياً تماماً. طالبوا الشعب الفلسطيني بالهدوء معتمدين على وعود الصديقة بريطانيا (هههههه)، ومنعوا وصول السلاح للمقاومين الفلسطينيين، ومنعوا وصول مقاومين ومتطوعين عرب، وحجبوا السلاح، وحين أرسلوه تحت الضغط الشعبي ثبت أنه سلاح فاسد. وحين قرروا الدخول عسكرياً في فلسطين أعطوا أوامر لقواتهم بعدم

تجاوز مناطق معينه، ورفضوا التقدم في مناطق كانت خالية من العصابات الصهيونية، وهم أصلاً لم يتدخلوا إلا بعد خروج بريطانيا التي مكنت الصهاينة من مفاصل البلاد.

حكومات فترة الاستقلال أكثر الحديث عن التحرير، ولم تنجز الاستقلال الذاتي الحقيقي، واستغلت شعارات فلسطين وتحريرها؛ لاسكات شعوبها .. ثم احتمت بالأقاويل الجماعية تحت رؤية الجامعة العربية ومؤتمرات القمة وقراراتها، ومطالب الوحدة للتحرير، بينما فشلت فعلياً في أي إنجاز داخلي يعادل أو يجاري الإنجازات للكيان الصهيوني. قفزت إسرائيل بسرعة صاروخية عسكرياً، وبدعم نصراني أوصلهم السلاح، ومكنهم من صناعة القنابل النووية، وحمايتهم بالاشتراك في الغزوات ضد العرب، وتدمير غربي لأي دولة عربية تتقدم في التصنيع الحربي الذي قد يُعرضُ إسرائيل للخطر .. القصة معروفة لكن المستهجنُ أنه طوال فترة الاستقلال وحتى الآن هناك من يظنُّ باستعداد إسرائيل للسلام، والاكتفاء بأغلبية مساحة فلسطين.

لقد رفضت العصابات الصهيونية في فلسطين قبل 1948 كل مقترحات الحلول (السلمية)، ولكنها تقبّلت بالهدنات عندما تجد ذاتها ضعيفة أمام الفلسطينيين، لتعود مَعَززة بالقوة الغربية من رجال ومال وسلاح وتُخل بالهدنة. رفضوا الكتب والمشاريع البريطانية الظاهرية للحل، وبعدها رحل الإنجليز أرسلت الأمم المتحدة لجناً لبحث الأمر، وقاد أحدها الكونت (برنادوت) الذي تقدّم بمشروع حل، ولكن

العصابات الصهيونية قتلته في فلسطين، وأنهت الحديث عن حلول. عندما قرّرت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين أعلن الصهاينة دولتهم باعتراف من القوى العظمى المسيحية ومن في فلكنهم، ثم شنوا الحرب التي انتهت باحتلال جزء إضافي عما تقرّر في الأمم المتحدة. كانت الحكومة المصرية الملكية قد قررت الدخول للحرب قبل يومين من موعدها، ولم تكن مستعدة نفسياً أو تسليحياً، وكان الجيش الأردني تحت قيادة وأوامر بريطانية مباشرة، وكذلك العراق وسوريه ولبنان كانت في أوضاع مهلهلة وتحت أوامر أجنبية لدول متعاطفة مع الصهيونية، وقرّرت دعمها عملياً؛ لإنجاز كيانه.

في الفترة بين 1948 وحرب الأيام الستة عام 1967 رفضت إسرائيل كل مشاريع الحلول التي تطالبها بالعودة إلى قرار التقسيم وإعادة اللاجئين للجزء المقرر لليهود أو تعويضهم. القيادات العربية كانت تتصوّر بإمكانية السلام مع الصهاينة، وتنازلهم عن غاياتهم، لكن معظم هذه القيادات كانت تجاري الشارع العربي الرفض للاستسلام والمطالب بتحرير فلسطين. في العلى 1960 طالب ولي عهد المغرب بضم إسرائيل للجامعة العربية كمقدمة للحل .. وفي 1965 ذاع صيت اقتراح الحبيب بورقيبة للاعتراف العربي بإسرائيل مقابل تراجعها إلى حدود التقسيم، وعودة أو تعويض اللاجئين. كان ذلك ارهاصات التطبيع النفسى ودعوة التقبل بالاحتلال.

بالرغم من كون مشروع بورقية خيالي بالنسبة لإسرائيل إلا أنها
أنتظرت ردود الفعل العربية الرسمية والشعبية التي رفضت الفكرة
وخوّت بورقية .. ثم ردت إسرائيل بترحيبها بفكرة الاعتراف العربي
بها واستعدادها؛ للمساهمة في توطين اللاجئين حيث هم. كان العرب
الرسميون وخلفهم الشارع العربي يريدون تحرير كل فلسطين، وبعد
عامين حدث تغيير جديد على الأرض باحتلال إسرائيل لبقية فلسطين
وشبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان، فانشغل العرب الرسميون بإعادة
الوضع لما كان عليه قبل النكسة، وهذا ما رفضته إسرائيل عملاً
بشعاراتها أن الحدود حيث تصل الدبابات، وسعيًا لهدفها المعلن من قبل
(هرتزل) أواخر القرن التاسع عشر، والمتفق عليه بين (روتشيلد)
والإنجليز الذين كتبوا وعد (بلفور) بدون حدود.

هذا التطور بتوسع الاحتلال الإسرائيلي وشموله عدة دول عربية
جاء أيضاً بطلب من دول عربية صديقة لواشنطن، ومعارضة للرئيس
المصري عبد الناصر، وتريد كسر شوكتة وإضعاف جيشه، وهذا ما كان
.. أتذكرون قصة الأندلس؟! بعد ذلك بدأت المطالب والأفعال
الرسمية؛ للتعامل مع إسرائيل، والتوصل للسلام على حساب تراجع
كل نظام مسالم لموقفه عن القضية الفلسطينية ومطالباً بالحلول السلمية،
وعودة اللاجئين، أو توطينهم وتعويضهم أو إقامة دولة فلسطينية على
أراضي الضفة والقطاع، ثم حدث التراجع عن هذه المنطقة الجغرافية
ضمن اتفاقيات (أوسلو) التي وقعت قيادات فلسطينية هذه المرة. كل
ذلك وإسرائيل تتملص من الانهزام العربي القائم على مبدأ خذ ما

يمكنك أخذه الآن .. فإسرائيل هي ملك الأخذ، ولكن بالقوة، وخلق الذرائع التي يتقبلها الغرب؛ للابتعاد عن تنفيذ أي خطة سلام أو اتفاقية.

واشنطن؛ وكأنها سيدة العالم والبشر، منحت القدس كعاصمة لإسرائيل، وقبلها الجولان، وتراجعت في عهد (ترامب) عن مبدأ إقامة دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل وغضت البصر عن التوسع الجغرافي الإسرائيلي، ولا يوجد في الغرب من يؤنب إسرائيل على سياستها العنصرية على أمل أن تحقق غاياتها بسرعة على حساب الشعب الفلسطيني والأرض العربية من النيل إلى الفرات، وقهر الإسلام وتشويهه. كل ما حدث بعد احتلال العراق والربيع العربي الذي تحول لربيع عبري خرب سوريا وليبيا نهائياً، ودمر اليمن وأفقر دول المغرب العربي، وأسفر أخيراً عن تطبيع عربي للدول التي لم تتأثر بالربيع مع إسرائيل. وقريباً ستعقد اتفاقيات الدفاع المشترك أو الحماية الإسرائيلية لدول الخليج ضد إيران.

الاقتتال الإسلامي السني الشيعي بعد دمار العراق، وخراب الدول في شرق المتوسط وجنوبه هو هدف يهودي صليبي على طريق تدمير العرب والإسلام في عُقر داره، ويتطلع الآن لتدمير إيران. أي تطبيع أو سلام عربي مع إسرائيل هو أنحياز ضد الذات العربية والإسلامية إلى الصف الغربي واضح الأهداف، وهو أشبه ما يكون بتجربة دول الطوائف الأندلسية، لكنه يحدث بوتيرة سريعة جداً.

ثورات ومؤامرات

حين خرج العرب من شبه الجزيرة غازين وفاتحين لما حولهم من الجغرافيا، ناشرين الإسلام حديث العهد، لم تكن الديموغرافيا حيث وصلوا متشابهة مع خصائص سكان أهل الجزيرة الذين خرجوا للتو من الجاهلية. ما يُعرف ببلاد العراق الآن، أول المناطق المغزّية، كانت شبه دول نصرانية مرتبطة وتابعة للعدّوين المتحاربين الفارسي والبيزنطي، وكانت بلاد الشام التالية في الغزو، بيزنطية مسيحية آرامية اللغة، وقبل ذلك رومانية وإغريقية. بلاد فارس كانت الحضارة المنافسة لبيزنطة منذ قرون، وهي ذات سكان ولغة وأصول لا يمتّون بصلة لعرب الجزيرة. ثالث الدول التي وصلها الغزو في الغرب، وصارت لاحقاً عربية، كانت مصر البيزنطية الانتماء، قبطية الديانة واللغة، وهذا ما كانت عليه بقية أمم حوض البحر المتوسط. ففي شمال البحر دولٌ نصرانية بلهجات متعددة أساسها اللاتينية، وفي جنوبه أمم تابعة لبيزنطة بالقرب من الشواطئ، أو لحكام محليين في الريف والصحراء، ولكنهم لم يكونوا عرباً يتحدثون العربية، بل لغات ولهجات محلية ومازال بعضها يستعمل إلى الآن مثل؛ الأمازيغية.

الأندلس هي الأخرى كانت تابعة للقوط، وهم من الفصائل الجرمانية، وديانتهم نصرانية، وكانوا قد استولوا على الأندلس منذ القرن الميلادي الخامس، واستقلوا بها عن بيزنطة، ولم يكن بها أي عرب هي الأخرى قبل فتحها، وانطبق عليها ما حدث في بقية الجغرافيا التي

فتحها العرب المسلمون، مثل بلاد الفرس في الشرق، وما خلفها لاحقاً حتى الصين. العنصر المشترك بين هذه المناطق هو أسلمتها، أو دفع الجزية، وبالتالي وجدت فوارق اضافية بين فئات السكان. الحكام والسادة هم العرب، يليهم في المركز والمقام الذين أسلموا من السكان المحليين وأتقنوا العربية بسرعة (لغة الدين الإسلامي الجديد معتمدة على القرآن)، وبعدهم الذين أسلموا، ولم يتحدثوا العربية، ثم الذين بقوا على معتقدتهم ودفعوا الجزية.

بالنسبة للأندلس أطلق تعريف (المولدون) على السكان المحليين الذين أسلموا وعلى سلاتهم من بعدهم، (أطلق الإسبان النصاري عليهم اسم الخوارج)، وأطلق اسم (المستعربون) على الذين احتفظوا بديانتهم، ودفعوا الجزية. الفتتان أنخرطتا في الحياة الجديدة مع العرب، ومع البربر الذين كان لهما الأولوية في السيادة. من الطبيعي أن الرفض المحلي للغزاة لم يذب تماماً خصوصاً مع اختلاف الطبائع والعادات والديانة واللغة، وتنامي الفوارق بين من يأخذ من الخيرات دون أي عمل، وغيره الذي يعمل ويدفع معظم دخله وإنتاجه. هكذا وبعيداً عن النظرة الرومانسية، فإن تاريخ الأندلس الإسلامية لم يخل من الاحتجاج والثورات منذ بدايه الفتح. كانت هناك خلافات بين العرب وأنفسهم على الحكم منذ البدايه، وبينهم وبين البربر الذين انضموا للقوات في المغرب وعبروا فاتحين للأندلس، وبين كلاهما والمولدين والمستعربين، وهو الصراع الذي امتد حتى استعاد الإسبان البلاد.

المقاومة في بقية المناطق التي فتحها العرب شهدت ظروفًا مشابهة مع فارق أن نهاية حكم العرب هناك لم تمثل نهاية الإسلام كما هو حال الأندلس التي خُلع منها العرب والبربر والإسلام نهائياً بالقوة والتعذيب. لم تكن هذه النتيجة غريبة أو غير متوقعة، فالعرب اقتتلوا في سبيل السلطة منذ اليوم الأول على وفاة الرسول، واغتالوا الخلفاء الصحابة، وأبادوا نصف جيوشهم في الصراع السياسي قبل مرور ثلاثين عاماً على وفاة الرسول محمد مؤسس الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة. موقعنا الجمل وصِفَيْن كانتا بين صحابة الرسول، وسببهما المباشر هو الخلاف على السلطة والحكم، وبالتالي على المال والخيرات.

في كل المناطق التي فتحها العرب تشكلت خلافات في اطار الحكم، ومفاضلة بين الغازي والمحلي. هذا الحال تغير ظاهرياً مع مرور الزمن؛ اذ تم الترويج لمقولة الأخوة في الإسلام التي طبقت بين عرب الجزيرة في عهد الرسول وتصديقها. لكن الوضع في البلاد التي فتحت بالقوة كان مختلفاً كون الفئات الإسلامية الحاكمة، وما يدور في فلكها حافظت على التمييز في استمرار المُلْك والتملك لها. هكذا أصبح غالبية السكان ينسبون السوء للحاكم والحاشية، ويستبعدون الدين كسبب لمعاناتهم، لكن النتيجة بقيت واحدة بفرض فئة بذاتها على فئات أخرى. الثورات في الأندلس ضد الحكم العربي الإسلامي آنذاك لا تختلف في مسبباتها عن الثورات والرفض الحالي في الدول العربية والإسلامية، ولكننا الآن لا زلنا وبدرجة كبيرة نستبعد العامل الديني كسبب لفساد الحكم الذي يحكم باسم الدين، ولديه شيوخته. بمعنى آخر

هضم السكان الدين، وتعودوا عليه واستنصروا به، وهكذا فعل الحُكام من دون أحداث أي تغيير في السيطرة والاستفادة، وتسخير الفساد وسوء التوزيع، والقهر لمن يخالف الحاكم، أو ينتقد الوضع الاجتماعي.

تسمى بدايه العصر الإسلامي الأولى في الأندلس بفترة الولاة، ثم الثانية بالإمارة، ويليهما فترة الخلافة التي تبعها التحلل إلى دول الطوائف وما تلاها من زوال وإبادة. فترة الولاة؛ بدأت بعد استرجاع الخليفة في دمشق لكل من موسى بن نصير وطارق بن زياد، وتولي عبد العزيز بن موسى حكم الأندلس من مقره في إشبيلية. وحين ذهب موسى للحج مع الخليفة أوعز هذا بقطع رأس الوالي عبد العزيز، وجلبه لوالده. غالبية الولاة بعد ذلك ماتوا قتلاً واغتيالاً، وكان الغزو الإسلامي لا زال مستمراً في الشمال الإسباني في تلك الفترة، والمقاومة متواصلة في الجنوب حيث حدثت عدة مواجهات مع بقايا جند القوط.

خلال عصر الإمارة (138هـ-316هـ/756م-929م) بدأ بوصول عبد الرحمن الداخل إلى قرطبة، وهو الأمير الذي هرب من مذابح أبناء عمومته العباسيين للأمويين، ودخوله الأندلس بدعم من أخواله المغاربة كون والدته كانت من المسييات للشام أيام موسى بن نصير وتزوجها أمير أموي. خلال هذا العصر ضبط عبد الرحمن الداخل الوضع بالقوة والحزم، واضطر إلى قتل الكثير ممن نافسوه على الإمارة، وهدر الكثير من الوقت والجهد في التصدي للانفصاليين من الولاة السابقين وأبنائهم، والذين تحالف بعضهم مع الإسبان، أو مع الخلفاء

العباسيين. الثورات التي سببتها المنافسة على الحكم والمال والسيطرة كانت في معظمها عربية إسلامية المصدر، والأسباب في عهد الدّاخل، وأُضيفَ لها ثورات من المولدين في عهود أبنائه وأحفاده.

فيما يلي موجز للثورات والانقلابات والمؤامرات في عهد عبد الرحمن الداخل مؤسس الإمارة، ولاحقاً عبر أحفاده، في خلافة الأندلس (حفيده العاشر)، وذلك فقط؛ لتبيان بقية الأحداث المشابهة من انفلات ومحاولات ضبط:

في أواخر عام 143 للهجرة، ثار القاسم بن يوسف بن عبد الرحمن الفهريّ وحليف أبيه رزق بن النّعمان العسّانيّ في الجزيرة الخضراء على الأمير عبد الرحمن، الذي وجّه إليهما من هزمهما، وفر القاسم وقتل العسّاني. القاسم هذا حفيد الفهري، أحد الولاة الذين تصدّوا للإسبان في بدايات الفتح، وابن آخر الولاة. ثم ثار هشام بن عروة الفهري الذي كان والياً لمدينة طليطلة في وسط الأندلس، فسار إليه عبد الرحمن من قرطبة وشدد عليه الحصار حتى اضطرّ إلى طلب الصلح مقابل أخذ ابنه كرهينة عند عبد الرحمن. وعلى الرغم من رهن ولده عاد هشام إلى نقض العهد، فغزاه عبد الرحمن الداخل في العام التالي، وشدد الحصار عليه ودعاه إلى الرجوع فلم يستجب له. فلما يؤس الأمير منه أمر بضرب عنق الرهينة ابن هشام، وقذف الرأس بالمنجنيق إلى وسط المدينة.

عاد الداخل عن طليطلة؛ لانشغاله بثورة جديدة قادها العلاء بن مغيث اليحصبي الذي ثار عام 146 هـ في مدينة باجة بعد أن راسل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الذي كان يطمع في استعادة الأندلس من الأمويين، واستطاع أن يجمع حوله الناس والجنود من أنصار الدولة العباسية، فاستولى على مدينة شذونة، حيث أرسل له الداخل جيشاً بقيادة مولاه بدر، فسيطر على المدينة، فتحرك العلاء بجيشه إلى إشبيلية ودخلها. خرج عبد الرحمن من قرطبة في جميع قواته إلى قرمونة القريبة وتحصن بها ومعه ثقات مواليه وخاصته، فسار إليه العلاء وحاصره بها مدة شهرين، عندئذ خرج عبد الرحمن في 700 من رجاله؛ ليرد الهجوم بعد أن خارت قوى جيش العلاء، وخطب الداخل في رجاله وطالبهم بالخروج وكأنهم لن يعودوا، وسحب سيفه ورمى الغمد، ففعلوا مثله وهجموا على قوات العلاء من فوق فهزموهم وقُتل العلاء. أمر عبد الرحمن بحجز رأس العلاء، ورؤوس أشرف أصحابه، ووضعت فيها صكوك بأسمائهم، وحُمِلوا بعضهم إلى أسواق القيروان ليلاً، والبعض الآخر وفيهم رأس العلاء إلى مكة مع بعض التجار الثقات، ومعه الرسالة واللواء الذي أرسله المنصور إلى العلاء، فوضعوه أمام سرادق المنصور الذي كان يحج ذلك العام. فلما رأى المنصور رأس العلاء انزعج، وقال قولاً أصبح مأثوراً: الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان بجزراً.

ثم بعث عبد الرحمن مولاه بدرأً وتماً بن علقمة عام 147 للهجرة في جيش كثيف إلى طليطلة، فحاصروا هشاماً بن عروة الفهري

حصاراً شديداً، ومنعا الطعام عن أهل طليطلة، حتى ضج أهل المدينة من الحصار واستثقلوا الحرب، وكاتبوا تماماً وبدراً وسألوهما الأمان مقابل تسليم ابن عروة وبعض قاداته لهما، فقبلا ذلك وحملوهم إلى قرطبة حيث حلقت رؤوسهم ولحاهم وألبسوا جبباً صوفية، وحملوا على الحمير. دخلوا قرطبة على تلك الحال حيث أمر عبد الرحمن بقتلهم؛ ليعلن بذلك نهاية تمرد ابن عروة الفهري.

في عام 149 للهجرة، ثار على الأمير الداخل سعيد اليحصبي في مدينة لبلة، وسار إليه عبد الرحمن بنفسه وأحمد ثورته، ومن بعده في العام نفسه ثار أبو الصباح اليحصبي الذي نقم على الأمير عبد الرحمن؛ لعزله عن ولاية إشبيلية، وهو الذي كان له عوناً وجمع له اليمانية يوم وقعة المصارة. لجأ الداخل معه إلى الحيلة، فبعث إليه عبد الله بن خالد يؤمنه. فلما دخلا قرطبة، أمر عبد الرحمن بقتل أبي الصباح. منذئذ، لزم عبد الله بن خالد داره حتى مات لمرارة في نفسه من خداع عبد الرحمن له، واستعماله في استدراج أبي الصباح وقتله غيلةً.

في عام 153، ثار البربر بزعامة رجل يقال له شقيا بن عبد الواحد المكناسي، كان مُعلماً للصبيان، ثم ادعى بأنه فاطمي، فقتل عامل الأمير على مدينة ماردة واستولى على مدينة قورية، فسار إليه عبد الرحمن وفر منه الفاطمي إلى الجبال، ولم يتمكن منه لسنوات. بعد ذلك جاءت رُسُل للأمير الداخل من مولاه بدر بثورة اليمانية بقيادة عبد الغافر اليحصبي، وحيوة بن ملاس الحضرمي. فسير إليهم الداخل

جيشًا هزمهم، وقتل حيوة، وفرّ عبد الغافر عبر البحر، وكان اليمانية يطالبون بالمزيد من المزايا، وأحياناً بالإمارة. تلا ذلك محاولة ابن أخيه، ابن أخي الداخل، عبيد الله بن أبان بن معاوية وبعض معاونيه في الانقلاب في قرطبة، بينما الأمير متنزه خارجها، فراسله مولاه بدر بالخبر، وتمكن من القبض عليهم قبل عودة عبد الرحمن الذي أمر بضرب أعناقهم.

ثمّ وجّه الداخل عام 160 قوة بقيادة تمام بن علقمة، وأبي عثمان لقتال الفارّ الفاطمي، واقتتلا وهزماه الفاطمي، إلا أن رجلين من أصحابه تأمرا عليه وقتلاه بعد ذلك، لتنتهي ثورته. في عام 161، نزل عبد الرحمن بن حبيب الصقلّي بجيشه على ساحل مدينة تدمير، فسارع الداخل بمهاجمة ابن حبيب، فاستغاث هذا بوالي (برشلونة) سليمان الأعرابي، ولكن سليمان لم ينجده. وبذلك استطاع عبد الرحمن أن يهزم ابن حبيب ويحرق سفنه عند ساحل تدمير، ففرّ الصقلّي إلى كورة بلنسية، حيث اغتاله رجل من البربر طمعاً في عطية من الأمير الداخل.

بالإضافة للثورات والانقلابات الداخلية أو المدعمة من بغداد العباسية، أخذ الانقلابيون يستعينون بالفرنجية. ثار سليمان الأعرابي حاكم برشلونة، ومعه الحسين بن يحيى الأنصاري زعيم سرقسطة على الأمير عبد الرحمن الداخل، فأرسل جيشًا بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي، فهزم الثوار جيش الداخل، وأسروا قائدة ثعلبة، وأرسلوا إلى (شارلمان) ملك الفرنجة المعروف في المراجع العربية باسم قارلة، يدعوه للتحالف

معهم. فعبر الملك الإفرنجي بجيشه جبال البرانس، وأغار على البشكنس (الباسك) في بنبلونة. ثم طمع الملك في سرقسطة، فسار إليها، فاستقبله الأعرابي، إلا أن الحسين بن يحيى، وأهل المدينة أبوا إلا أن يقاوموه، ولم يسلموا له. حاصر الملك (شارلمان) المدينة، لكنه لم يقدر على فتحها، فرجع إلى بلده وأخذ الأعرابي معه أسيراً لأنه ورّطه في ذلك الأمر، وفي طريق عودته، دبر ابنا الأسير سليمان وحلفاؤهما من البشكنس كميناً دمروا به مؤخرة جيش (شارلمان) في معركة باب الشري، واستطاعوا تحرير سليمان الأعرابي، والفرار به، إلا أن الحسين بن يحيى ما لبث أن ترصد للأعرابي وقتله بعد ذلك بفترة قصيرة.

سار الداخل بجيشه إلى سرقسطة عام 165 لفرض هيبة الإمارة في قرطبة على كل الأندلس، فحاصرها وشدّد عليها الحصار، فضاق أهلها من الحصار. ففاوض الحسين بن يحيى، وهو يومئذ قائدهم، فك عبد الرحمن الداخل الحصار على أن يأخذ ابنه سعيداً رهناً، فقبل الداخل، إلا أن سعيداً هرب بعد يوم واحد فقط من الارتهان، فعاد الحسين في سرقسطة إلى الثورة، فحاصره جيش الداخل مجدداً، إلى أن ملّ أهل المدينة الحصار، وسلموا الحسين إلى الداخل فقتله، وقفل راجعاً إلى قرطبة.

قبل ذلك وفي عام 164، ثار الماحس بن عبد العزيز الكناني، والي مدينة الجزيرة، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه. فلما اقترب جيش عبد الرحمن، فر الماحس بأهله عبر البحر، ولجأ إلى أبي جعفر المنصور،

وفي عام 168، بلغ عبد الرحمن الداخل تآمر ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية، وهذيل بن الصميل بن حاتم به ليخلعوه، فأمر بهم فاعتقلوا، ثم قتلهم، وسخط بسبب ذلك على أخيه الوليد بن معاوية، فنفاه هو وبقية بنيهِ إلى المغرب. ثم ثار عليه أبو الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري عام 169 في قسطلونة، فخرج إليه الداخل وقاتله وهزمه، وقتل أربعة آلاف من أصحاب أبي الأسود الذي فر. في عام 170، خرج الداخل لإخماد ثورة بربر نفزة، وكانت هذه هي آخر غزواته؛ إذ توفي عام 172 للهجرة.

انتقلت الخلافات على السلطة إلى أبناء عبد الرحمن الداخل بعد وفاته، وهم أحد عشر ولداً، وتسع بنات أكبرهم سليمان الذي ولاه أبوه على طليطلة، وثانيهم هشام الذي تولى مدينة ماردة. كان سليمان من مواليد دمشق، ولم يتمكن والده من حمله وبقية الأسرة حين هرب إلى المغرب، لكن سليمان والعائلة لحقوا بالوالد في الأندلس. أما هشام فهو من مواليد قرطبة ابن لإسبانية أصبحت ام ولد، وكان الداخل يميل إلى هشام، ويقال أنه أوصى له بالإمارة، كما يقال إنه أرسل لولديه بالحضور وهو على فراش الموت وقال من يصل منهم أولاً يصبح الأمير، وكان هذا هشام. لم يتقبل سليمان الأمر ودعا لنفسه بالإمارة في طليطلة والتحق به أخ آخر هو عبد الله.

بعث هشام بجيش إلى طليطلة ضد أخويه ومن حولهما، وهزمهما ففر سليمان إلى كورة تدمير، بينما عاد عبد الله إلى قرطبة طالباً العفو من

هشام، فغفا عنه. ثم بعث هشام بجيش بقيادة ولده معاوية لمطاردة أخيه سليمان، فإضطر سليمان لطلب العفو والأمان، فأجابه هشام إلى ذلك على أن يعبر ببنيه إلى المغرب، ثم لحق به عبد الله لينتهي بذلك تمرد سليمان عام 174 ظاهرياً. لكن في عام 181، استغل سليمان وأخوه عبد الله وفاة أخيهما هشام، وتولّى ابنه الحكم للسلطة، فتسللا إلى الأندلس، وتواصلا مع الثائرين في الشمال، واستطاع سليمان جمع جموع ليحارب بها الحكم، ابن أخيه، وانضم إليه أخوه عبد الله مجدداً، فأرسل لهما الحكم حملات هزمتها في مدن إستجة وحيان وإلبيرة، بين عامي 182-184، وأسر سليمان وجيء به إلى قرطبة، فأمر الحكم بقتل عمه عام 184.

إن مراجعة تاريخ الأندلس منذ البدايه حتى الذوبان ليس فريداً، ومثل هذه الأحداث من التكالب على السلطة والمال، وُجدت في كل الأقطار العربية والإسلامية حتى عصرنا الحاضر. في القرن التاسع عشر والعشرين ذبح الإخوة بعضهم بالخناجر؛ لتولي السلطة، وتآمروا مع الأجنبي البريطاني والتركي؛ لنيل الدعم والحماية ضد زعماء قبائل منافسين وإخوة وأبناء عمومة، فعلوا مثل هذه الأحداث الأندلسية، وذلك ليس سراً، بل مخطوط في كتب من عاصروا، وشاركوا في تلك الأحداث .. ولا زالت الخيانات للعائلة والقبيلة والشعب والدين والجيران على قدم وساق؛ سعياً لتثبيت الحكم الفردي أو الفئوي، ولا زال في البلد الواحد غالب ومغلوب، متتفع وخاسر، قابض ودافع، فاسد وجائع على غير حق.

مذابح للمتمردين

الحكمُ بن هشام بن الداخل هو ثالثُ أمراء الأندلس، وقد عانت البلاد في زمانه كل أنواع التمرد والثورات من الأخوة والأقارب، وبشكل أوسع من المولدين الذين شعروا بالغبن نتيجة دفع الضرائب بينما هم من كان يفلاح ويصنع ويُحرك الاقتصاد لصالح المتكاليين على السلطة والثروة .. وهذا ما يشبه أحوال الأقطار العربية الآن حيث تتمركز السلطة والمال في أيدي فئات قليلة على حساب الأغلبية وبفضل عمل ملايين الوافدين. في عام 189 للهجرة تسرّبت إلى الأمير الحكم أخبار مؤامرة يدبرها بعض فقهاء قرطبة وأقطابها - أمثال عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى الليثي ويحيى بن مضر القيسي - الساخطين على سلوك الأمير الحكم تجاه بعض أقاربه، فأمر بالقبض عليهم، وأعدم 72 رجلاً منهم يحيى بن مضر القيسي وعمّه أُميّة وكليب ابْنَيْ عبد الرحمن الداخل، وفر يحيى الليثي وعيسى بن دينار .

في عام 190 للهجرة، ثار البربر في مدينة ماردة، وهم من أحفاد الفاتحين للأندلس والذين استقروا فيها، فسار إليهم الحكم بنفسه، إلا أنه ارتد سريعاً بعد أن بلغته أنباء تمرد في بعض ضواحي قرطبة. أسكن التمرد في العاصمة وظل البربر في ماردة على تمردهم يهزمون حملاته المتوالية إلى أن أخضعهم عام 197 . قبل ذلك وفي عام 191، رتب الحكم بالتنسيق مع عمرو بن يوسف -واليه على طليطلة- وليمة

لوجوه المدينة الذين عرف إنهم كانوا ينزعون للثورة ضده ويتآمرون على حكمه، ثم دبرا للمدعوين مذبحاً أودت بحياة المئات منهم .

في 13 رمضان 202، قام أهل قرطبة -خاصة سكان حي الربرض الجنوبي - بثورة عظيمة ضد الحكم بن هشام، نتيجة لتراكمات متتالية منها زيادة الضرائب، وقيام الأمير الحكم بقتل عشرة من رؤوس المدينة وصلبهم، ثم قيام مملوك للأمير بقتل أحد أهل المدينة لأنه طالبه بثمن صقل سيفه، فهاج أهل قرطبة وفي مقدمتهم المولدين الذين يقطنون الربرض (الحي) الجنوبي لقرطبة على الجهة المقابلة للقنطرة ولقصر الأمير. توجهوا عبر القنطرة الشهيرة نحو القصر لإسقاط الحكم بن هشام، فقاومهم الحكم بكل ما أوتي من قوة ومكر. فبينما هم يتحركون في قرطبة أمر الحكم اتباعه من خارج المدينة مهاجمة الربرض الجنوبي الفارغ من الرجال، ونكلوا في النساء والأطفال فترك الرجال قرطبة وارتدوا لحماية بيوتهم ومتاجرهم. لم تنته الثورة إلا بعد ثلاثة أيام أفنى فيها عدداً كبيراً من الثائرين، ثم أمر الحكم بصلب ثلاثمائة من الثوار وهدم الربرض الجنوبي بأكمله وتشريد أهله خارج قرطبة، حيث تفرقوا بين المدن الأندلسية وهاجر بعضهم إلى المغرب والإسكندرية، (لنلاحظ التشابه أيضاً بين الامس واليوم في التدمير المؤدي إلى التشريد والهجرة داخل وخارج البلاد) وقد عرفت تلك الأحداث بوقعة الربرض، وإليها يرجع تلقيب الحكم بن هشام بـ الحكم الربرضي، إلا أن عصره شهد فقدان بعض المدن الأندلسية للفرنجية، ومنها جرندة وبرشلونة، فكانتا

النواة التي تكونت منها كونتية (دويلة) برشلونة النصرانية في شرق الأندلس.

شكل المولدون والمستعربون نسبة كبيرة من المجتمع الأندلسي، بل كانوا الأغلبية وساهموا في الحياة بثتى أنواعها، وكان منهم الصناع والعمال والفنيون والمزارعون، بينما شكل العرب طبقة المحاربين (المقتتلين مع بعضهم البعض) السادة والحكام، وتلاههم في الحياة الاتكالية البربر الذين أحدثوا عدة ثورات من أجل المساواة مع العرب، وكانت ثورتهم الأخيرة في قرطبة سبباً رئيساً في إعلان نهاية عهد الخلافة والدخول في عهد دول الطوائف منذ عام 422 للهجرة، إذ نهبوا مدينة الزهراء مقر الخلافة وأحرقوها، وهاجموا قرطبة المجاورة وروعوا أهلها، ولم يبق للأمويين قائمة بعد ذلك.

بدورها كانت طبقة المولدين تهدف إلى الانفصال عن السلطة المركزية في قرطبة، ونتيجة لذلك فقد دخل المولدون في صراع مرير ضد الأمويين وأنصارهم من أجل الاستقلال مما أدى إلى استنزاف طاقة الدولة. من خلال هذه الثورات المتلاحقة استطاعوا تكوين دويلات شبه مستقلة عن مركزية قرطبة ومرتبطة اقتصادياً وروحياً مع الدول النصرانية المحيطة.

كان لثورات المولدين بعداً خطيراً كاد أن ينسف حكم بني أمية في الأندلس مبكراً لولا أن تولى زمامها الخليفة عبدالرحمن الناصر، وهو الحفيد الثامن للأمير عبد الرحمن الداخل، الذي استطاع أن يكف جماح

الثورات ويؤسس خلافة إسلامية أموية كانت الثالثة إلى جانب خلافة الفاطميين (شيعية إسماعيلية) في شمال أفريقيا، والخلافة العباسية في بغداد. اليوم في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، أي بعد ألف عام من عصر الخلافة الثلاثية، يعيش العرب والمسلمون في ظل عدة قوى تتنازع، عبر الحرب والتآمر والدعاية، على قيادة الإسلام السني والشيعة. تركيا تريد استخلاف الخلافة العثمانية، والسعودية تريد قيادة الإسلام السني من دون إعلان خلافة حتى لا تتكلف بالمسؤولية المرتبطة بدولة خلافة موحدة خصوصاً مع الفارق في الدخل بينها وبين الدول العربية والإسلامية الفقيرة، بينما إيران لا تدخر وسعاً للهيمنة على الدول العربية ذات الفئات الشيعية مثل العراق والبحرين ولبنان واليمن وسوريا، أو التأثير القيادي على الدول الأخرى عبر دعمها والتحالف مع قضاياها. هذه الصراعات تنتج الآن حروباً ودماراً في عدة دول ومؤهلة لتدمير البقية بعد أن دخلت الدول العربية الإسلامية الغنية في تحالف مع إسرائيل ضد إيران، وتبعتها دولٌ فقيرة لليهود طمعاً في استرضاء أمريكا ومساعدتها .. ما أشبه اليوم بقبل ألف عام!

أوجه التشابه أشمل مما يبدو للوهلة الأولى، فالأسباب التي أدت إلى ثورات المولدين لا زالت قائمة في الدول العربية. التفريق بين السيد والعامل، المنتج والمستهلك، المفلس والمُدخِر للمال، رجال السلطة بفسادهم ومحسوبيتهم وفشلهم الإداري في مقابل الحكوميين المنساقين، الظالم الجلاد السجناء مقابل المظلوم المجلود المسجون .. في كل هذه المقارنات تجد العربي، أو بالاحرى الأعرابي هو المستفيد، والفلاح

والعامل هو المستغل الفقير. هذا الحال يتجلى في دول الخليج تماماً كما كان في الأندلس مع فارق أن الفئات المنتجة وافدة وليست أصلية من البلاد كما في حالة المولدين الذين أصلهم نصارى وأسلموا واكتشفوا أنهم في أدنى الطبقات. حتى في الدول غير الخليجية النفطية تجد التركيبة ذاتها سواء أكان بالاصالة أم التقمص. فالسادة يعتبرون أنفسهم من العرب الأقحاح، والحكام لا يتوانون عن الانتساب للرسول ذاته أو على الأقل لقبائل عربية مثل الهلالية أو مئات العائلات التي تصل بنسبها إلى شبه الجزيرة العربية البدوية التي تتغنى بالراحة والأكل والشرب والمتعة من إنتاج الغير وفعلهم، والسعى لوجود الخدم في البيوت والمرترقة في الجيوش والغايات الوافدات والأجنبيات والأدوات المستوردة.

في دولة الإمارات العربية المتحدة النفطية مثلاً نجد أن تعداد السكان الأجانب يفوق المحليين بأكثر من ضعفين، مليونان ونصف مليون إماراتي مقابل ستة ونصف مليون اجنبي من 200 جنسية معظمهم من آسيا يعملون في أجهزة الدولة وفي الخدمة بأنواعها. في المملكة العربية السعودية يتقارب تعداد الخدم ذكوراً وأنثاء مع تعداد الأسر السعودية، أي بمتوسط خادم لكل أسرة، بينما الإنتاج قائم على العمالة الأجنبية سواء في قطاع البناء أم الزراعة أم الصناعة أم النفط طبعاً. ابن البلد يعيش مرفهاً إلى درجة وجود فوارق في أثمان الماء والكهرباء بين السعودي وغيره. دخل المواطنين من المتاجرة في البورصات، وبيع الأراضي الموروثة أو الممنوحة، وبالطبع رواتب دولة

لأشبه دوام يتطلب إثبات الوصول للمكتب، أو الدخل من المتاجرة في جلب العمالة الأجنبية و أخذ البديل للتصريح (نظام الكفيل)، وحصّة من دخل عمل الأجنبي أو مشروعه الإنتاجي.

المقارنة هنا مع الأندلس غير متطابقة تماماً، ففي الأندلس كان العرب يأخذون المال نتيجة للغزو والحرب والجزية، بينما الآن يأخذونه وهم نيام. في الأندلس وجد الخدم المستوردون للبيوت وللدولة ولكن معاملتهم كانت أفضل مما يتعامل بها خدم الخليج، لكن التطابق هنا هو السعي للراحة واللهو والصيد، وتسخير الآخرين للعمل المنتج، مما يدفع للاستنتاج أن العقلية الأعرابية ذاتها، ولم تتغير بالرغم من اختلاف الزمن والظروف.

في دول الخليج لم تحدث ثورات منذ اكتشاف النفط الذي تحكم به الأجانب وحكموا الأمن الداخلي والخارجي، ثم مع زيادة الأموال بدأت أوضاع المواطنين في التحسن، فسكنوا وتقبلوا بالرغم من الفارق في المال والسلطة بين الحاكم والمحكوم. لكن في الدول الإسلامية والعربية الأفقر فلم يتوقف سيل الانتفاضات والثورات والانقلابات بسبب التفاعل والتضارب بين المال والسلطة وبين الفقر، بين الحاكم والمحكوم.

بالعودة للأندلس في عهد أحفاد الأمير الداخل فقد شكل المولدون، وهم سكان البلاد الأصليون الذين أسلموا، شكلوا صعوبات كبيرة أمام السلطة الأموية، نتيجة ميلهم إلى التمرد والعصيان كنتيجة

لتعصب الجنس العربي، باعتبارهم أصحاب السلطة وحماة الإسلام، وتعسف ولاية الدولة مع المولدين في جباية الضرائب، مما جعل هؤلاء يتعصبون ضد العنصر العربي، وهو ما أسفر عن ظهور الشعوبية المولدة في الأندلس. انتهج المولدون أسلوب الثورة والعصيان في أواخر عصر الإمارة، فقد ثاروا في مدن مختلفة، نذكر منها على سبيل المثال: البيرة وطيطة ووشقة وإشبيلية وجيان، مما يكشف عن شعورهم بأن الانتماء للإسلام تحت حكم العرب لم يمنحهم المساواة التي كانوا يتوقعونها، وقد خلقت هذه الصراعات والحروب بين العرب والمولدين تراكمات كبيرة من الحساسيات، إلى حد جعل المولدين في مدينة إستجة يمتنعون عن أداة الصلاة خلف أمام عربي.

يفتخر المسلمون برسولهم، وعلى الرغم من أن سلالة محمد امتدت عبر ابنته فاطمة الزهراء فقط إلا أن المسلمين وحتى الآن استمروا في عقلية وئد الإناث أو تجاهلهن في أشجار النسب، واحترام محدد لمن ينجبن الذكور. في الأندلس سبى المسلمون الإناث ونكحوهن كملك يمين، أو باعوا اللواتي يقعن في نصيبهم من توزيع الغنيمة إثر كل غزوة. الأنثى التي تنجب ولداً كانت تسمى أم ولد وترتقي من طبقة الجواري والاماء إلى مرتبة الإناث الحرائر، ويمكن أن تصبح إحدى الزوجات الأربع شرعياً. لم يجلب العرب لاحقاً، بعد الفتوحات، زوجاتهم، أو بناتهم من شبه الجزيرة العربية، ولم ينظموا رحلات للإناث لزيارة المناطق المفتوحة حديثاً والتعرف على المقاتلين على أمل التزاوج معهم. السبب الأساس كان، ولا زال، نظرة الإسلام المتوافقة

لموقف الأعراب من خاصية الجمال. أحدى المغريات للجنة هن حور العين، ووصفهن، الذي انتشر واشتهر منذ بدايه الإسلام، لا يتطابق مع أوصاف عموم الإناث في شبه الجزيرة، ولو كن الحوريات على شاكلة العربيات آنذاك لما كانت اللجنة مغرية لازواجهن. لكن الإناث اللواتي وجدن في المناطق المفتوحة كن اقرب شبهاً في مخيلة الأعرابي للحور العين.

هكذا تشكلت كتلة من المشاكل المجتمعية المتناقضة في شبه الجزيرة، وأيضاً في البلاد الجديدة، وكان لهذه التطورات نتائج سياسية مأساوية في الأندلس، وكذلك في شبه الجزيرة وهي مأس تواصل تكرارها بوضوح ونرى الآن أشكالاً منها في الخليج حيث ترتفع بسرعة فائقة سنوياً نسب زواج الذكور الخليجيين من الأجنيات إلى درجة وصلت إلى 40٪ من مجموع الزيجات في دولة الإمارات مع نهاية العقد الثاني للقرن الحادي والعشرين. تقرر الإحصائيات أيضاً أن 60٪ من الإماراتيين الذين طلقوا إماراتيات تزوجوا من أجنيات، والظروف في السعودية وبقية دول الخليج مشابهة إلى درجة كبيرة، لكن لا توجد دراسات وإحصائيات كما هو الحال في الإمارات. النتيجة أن العنوسة التي أنتشرت في شبه الجزيرة زمن الفتوحات لا زالت قائمة الآن لأسباب عقلية الذكور حول الجنس، والرؤية للأُنثى.

بعد الخلفاء الراشدين تزايد بسرعة عدد الخلفاء والأمراء من أمهات الولد. ثلاثة فقط من الخلفاء العباسيين كانوا أبناء حرائر، من

اصل 37 خليفة!! أما في الأندلس فكل الأمراء والخلفاء كانوا أبناء امهات مسبيات أو جوارٍ مشتريات لجمالهن وأصبحن امهات ولد من تلقيح سيدهن الأمير وورث أولادهن الإمارة من أبيهم. كان العرب المسلمون إجمالاً يشترون الجواري الملاح المستوردات والمسبيات من شمال أوروبا وشرقها بواسطة عصابات وقراصنة يسرقون الإناث من كل الأعمار، فيبيعون اليانعات ويربون الأطفال كالخراف ويعرضونهن لاحقاً في اسواق النخاسة التي احتلت أماكن متوسطة ومشهورة في كل المدن العربية الإسلامية .. وغني عن التذكير أن تجارة الخدم والجواري لا زالت قائمة بأشكال جديدة، وتظهر تفاصيل العنف والظلم الممارس ضدهن سنوياً في تقارير المنظمات الدولية.

لم يقتصر الأمر على الخلفاء والأغنياء، للانجباب من الآمات والجواري، بل كل العرب الذين تركوا الجزيرة العربية على دفعات سبوا واشتروا وتزوجوا وأنجبوا حيث مكثوا، سواء أكان في العراق أم فارس أم الشام أم مصر أم في شمال أفريقيا والأندلس، ولم تذكر مراجع التاريخ التحاق الزوجات أو البنات العرب بالمقاتلين الغازين. وحيث إن التربية تعتمد بالأساس على البيت والأم فقد مالت هذه الأجيال المتتالية من المولدين إلى رؤية الأمهات بمقدار لا بأس به، وتزأوجوا لاحقاً من بعضهم، ومن سيل السبايا والجواري، ولكن بعيداً عن الإناث العربيات، وفي أجواء ثقافة مختلطة واسلام سهل الممارسة والنظرية، ولم يكلوا من النظر إلى استخلاص حقوقهم في الثروة والسلطة، وجنحوا بنسب مختلفة مع بقية المولدين إلى الثورات.

لقد عانى مؤسس عهد الإمارة، عبد الرحمن الداخل، وهو ابن إحدى السبايا، من كم كبير من المشاكل الناجمة عن هذا التطور، وسعى جاهداً لتفادي النتائج للطباع العربية. فهو أحد الناجين من مذابح العباسيين للأمويين وهرب منهم وحُرّم من ابنه وأهله وقتلوا أخاه أمام عينيه. وعندما أصبح أميراً لقرطبة المليئة بالعرب المتصارعين على السلطة، لجأ إلى استجلاب الصقلية، ليعدموه في القصر والإدارة، ومن ثم في القوات العسكرية لأنه لم يكن يأمن غدر رجال وزعماء القبائل، وقد سار أحفاده الأمراء والخلفاء على هذا الطريق.

كان الفاتحين للأندلس قد اقتسموا أربعة أخماس أراضي ومدن الأندلس التي لم تستسلم لهم، وفتحت عنوة، وحتى الخمس الخاص بالدولة تم تقسيمه، أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز (تولى الخلافة عام 99 ومات مسموماً بعد عامين). قسمه عمر على القادمين العرب الجدد بعد الفتح تفادياً للصراع، لأن الفاتحين الأوائل رفضوا التنازل للقادمين الجدد عن مكاسبهم وحصصهم. لم يعترض لاحقاً عبد الرحمن الداخل على هذا الوضع حتى لا يثير الصراعات وتحديدًا بين اليمينية والقيسية الذين كانوا يتحاربون منذ ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية، ونقلوا خلافاتهم إلى مناطق الفتح الإسلامي في الشام والأندلس. كان أجناد كل منطقة قد سكنوا في الأندلس ما يناسب أجواء بلادهم التي قدموا منها، وأطلقوا عليها الأسماء ذاتها، بينما سكن البربر في المناطق الجبلية الشمالية وهو ما اعترضوا عليه لاحقاً، لمجاورته لبلاد النصارى وضرورة الحذر الدائم والتصدي الحربي لهم أحياناً، فباشروا في الرفض والزحف

جنوباً على حساب فئات الفاتحين الآخرين وأجنادهم، بينما قامت الحروب القبلية بين اليمانية والقيسية. وبالمناسبة فقد استمر العداء بين الطرفين حتى القرن التاسع عشر وعشية انتهاء الخلافة العثمانية وذلك في فلسطين ولبنان إلى جانب ما سبق وما تبع من معارك في نجد والحجاز والكويت وعمان بخلفية الصراع اليمني القيسي أثناء وقيل تكون هذه المناطق كدول تحت الاستعمار البريطاني.

(توضيح: فتحت بلاد العراق عام 11 للهجرة في عهد أبي بكر، وفتحت الشام عام 15 بالانتصار في معركة اليرموك في عهد عمر بن الخطاب، واستكمل فتح فارس بمعركة القادسية عام 14 وتواصل فتح فارس حتى عام 23، بينما فتحت الأندلس عام 92. وكان بعض المقاتلين يبقون في البلاد المفتوحة، وبعضهم الآخر يواصل الفتوحات لبقية البلاد، وهكذا توزعت قبائل عرب الجزيرة عبر العالم الإسلامي. أيضاً كان بعض المسلمين الجدد في العراق والبادية ثم في الشام ينضمون للقوات الإسلامية الغازية ويستقرون في المناطق الجديدة.)

بين البداوة والحضارة

عندما يكون الغازي متحضراً، أو بالاحرى يتبع لحضارة عريقة، فعلى الأرجح أن تنتقل حضارته إلى الشعوب المغزوة بعد أن يستتب الأمان وينتهي القتال. لكن إذا كان الغازي متخلفاً، أو جاء من عصر البداوة وظروف القبلية البعيدة عن المدنية والحضارة، فمن الطبيعي أنه سيخرب ويدمر وينهب؛ ليكتسب ثم يواصل النهب بأساليب متعددة حتى يستقر الحال بين الغازي المتخلف والمغزو المتحضر. بالطبع كان هناك غزاة متخلفون نهّابون لا يحتلون البلاد المتحضرة، ولكنهم ينهبون وينسحبون تاركين ضحاياهم؛ ليستعيدوا نظامهم وخيراتهم، ثم يكرّرون الغزو، وهذا ما فعله النورمان، والفايكنج وقبائل الجرمان، ومجموعات القراصنة الذين أرهقوا الحضارتين الإغريقية والرومانية. وعلى الطرف الآخر من المعادلة نجد الإمبراطورية اليونانية، وخليفاتها الرومانية قد أنجزتا حضارة امتدت إلى المناطق المغزوة والمحتلة واتحدت مع شعوبها عبر التزاوج، واعتماد الكفاءة الإدارية والسياسية إلى درجة تولّي أباطرة للحكم من الشعوب المغزوة كما في حالة أباطرة سوريا، وملوك مصر الرومانيين، إلى جانب المظاهر الحضارية الأخرى التي أوصلوها للبلاد المحتلة، مثل؛ مجالس الشيوخ، ونظم الزراعة والإدارة.

يمكن تعريف الحضارة بأنها نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وتتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم

والفنون. والحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق؛ لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه؛ للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها، وباختصار؛ الحضارة هي الرقي والازدهار في جميع الميادين والمجالات.

ترتكز الحضارة على البحث العلمي والفني بالدرجة الأولى، فالجانب العلمي يتمثل في الابتكارات والتكنولوجيا، وعلم الاجتماع، وأما الجانب الفني فهو يتمثل في الفنون المعمارية والمنحوتات، وبعض الفنون التي تساهم في الرقي وتعبّر عنه. عدم تقدير الجمال والفن ينعكس قباحة في الأفكار والتصرفات. ولو أمعنا النظر في أكبر الحضارات في العالم، مثل؛ الحضارة الرومانية سنجد أنها كانت تمتلك علماء وفنانين عظماء وفلاسفة. فالفن والعلم عنصران متكاملان يقودان أي حضارة، وهذا ما نراه أيضاً في الحضارة الفارسية، وما سبق من حضارات مثل البابلية والآشورية، حيث كانت المكتبات مليئة بالمخطوطات المسمارية المنقوشة على الألواح الطينية، ومن هذه المكتبات أخذ المسييون اليهود أصول دينهم وقصصه مع بعض التغيير. الكتب إلى جانب الفن والعلم مقياس مهم لمستوى الحضارة. بالطبع هناك دور مهم للعامل الجغرافي المناخي في نشوء الحضارات، فلا يمكنك فرض الأمن والأمان، وهما العنصر الأول للحضارة، في منطقة قاحلة صحراوية يقتتل سكانها على ينابيع الماء وبرك الشتاء، ويضطر السكان، وهم على شاكلة قبائل صغيرة؛ ليسهل نقلها، يضطرون؛ لنهب

جيرانهم في البراري وسد رمقهم أو التّعريض للنّهب والسبي منهم .. هنا مستحيل أن توجد زراعة، ثقافة، أو علم وحضارة، أو قيام نظام إدارة ودولة تعتمد على الضرائب من وسائل الإنتاج، وتنظم الجيوش. لقد وجّدت الحضارات على ضيفافِ الأنهار.

بقي الرسول في مكة طوال الثلاثة عشر سنة الأولى من دعوته، ولم ينضم اليه سوى خليط من سبعين من العبيد والفقراء وقلّة من السادة، وهاجر مع رفاقة للمدينة الأكثر تطوراً والأقل قبليّةً، وقرر جعل الزكاة أحد الأركان الخمسة للإسلام حتى يتوفر للدولة مألها المطلوب؛ لبناء القوات والإنفاق العام. لم تكف هذه الزكاة لسدّ حاجة الدولة الناشئة سواء أكان لقلّة أعداد المسلمين أم لفقر المنتمين تبعاً للدين، ولذلك قرر الرسول مباشرة الغزوات القريبة، وقطع طرق تجارة قريش، والاستيلاء عليها، وافتداء أسرى قريش بالمال، ثم بالطبع غزا مكة، وفرض الإسلام والزكاة التي تقبلها سكان المدن؛ لمعرفةهم بضرورة المال للدولة، كما دفعها لاحقاً شيوخ القبائل المنتشرة في شبه الجزيرة ضمن اتفاقيات إسلامهم تجنّباً لخطر المسلمين، وكانت وفود الأعراب إلى المدينة قد تزايدت؛ لإعلان إسلام القبائل عبر شيوخهم، وذلك في السنوات الثلاث الأخيرة من عمر الرسول.

بعد موت الرسول واستلام أبي بكر للخلافة رفضت القبائل كلّها الاستمرار في دفع الزكاة، إذ كانوا يعتبرونها مهينة لهم وقد قبلوها ضمن اتفاقيات مع الرسول ظنوا أنها تنتهي بموت المتفق معه، لكن أبا

بكر عرف أن هذا النقص، والنقض سيكون نهاية الدولة سياسياً ودينياً خصوصاً مع ظهور كثير من مُدَّعي النبوة بين العشائر والقبائل. شملت الرَّدَّة عن الزكاة كل شبه الجزيرة مما يعرف اليوم بخليج إيلات للكويت لدبي لباب المندب، وكل شاطئ البحر الأحمر، وقبائل وسط الجزيرة، ما عدا مدن مكة والمدينة والطائف. رفض أبو بكر مشورة عمر بن الخطاب بتجنب القتال والتسامح في الزكاة، وأرسل القوات إلى كل الجهات. كان لحروب الرَّدَّة التي دامت لعامين عُدَّة نتائج حددت مصير الإسلام:

- درَّبت الجيوش على الحرب الكبيرة الواسعة البعيدة، وطرق الإعداد والتكتيك، والمناورة، وتعويض خسائر المقاتلين بكسب غيرهم من الثَّائِبين، وكانت حروب العرب سابقاً صغيرة، وقزمية بالمقارنة.

- قضت على المنافسين الدينيين الذين سَطَّروا السَّجْع، والثَّف حوْلهم أبناء قبائلهم كأَنْبياء بعد النبي.

- دفعت النُّجَاحات بالخليفة للتَّفكير في الغزو الخارجي؛ لجمع المال وإشغال العُربانِ عن المناكفات المستقبلية في شبه الجزيرة، فأطلق ذات القادة والجيوش التي تصدت للرَّدَّة، إلى الغزو ضمن قاعدة تحميس ما يسلبون، أي أربعة أخماس للمقاتلين وخمس للدولة.

كان الرسول قبل موته يعرف خطر الأعراب الذين يشكلون الغالبية العظمى من إجمالي عرب الجزيرة، ويميزهم عن سكان المدن في الطائف ومكة والمدينة، وقد جاء عنهم في القرآن كثيرٌ من الأوصاف القبيحة، مثل الضَّعْفُ والتَّخَاذُلُ والكُفْرُ والنِّفاقُ:

"الأعراب أشدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" سورة التوبة. "قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَأَنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا أَنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" سورة الحجرات. ويلاحظ أن الآية الأخيرة نزلت في وقتٍ أخذت كثير من القبائل في شبه الجزيرة تُسارع عبر وفودها للدخول في الإسلام.

طبعاً وبهذه العقلية انطلق هذا الجيش، الذي هزم المرتدين؛ ليفتح البلدان المحيطة ويحتلها مثل؛ العراق وبعض فارس في عهد أبي بكر ثم استكمال التوسع لبقية بلاد الفرس والانطلاق للشام ومصر في عهد عمر بن الخطاب، وبقية المناطق لاحقاً في عهد الأمويين بعد أن اقتتل المسلمون وبعضهم في موقعي الجمل وصفين، وايدت نصف جيوشهم من الطرفين. كان الأعرابُ وهم غالبية العرب آنذاك يجهلون دينهم نظراً؛ لحداثته ولحدائثة عهدهم به، بل عدم اتصالهم معه وظنهم أن رفض فرض الزكاة والبقاء على الصلاة لا يخرجهم عن الدين. كانت النظرة مادية، وكانوا أبعد ما يكونون عن فهم أسس الحضارة، وانتقلوا كغزاة لحضاراتٍ عريقةٍ راسخة، ولكنها ضَعُفَتْ نتيجة للحروب كما هو حال العداء، والتنافس بين بيزنطة، وفارس على أطراف جزيرة العرب، والتي أضعفت قدراتهم، فسهل على الغازين المسلمين كسر شوكتهم،

واحتلال بلدانهم، ودفعهم للجزية، بل تقسيم أراضيهم كجزء من الغنيمة.

في بدايه عهد عمر بن الخطاب كان الخمسُ من الغنائم يُوزع على الصحابة في المدينة حسب الحاجة، وعندما ارتفعت كميّة الخمس صار الخليفة عمر يسأل الصحابة كيف يوزع، بالوزن أو الكيل باليدين أو غير ذلك. هنا أشار بعضهم على الخليفة بأنهم شاهدوا أو سمعوا عن نظام الدواوين في بلاد فارس، وكيف يسجلون ويحصون السكان، فأخذ عمر بذلك وسجل في رأس الديوان آل البيت وزوجات الرسول ثم الصحابة حسب قربهم للرسول وحدد لكل فئة حصة من العوائد تتناقص حسب ترتيب الأولويّة. وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان استمر هذا الوضع، لكن كمية دخل الخمس زادت كثيراً، فأصبح الخليفة يتصرف في الفائض حسب رؤيته الخاصة. كذلك سمح الخليفة ببيع الإقطاعيات نصيب الفاتحين في بلاد أخرى واستبدالها، فأصبح بوسع من يملك مزرعة في العراق كجزء من غنيمة أن يبيعها، أو يستبدلها مع شخص آخر غير مقيم في العراق أو فارس. هذه التطورات خلقت النّعمة على عثمان والأمويين حتى وصل الأمرُ إلى اغتيال الخليفة بعد حصار طويل له في بيته، وتجويعه وتعطيشه، ثم نهب بيته وبيت المال، بينما بقية الصحابة في المدينة يتفرّجون، وجيوش المسلمين تفتح البلدان. أما في عهد الخليفة علي بن أبي طالب فقد تناقصت المداخل نظرّاً لانشقاق معاوية في دمشق، واستقلال معظم المناطق المفتوحة .. إلى جانب ذلك كانت فلسفة الخليفة الجديد مغايرة لما سبقه؛ إذ كان يفرغ بيت المال كل

شهر بتوزيع محتواه، ثم غسل أرضيته قبل حفظ الواردات الجديدة، أي لم يعد للدولة مخزون احتياطي. بعد اغتيال الخليفة علي، وموت بقية الصحابة تدريجياً والخلافات الأموية مع آل البيت، عادت الأمور للأسلوب الأموي، حيث يتحكم الخليفة بالتوزيع، ومنح من يريد، والمنع ممن يريد، واللجوء إلى أسلوب العطاءات بالصرر المالية للموالين والمدّاحين.

كانت إذًا ميزانية دولة الخلفاء الراشدين قائمة على الموارد الخارجية، ولا علاقة لها بضرائب على وسائل الإنتاج الذاتي من زراعة وصناعة وغيره، كما أن الزكاة في الفترة الأولى للدولة كانت تعتمد على بعض الماعز وأقفاز التمر، كما أن شروط الزكاة كانت تسمح بالتهرب الضريبي. عندما توسعت الدولة بالفتوحات ارتفعت كمية الزكاة؛ نظراً لاغتناء المقاتلين، وأيضاً من عوائد الجزية والضريبة على غير المسلمين. والاستنتاج المنطقي أنه لم يكن هناك حضارة أو تحضر في شبه الجزيرة في عصر الجاهلية، وأن موارد الدولة الإسلامية تنامت مع الغزو، وبالتالي، لم تكن هناك تجربة الاستثمار في الإنتاج الذاتي. وعندما تراجعت الدولة الإسلامية عادت الأمور الاقتصادية إلى ما يشبه عصر الجاهلية الذي تمدد، وانتشر مع الفاتحين أينما حلّوا. وعندما وصلت الأمور إلى الحكم العثماني، وما رافقه وتلاه من العهود الاستعمارية كانت الدول (الأقاليم) العربية لا زالت تعيش على الهبات، ووضعها الاقتصادي يُرثى له، وخصوصاً في شبه الجزيرة العربية التي عاشت

لقرون على مداخيل مواسم الحج والهبات من الآخرين والغزوات القبلية للجيران.

مع بدايه عصر النفط أصبحت الأمور تتشابه من ناحية المداخيل لعصر الغزو والغنائم من الفتوحات، أي؛ مداخيل بدون إنتاج، والفارق أن الحكام استولوا على المداخيل والسلطة، وعادوا إلى أسلوب العطاءات بصرر النقود للمؤيدين والأتباع والمطاردة للمعارضين بأنواعهم .. العقلية ذاتها ولم تتحضر، وما يظهر من استعمال الإنتاج الحضاري يعود للغير، ويشترى منهم بالمال السهل. هذا يعني أنه بعد 1400 عام لا زال معظم عرب الجزيرة يراوحون في أماكنهم حضارياً، بينما الفاينك والقراصنة الثورمان وغيرهم ممن عاشوا على النهب والسلب، وتجارة العبيد أصبحوا في طليعة الأمم المتحضرة الآن. لقد منحت السماء فرصة التَّحَضُّر لسكان شبه الجزيرة العربية، ثم منحتهم الأرض خيراتها بفعل فاعل، ولكنهم استمروا في عقلية الجاهلية الاتكالية المغلقة على خرافاتها وأساطيرها، والأنايية في أفعالها حيث سَرَّعت من الثورات في البلاد المفتوحة، وأفلتَ منها زمامُ الحكم بسرعة للمرتزقة والخدم والنساء.

الخلافة، بدايه ونهاية

مثَّلَ المولَّدون في الأندلس نسبة هامة من السكان المسلمين الجدد، والعنصر الرئيس للإنتاج، وبخاصة في الجزء الشرقي من الأندلس حيث احتكوا بطائفة النصارى، وكذا بالقشتاليين في الشمال الشرقي، وبسبب اتصالهم اليومي مع جيرانهم النصارى صعب انصياهم السياسي للدولة الإسلامية العصبية، إضافة إلى تذرهم الشديد من احتكار العرب الدائم للسلطة المركزية، والافتتال الدائم بين فئاتهم مما يتسبب في مجازر للسكان ومأس اجتماعية وضائقة اقتصادية.

لقد كان لنشوء طبقة المولدين نتائج إيجابية، لعل من أهمها؛ انتشار الإسلام بينهم في الأندلس، كنتيجة مباشرة للزواج المختلط بين المسلمين والنصارى، إضافة إلى ظهور أسر مولدة نبعت في كافة مناحي الحياة العلمية والسياسية، وكانت لها إسهاماتها المتعددة في إرساء دعائم الحضارة الإسلامية بالأندلس. أما على المستوى الاقتصادي، فقد اندمج معظم المولدين في القطاعات المنتجة، مثل تربية الماشية والزراعة في الأرياف، وصيد السمك والأعمال البحرية على الساحل. أمَّا في المدن فقد زاولوا هم ومواليهم حرفاً وأشغالا يدوية، واستطاعوا أن يجمعوا ثروات طائلة من الاشتغال بالتجارة وحرف البناء. "من كان منهم بالبادية، فاكسبوا البقر والحرث والعسل، وأهل الجبال منهم كانوا يغرسون الأجناد والفواكه، وقطع الخشب، وطبخ الفحم، ومن ولي البحر منهم كانوا يجلبون الحوت والسردين، ويصنعون السفن وآلاتها

إلى غير ذلك"، ويُستشف من ذلك أنهم كانوا أوفر العناصر نشاطا وأكثرها تلاؤما مع ظروف الحياة في الأندلس.

اشتهر من المولدين عمروس بن يوسف أحد قادة الأمير الحكم بن هشام الذي ولّاه طليطلة عام 181 هـ، وبنو قسي زعماء الثغر الأعلى الذين سيطروا عليه لفترات طويلة خاصة في فترات ضعف سلطة الدولة المركزية في قرطبة، ومنهم أيضاً بنو مروان الجليقيين الذين تمردوا وأعلنوا انفصالهم عن سلطة الدولة لمرات عدة في مدن ماردة وبطليوس. أمّا أشهرهم على الإطلاق فهو عمر بن حفصون الذي قاد هو وبنيه أطول وأخطر تمرد على الدولة الأموية في الأندلس؛ إذ دام لنحو خمسين عاماً، ولم ينته إلا على يد جيوش الخليفة عبد الرحمن الناصر. واشتهر من أبناء المولدين البارزين، المتصوّف والشاعر أحمد بن قسي الأندلسي.

استمرت ثورة بن حفصون في عهد ثلاثة أمراء أمويين في الأندلس والتف حولها الكثيرون، وامتدت بين الحين والآخر إلى العديد من المدن، وكانت تهب وتخبو. ينتمي عمر بن حفصون لأسرة من المولدين قوطية الأصل، ويقال أن جده الأعلى وقت الفتح هو القس (الفونسو)، وأول من أسلم من أسرته هو جده الرابع جعفر. كانت أسرته تمتلك أراضي في تاكرنا من أعمال كورة رندة، حيث نشأ ابن حفصون، وقد كان أبوه حفصون من ذوي الوجاهة والأموال وذكر ابن القوطية أنه كان شقياً في شبابه، والتف حوله جماعة من الفاسدين،

حسب تفسير العرب للتاريخ، وألفوا عصابةً، ونزلوا بجبل ببشتر، واتخذوه قاعدة ينطلق منها بهجمات على أطراف كورة رية. في عام 267 هـ في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، وهو الأمير الأموي الرابع بعد عبد الرحمن الداخل، سار إلى ابن حفصون عامر بن عامر والي رية ببعض القوات عندما رأى أن أمره قد اشتد، إلا أن ابن حفصون هزمه وطرده، مما شد من شوكته، وجمع بذلك حوله المتمردين والثائرين. كانت نتيجة الهزيمة عزل عامر من منصبه وتولية غيره واستمرار الكرّ والفرّ، والاستسلام والعودة للمتمرّد، والتحالفات ونقضها، لعقود تلت. . لجأ ابن حفصون إلى إثارة النزعة الإثنية عند المولدين والمستعربين ضد الدولة الأموية في المناطق التي سيطر عليها، وذلك عبر نشر دعوات التخلّص من (نير العرب الغزاة)، وقد نقل ابن عذاري قوله في أحد خطبه: "طال ما عَنّف عليكم السُّلطان، وانتزع أموالكم، وحملكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب واستعبدتكم. وإنما أريد أن أقوم بشاركم، وأخرجكم من عبوديَّتكم". وقد لاقت دعوته تلك ترحيباً ممن يؤيدون قضية الاستقلال عن السُّلطة المركزيّة في قرطبة. كما كان لنجاحه في فرض الأمن في المناطق التي استولى عليها بصرامته في أحكامه وعقوباته على المخالفين، كما كان لتوّدده إلى أصحابه وإثابة الشجعان منهم أثره في توطيد سيطرته وتعلّق أصحابه به.

ثورة ابن حفصون لم تكن الأولى أو الأخيرة كما أن الأمير محمّد، الذي شهدت ولأيته في الحكم بداية ثورة ابن حفصون قضى حياته يقاتل ضد ثورات وتمرد من قبل توليه الإمارة وحتى مماته .. فقد قاد

الحملة العسكرية ضد المتمردين على أنواعهم في معظم مناطق الأندلس، وضد حملات خارجية برية وبحرية. تواصل السَّجالُ الحربيُّ والسياسي بين ابن حفصون والأمراء؛ محمد، وابنه المنذر من بعده، ثم عَهْدُ الأمير عبد الله بن محمد، ثم عصر الأمير عبد الرحمن الناصر الذي أعلن الخِلافة في قرطبة عام 300 للهجرة، وقضى على التَّمردِ والثَّورات عبر الأندلس، ومن ضمنها حركة ابن حفصون، وردَّ الهجمات الخارجية، وقاد الحملات؛ لاسترداد ما ضاع من المناطق التي كانت في يد المسلمين. كان الناصر شديداً وعملياً إلى درجة ذبح أحد أبنائه بيده كونه حاول الانقلاب مع بضعة من أصحابه. الناصر هو باني مدينة الزهراء، وهو الخليفة الذي كان يحجُّ إلى قصره ملوك الأقاليم النصاريِّ وأمرائها طلباً لرضاه. الناصر باختصار هو صانع الوجه المشرق للأندلس، وحين مات وجدوا في أوراقه تعداداً للأيام التي يعتبرها سعيدة، فأحصوها ووجدوا أنها أربعين يوماً فقط لخليفة هيمن على العالم الغربي في القرن العاشر الميلادي.

يمكن اعتبار الخليفة عبد الرحمن الناصر مثلاً للحاكم الحازم العادل الرشيد، الذي تتقبله وتتمناه شعوب الدول التي تمر بظروف متناقضة من الرخاء والفقر، الحرية والاضطهاد، احترام العلم والغوص في الجهالة، وذلك بناء على نوعية الحاكم وأسلوبه وثقافته الذي يشجع هذا التوجه أو يغرق البلاد في التوجه المناقض، أي؛ بناءً على الصُّدف بشكل كبير؛ وليس على أسلوب وتوافق مجربين لاختيار الحاكم. قد يكون الوريث للحكم جاهل عرييد مدلل، فيختار أمثاله من حوله، ولا

توجد في الحقيقة وصفة مضادة كما نرى من مراقبة التاريخ قبل عبد الرحمن الناصر بألف عام وبعده بألف عام. لقد حكم الإمبراطوريات المتحضرة أحياناً أباطرة مجانين إلى درجة تعيين أحدهم لخصانه عضواً في مجلس الشيوخ، كما انتخب الشعب الأمريكي رئيساً مجنوناً بشهادة مجموعة أطباء نفسيين وأدت فترة رئاسته لكوارث حلت على الشعب الأمريكي في القرن الحادي والعشرين، وهو القرن الذي وقع في عقده الأول ثورة الربيع العربي، وإسقاط الشعوب لبعض حكامهم، فإذا بالقدام أسوأ مما تم إسقاطه بدرجات.

يمكن العثور عبر التاريخ المسجل على أمثلة للنجاح والفشل المرتبط بشخصية القائد، وذلك بالرغم من اختلاف أنظمة الحكم، وطرق اختيار القائد، وذلك بدايه من أسلوب المباححة بين المتنافسين على الزعامة، حتى الوصول إلى الاختيار الانتخابي بأنواعه المختلفة.. شخصية الفائز وتربيته ورؤيته هي التي تحدد نتيجة فترة حكمه، وأحياناً مصير رقبته. بالنسبة للخليفة الناصر، فقد اختلفت ظروفه الشخصية عن سبقوه. هو حفيد للأمير عبد الله، وكان أبوه محمد قد قُتل من أخيه المطرف نظراً لحب والدهم عبد الله لمحمد، وتنصيبه ولياً للعهد بينما المطرف وأبناء آخرين كانوا يقودون الحملات؛ لردع الثورات، ومنها تمرد ابن حفصون. كانت الإمارة قد تراجعت إلى درجة الانكماش، وسيطرة الأمير على قرطبة وأطرافها فقط. قتل المطرف أخاه محمداً بعد 20 يوم من ولادة ابنه عبد الرحمن الذي تولاه جدّه الأمير عبد الله، وأسكنه معه في القصر، وأحسن تعليمه وتربيته، وصار يستشير، ويوليه

الحملاات الحربية، ثم أجلسه في المناسبات مكانه؛ لئسَلَمَ عليه الجنود، وكبار القوم، وعندما مرض الأمير منحه خاتمه وأخذ البيعة في الصباح من أعمامه وأعمام أبيه، ومن بقية المسؤولين، ودفن جده بعد الظهر، وأرسل من يأخذ البيعة من الولاية في المدن الأخرى، وكان ذلك في عام 300 للهجرة، وسحَّر قوى قرطبة؛ للقضاء على الثورات حتى استتب له الأمر بعد جهد عظيم واضطر إلى قتل أحد أبنائه لاحقاً حين فكر في الانقلاب، لُقّب بالناصر لدين الله وأعلن الخلافة، ووصلت الأندلس إلى عظمتها.

اختار الناصر أن يولي ابنه الحكم من بعده، وكان هذا محباً للعلم والعلماء، فاكتملت النهضة، وتوفرت القوة الحربية التي توفر الأمن النسبي، وتراكمت مظاهر الحضارة من علم وقانون ومخترعات وثقافة وفن بكل أشكاله، ومن ضمنه فن العمارة التي تجلت في عهد الناصر وابنه الحكم. لم ينجب الحكم أبناء من زوجاته الأولى، ولكن صبح البشكنسية (من الباسك) أنجبت له عبد الرحمن الذي توفي طفلاً، ثم أنجبت هشاماً بعد أن تقدم به العمر، وأصبحت الزوجة المحببة لدى الخليفة الحكم، ولم يخالف لها طلبات حتى حين أصرت أن يعلن ابنها الطفل هشاماً ولياً للعهد بدل أن يولي الخليفة أحد إخوته من أبناء الناصر. واختارت صبح الكاتب محمداً العامري محاسباً للطفل هشام، وترقى العامري بفضل صداقته معها إلى مناصب عدة إلى درجة حمله الأموال من الخليفة الحكم، ليوزعها على زعماء القبائل في عدوة المغرب؛ لاسترضائهم، وهذا ما استفاد منه العامري مبكراً في تكوين

أحلاف وصداقات مع البربر. ثم أصبح العامريُّ بعد موت الخليفة الحكم من الحجاب للخليفة الطفل، وتصاحب أكثر وأعرق مع والدته صبح، وقتل تباعاً بقية الحجاب، وصار هو الحجاب المنصور، الذي حجب هشام في الزهراء، وقتل أعمامه الأمويين، وشردهم، ووضع الخلافة في عائلته من دون إعلان ذاته خليفه.

تجربة الحجاب المنصور، ومراجعة سريعة هي تجربة لم تكن ولم تعد فريدة لاحقاً إذ لا زالت تتكرر. كان الصقالبة في قصر الخليفة الحكم بالزهراء قد تأمروا على تنصيب المغيرة بن الناصر بدل الطفل هشام عندما يموت والده الحكم. وهكذا عندما مات الخليفة أخفى الخدم الأمر ريثما يجبرون المغيرة، ولكنهم قرروا استشارة الحجاب المصحفي الذي تظاهر بالتجاوب معهم، ولكنه أخبر الحجاب المقربين الذين اجتمعوا، وتشاوروا وقرروا قتل المغيرة، أخ الخليفة المتوفى، وعم ولي العهد .. لكن الجمع جُبِنَ عن التنفيذ، فتطوع العامري، وذهب ببعض الجند وقتل المغيرة في منزلة، وعلقه من رقبتة لادعاء أنه أُنْتَحِر. تحقق الهدف بإرهاب بقية الأمراء الأمويين الذين لم يعترضوا على مبايعة هشام الذي كان بدوره تحت وصاية والدته صديقة الحجاب العامري. تدريجياً تمكن العامري بالتآمر والتحالف حتى عزل بقية الحجاب ثم سجنهم، ثم منع الخليفة من الخروج للعامة، أو استقبالهم، واتفق مع غالب، قائد جيش التُّغُور، على غزو الإمارات النصرانية، وتزوج بنت غالب، ثم غدر به وأعلن ذاته الحجاب المنصور.

قام المنصور بتأسيس الدولة العامرية داخل دولة الأمويين، وتمثلت بفترة حجابته للخليفة هشام، المؤيد بالله، هو وأبنائه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شنجول من بعده، وقام المنصور عبر تخطيط متعمد بإرساء قواعد الحكم لأبنائه، وأوصاهم بعدم الاستيلاء على لقب الخلافة، إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً للأبناء حيث أعلن ابنه نفسه خليفة، وانتهت سيطرتهم على حكم الأندلس بعد أقل من عقد من الزمن على وفاة والدهم المنصور، بعد أن ساد الأندلس فترة من الاضطرابات التي نتجت عن التصارع على الخلافة بين ابني المنصور وبعضهم، ومع بقايا الأمويين أيضاً، أو من ادعوا أنهم من صلب أموي، حتى ثار البربر، وهاجموا قرطبة بعد حصارها، وتجميع سكانها لعامين، وثار أهل قرطبة، وهاجموا ابنية، وقصور أبناء المنصور ونهبوها، وقتلوا ابنه شانجه، وفشلت محاولات إنقاذ الخلافة؛ لكثرة وسوء تدبير من تولّى، وكان الناس في قرطبة قد وصلوا إلى قناعة مفادها أن عقب بني أمية لم يعودوا يصلحون للخلافة؛ نظراً للفتن وسوء التقدير الذي لازم حكمهم بعد فترة هشام وحاجبه المنصور، واتفق رأي الجميع كباراً وصغاراً على إجلاء كل من ينتمي للبيت الأموي عن قرطبة (الشعب يريد إسقاط النظام .. ارحل ارحل)، وكان المشير والمُدبر لهذا الأمر زعيم قرطبة ووزيرها؛ أبو الحزم جهّور بن محمد الذي أصبح فيما بعد زعيم بني جهّور إحدى دويلات الطوائف التي اتخذت من قرطبة مقراً لها. هكذا أنفرط العقد، واستأثر كل زعيم في أرجاء الأندلس بناحيته، وبدأ عهد التشرذم والضعف، ودول الطوائف والسقوط أمام العدو

الصليبي في الشمال، ولم تمض على هذه الحوادث نصف قرن حتى سقطت طليطلة على يد ملك قشتالة (ألفونسو) السادس سنة 478هـ/1084م.

كان ابن آخر للمنصور، عبد الله، قد تأمر قبل موت أبيه مع أمير نصراني على الانقلاب، لكن والده عرف بالأمر وأمسك بالولد بعد جهده وقتله، تماماً كما فعل الكثيرون من قبله، ومن بعده، بل تكرر في كل عهد منذ فتح الأندلس حتى سقوطها النهائي، وتواصل العمل بالأسلوب نفسه حتى يومنا الحاضر بعد أكثر من 1400 عام على إعلان نهاية الجاهلية. لا يمكن إنكار ذكاء المنصور الذي خطط وتدرج ووصل وواصل استعمال عقله حتى النهاية. لقد كسب زوجة الخليفة ثم استمال البربر، وتولى امر الصقلية فاغدى عليهم، وتأمر مع قائد الجيش وتزوج ابنته، وعندما تمكن من الحكم استرضى الجمهور بفتح باب الغزوات مرتين كل عام، وفتح باب الاشتراك لمن يريد، وصار يهاجم البلدان والمدن النصرانية حسب غناها بالمال والإناث، ويوزع الغنائم على المشاركين .. ولم يكن يحتل تلك المدن، بل غزو ونهب وتدمير، ثم تربص بالضحية التالية للغزوة القادمة.

تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده يشير إلى أن أهم خواصهم هي شحذ الهمم للتنافس على الغنائم، وبالطبع على المقاعد الأولى، سواء أكان بالتدليس، أم التأمر أم الانقلاب. كما أن الغالبية العظمى ممن تمكنوا من الحكم يعيشون النكاح لسد عقد نقص لديهم .. ما معنى

امتلاك عشرات وأحياناً مئات الإناث؟ وكان العرب على الدوام كنتيجة لعقليتهم القبلية الانفرادية يحبون أنجاب الذكور؛ لسند الظهر ويتكونهم بدون تربية أو تعليم على القناعة والشجاعة والإخلاص؛ لتستمر الهمجية، فما أن يخلو المنصب حتى يبدأ الاقتتال الداخلي، وغالباً ما يبدأ الصراع قبل إرادة الله في قبض روح الحاكم. معظم الخلفاء والأمراء والملوك لا يعرفون تعداد أبنائهم، ناهيك عن بناتهم أو معرفة الأسماء، وهذه هي الروح الأعرابية العائلية الفردية التي تتآمر مع عائلات أخرى في تضامن قبلي لهدف محدد، ثم ينقلبون على بعض في أقرب فرصة وينهبون بعضهم بعضاً.

الحال الاجتماعي السياسي البائس لم يقتصر على الأندلس، بل امتد إلى حيث سيطر العرب على الحكم، فقد سقطت عملياً الخلافة العباسية قبل الأموية الأندلسية، ونتيجة لطباع العرب سيطرت فئات غير عربية على كل مناطق الفتح الإسلامي حتى الوصول إلى جهالة الخلافة العثمانية، وما تبعها من حقبة استعمار غربي احتل مناطق هذه الخلافة .. وعندما جاء الرئيس جمال عبد الناصر لينهي فترة الاستعمار، ويلغي الحدود التي وضعتها فرنسا وبريطانيا، ويخلق روحاً قومية عربية جديدة، ويوحد الأمة، باشر الأعراب في التآمر عليه وطلبوا رسمياً من أمريكا أن تسخر إسرائيل لتهاجم عبد الناصر وتكسر شوكة العروبة .. ومنذ ذلك الحين والعرب والأعراب والمسلمون يتمرغون في الوحل، ويطلبون عطف هذا، وحماية ذاك، ويدفعون الجزية صاغرين، ويقهرون المحكومين إلى درجة أن الانقلاب السياسي الاجتماعي في البلد التي

تعتبر ذاتها أم الإسلام وأبيه، انقلاب 180 درجة من النقيض إلى النقيض لم يحرك شعرة في جمهور البلد، فلا تعرف أنهم أغنام يهتمها العلف والإنجاب فقط، أم ماذا؟ كيف لمجتمع تقبل الشيء وضده من دون أي ردة فعل سلبية أو إيجابية؟ أنه بالتأكيد ليس مجتمعاً مدنياً، بل مجموعات قبلية أنانية ...

دَسائس و انقلابات

يمكن الاستنتاج عبر مراجعة للتاريخ المحفوظ وجود صراع بين الدول وبعضها الآخر على السُّلطة والمال، وصراعٌ داخلي مستمر بدرجات متفاوتة، ويلجأ فيه مالك السلطة لأساليب الفساد والإفساد والتَّصدي بكل السُّبل للأخطار المترتبة بالحكم والحاكم، وفي مقدمة هذه السبل سواء أكانت الاحترازية أم العقابية، القتل والتَّنكيل والتَّعذيب والسجن والنفي. كانت مثل تلك التطبيقات قليلة لدى عرب الجاهليَّة كونهم لا يشتركون في دولة ولا حضارة لهم، وبالتالي لا زعيم إقليمي، إنما زعماء قبائل غالباً ما يكونون أصحاب حكمةٍ وكرمٍ ومالٍ أكثر ممَّا هم أهل عنف، فيلتفُّ حولهم الرِّبعُ، ورُبَّما ذاع صيِّتهم إلى بعض القبائل المجاورة.

بعد الإسلام تغير الحال، وأصبح حال شبه الجزيرة ورجالها من مدَّيين وأعراب على دين خلفائهم وحُكَّامهم، الذين بدورهم قلَّدوا الحُكَّام في الدول والأقاليم والحضارات الغربية المسيحية، واتبعوا أيضاً النهج الديني اليهودي في التَّعامل مع الحكم والملوك، ومعاقبة المعارضين الذين يوصفون فوراً وقبل كل شيء بمعاداة الدِّين والزُّندقة، ثم بتهمة محاولة قلب نظام الحكم، وبالطبع لا ذكر لموقفهم الفقهيِّ أو السياسي المعارض للحاكم أو لبعض تطبيقات وتفسير الحاكم وحاشيته للأحكام الدينية. يصبح الحاكم مباشرةً، أو عبر مفتيه المُفسِّر الوحيد للدين، وكلُّ من فسَّر بشكل آخر يُتهمُ بالزندقة، خصوصاً إذا كان تفسيره يؤدِّي

للعادلة في التوزيع والحد من السلطات المتسلطة للحاكم، أو نشر حرية الفكر والآراء، وتوجيه العقول إلى النواحي الإيجابية من الدين.

مثلاً، هل يميز الإسلام قطع الرؤوس للأعداء الكفار والمعارضين المسلمين؟ البعض سابقاً والآن ينفي سماح الإسلام بذلك، والبعض الآخر من المسلمين يؤكد جواز ذلك، ويستشهد بأقوال للرسول وأفعاله، وبآيات قرآنية. هذه معضلة في العصر الحديث حيث لا يُعقل أن يجري المسلمون في الشوارع يقطعون بالسُّيوف أو البلطات رؤوس غير المسلمين. وإذا افترضنا تشريع الإسلام لقص رؤوس الكفار في الحرب، فهل يجوز ذلك في زمن غير الحرب؟ مرةً أخرى هناك من يقول إن دار الكفار هي دارُ حربٍ، وبالتالي يجوز قص رؤوسهم في كل زمان ومكان. لا بأس، ولكن ماذا عن قطع رأس المسلم للمسلم سواء أكان في الحرب أو في الأسر؟ وماذا عن التعذيب حتى بسلخ جلد الحاكم المسلم للمعارض المسلم؟

كل ذلك للأسف حدث في الأندلس حيث قُطعت الرؤوس للمقربين وللعمامة وللأعداء، وعلقت على الأسوار وفي الطرقات على عمدان كأعمدة المصابيح في العصر الحديث، ونُصبت الخوازيق، وأشكال عديدة أخرى للقص والاختراق استوردتها الإسلام من أوروبا النصرانية مثل السلخ والفسخ التريبيعي للمعارضين، أو بالأحرى لغير الخانعين، وهم أحياء. كان عرب الجاهلية يُعذبون العبيد بالسوط، والربط، ثم قلدوا أساليب تعذيب النصاري مع بدايه البعثة الإسلامية

.. مارسوا أنواع جديدة ضد عبيدهم الذين أسلموا، لكن التطور حدث بعد انتشار الإسلام في حوض البحر المتوسط.

لم يتفرد عرب الأندلس عن بقية المسلمين في التعذيب بغرض الردع للخصوم. فقبل فتح الأندلس مارس الأمويون أنواع القتل والتعذيب، وكان الانقلاب العباسي بقيادة السفاح بأبشع صور التعذيب والتقتيل والتلذذ، حيث كان السّفاح يتناول طعامه وحوله جثث أبناء عُمومته، وبعضها لا يزال يئن من تأثير ضربهم بالحديد على رؤوسهم .. نعم، لم يكن ذلك فناً في التعذيب والتقتيل، وإنما امتداد لقسوة الصحراء مخلوطة بحب التسلط، والكثير من الانتقام حيث اقتنع العباسيون أن الأمويين خطفوا منهم خلافة الرسول بدون حق كونها في عرفهم وراثية، وهم الأحقُّ بها. كل ما حدث في الاندلس وقبلها، وبعدها يمكننا رؤيته حتى الآن بوضوح، والتوصل الى مقارنات جلية لا ضرورة من تبيانها.

قبل الإبادة للحكم الأموي مارس هؤلاء أيضاً الظلم والقتل والتعذيب والانقلابات الداخلية. كان قتل الخليفة عثمان بن عفان، وتوليّه على بن أبي طالب، ذروة الاختلافات والصراع الذي تلاه حربا الجمل وصفين، ثم مقتل علي بن أبي طالب وتولي ابنه الحسن للخلافة بينما أعلن معاوية بن أبي سفيان استقلاله في دمشق. تميّز الحسن بالحكمة، وحسن التدبير فاتفق مع معاوية على التنازل عن الحكم ببعض شروطٍ أولها أن لا يورث معاوية الحكم لأحدٍ من بعده، وإنما يتم

اختيار الخليفة بالتشاور. وهذا ما لم يكن؛ إذ أعدَّ معاوية ولده لولاية العهد، وبالتالي حاول الحسين بن علي الثورة على يزيد بن معاوية، ولكن أنصاره خذلوه، وتم قتله وقطع رأسه في كربلاء، وحُملت الرأس ومعها حفيدات الرسول إلى دمشق بشكل مُشين .. القصة طويلة ومعروفة، وتروى بأشكال متعددة، تتفق على قطع الرؤوس، ولمن؟ لأحفاد الرسول شخصياً.

انقسمت الخلافة الأموية لشقين متتالين، السفيناني عبر معاوية بن أبي سفيان وإياه وابن هند آكلة الأكباد. والفرع الآخر لاحقاً هو المرواني. بعد معاوية حكم ابنه يزيد من عام 60 إلى 63 هجرية، شهدت ثورة الحسين ومقتله، وثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز التي سيطرت على مناطق واسعة من الدولة الإسلامية. لم يبايع عبد الله يزيد بن معاوية وتحصن في الكعبة حتى موت يزيد. أعلن ابن الزبير نفسه خليفة للمسلمين واتخذ من مكة عاصمةً لحكمه، وبايعته الولايات كلها إلا بعض مناطق في الشام، إذ دعمت الأمويين وساعدتهم على استعادة زمام أمورهم. لم تصمد دولة ابن الزبير طويلاً بسبب الثورات الداخلية على حكمه، وأبرزها ثورة المختار الثقفي في العراق، إضافة إلى اجتماع الأمويين حول مروان بن الحكم ومن بعده ولده عبد الملك في الشام، مما مكّنهم من استعادة باقي مناطق الشام ومصر، ثم العراق والحجاز. انتهت دولة ابن الزبير بمقتله سنة 73، بعد أن حاصره الحجاج بن يوسف الثقفي في مكة، ورجم الكعبة بالمنجنيق، ولم تَقم لسُلالاته بعد ذلك دولة كغيرهم من البيوت القرشية كالأمويين والعباسيين. عبد الله

هذا هو أول مولود للمسلمين في المدينة بعد الهجرة، وأمه أسماء بنت أبي بكر، وبالتالي خالته أم المؤمنين عائشة، وصاحبها في موقعة الجمل .. ثم انضم إلى معاوية في الشام، واشترك في فتوحات أفريقية حتى موت معاوية، فاختلف مع ابنه يزيد.

اتَّفَقَ الأمويُّون وبائعوا مروان بن الحكم كخليفة، فعمل فوراً على ضمان تنصيب أولاده من بعده. تزوج أرملة يزيد؛ لاستمالة فرعهم من العائلة، ولكنه توفي عام 65، واستلم ابنه عبد الملك الخلافة. أصبح على الخليفة الجديد التخلص النهائي من الزيريين، واستعادة الزمام في العراق والحجاز، وكان عليه مواجهة الخوارج، وأيضاً مصعب بن الزير أخ عبد الله.

تسجِّلُ ثلاث صفحات في كتاب (البدايه والنهاية) تفاصيل العلاقة والخصام بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير، وتصرخ من النصِّ حقائق مُذهلة في التفاصيل، لو تمنعنا فيما كتب ابن كثير: يقول، ثم دخلت سنة إحدى وسبعين (هجريّة)، ففيها كان مقتل مصعب بن الزبير، وذلك أن عبد الملك بن مروان سار في جنود هائلة من الشام قاصداً مصعب بن الزبير، فالتقيا في هذه السنة، وقد كانا قبلها يركب كل واحد؛ ليلتقي بالآخر، فيحول بينهما الشتاء والبرد والوحل، فيرجع كل واحد منهما إلى بلده.

فلما كان في هذا العام سار إليه عبد الملك، وبعث بين يديه السرايا، ودخل بعض من أرسله إلى البصرة، فدعا أهلها إلى عبد الملك

في السر، فاستجاب له بعضهم. وقد كان مصعب سار إلى الحجاز فجاء، ودخل البصرة على إثر ذلك، فأُتِيَ الكُبراء من الناس، وشتَمهم ولا مَهم على دخول أولئك إليهم، وإقرارهم لهم على ذلك، وهدم دور بعضهم، ثم شَخَص إلى الكوفة، ثم بلغه قصد عبد الملك له بجنود الشام، فخرج إليه ووصل عبد الملك إلى مسكن، وكتب إلى مروانية الذين استجابوا لمن بعثه إليهم فأجابوه، واشترطوا عليه أن يوليهم أصبهان، فقال: نعم - وهم جماعة كثيرة من الأمراء - وقد جعل عبد الملك على مقدّمته أخاه محمد بن مروان، وعلى ميمته عبد الله بن يزيد بن معاوية، وعلى ميسرته خالد بن يزيد بن معاوية.

خرج مصعب وقد اختلف عليه أهل العراق، وخذلوه وجعل يتأمل من معه فلا يجدهم يقاومون أعداءه، فاستقتل وطّمن نفسه على ذلك، وقال: لي بالحسين بن علي أسوة حين امتنع من إلقائه يده، ومن الذلة لعبيد الله بن زياد.

وجعل ينشد ويقول مسلياً نفسه:

وأن الأولى بالطف من آل هاشم * تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

كان عبد الملك قد أشار عليه بعض أصحابه أن يقيم بالشام، وأن يبعث إلى مصعب جيشاً، فأبى وقال: لعلي أن بعثت رجلاً شجاعاً كان لا رأي له، ومن له رأي ولا شجاعة له، وأني أجد من نفسي بصيراً بالحرب والشجاعة. وإن مصعباً في بيت شجاعة، أبوه أشجع قُرشي، وأخوه لا تُجْهَلُ شجاعته، وهو شجاع ومعه من يخالفه، ولا علم له

بالحرب، وهو يحب الدعة والصفح، ومعني من ينصح لي، ويوافقني على ما أريد. فسار بنفسه فلما تقارب الجيشان بعث عبد الملك إلى أمراء مصعب يدعوهم إلى نفسه، ويعددهم الولايات، فجاء إبراهيم بن الأشتر إلى مصعب فألقى إليه كتاباً مختوماً وقال: هذا جاءني من عبد الملك، ففتحه فإذا هو يدعوهم إلى الإتيان إليه، وله نيابة العراق.

قال (إبراهيم الأشتر) لمصعب: أيها الأمير! أنه لم يبق أحد من أمرائك إلا وقد جاءه كتاب مثل هذا، فإن أطعني ضربت أعناقهم. قال له مصعب: أني لو فعلت ذلك لم ينصحنا عشائهم بعدهم. فقال إبراهيم: فابعثهم إلى أبيض كسرى فاسجنهم فيه، فإن كانت لك النصرة ضربت أعناقهم، وأن كانت عليك خرجوا بعد ذلك. فقال له مصعب: يا أبا النعمان، إنني لفي شغل عن هذا.

ثم قال مصعب: رحم الله أبا بحر - يعني: الأحنف - إن كان ليحذرني غدر أهل العراق، وكأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه الآن. ثم تواجه الجيشان بدير الجاثليق من مسكن، فحمل إبراهيم بن الأشتر - وهو أمير المقدمة العراقية لجيش مصعب على محمد بن مروان، وهو أمير مقدمة الشام - فأزالهم عن موضعهم، فأردفه عبد الملك بعبد الله بن يزيد بن معاوية، فحملوا على ابن الأشتر ومن معه فطحنوهم، وقتل ابن الأشتر رحمه الله وعفا عنه، وقتل معه جماعة من الأمراء. وكان عتاب بن ورقاء على خيل مصعب فهرب أيضاً ولجأ إلى عبد الملك بن مروان، وجعل مصعب بن الزبير وهو واقف في القلب ينهض أصحاب

الرايات، ويحث الشجعان والأبطال أن يتقدموا إلى أمام القوم، فلا يتحرك أحد. فجعل يقول: يا إبراهيم، ولا إبراهيم لي اليوم، وتفاقم الأمر واشتد القتال، وتحاذلت الرجال، وضاق الحال، وكثُرَ النزالُ.

قال المدائني: أرسل عبد الملك أخاه إلى مصعب يعطيه الأمان، فأبى، وقال: أن مثلي لا ينصرف عن هذا الموضع إلا غالباً أو مغلوباً.

قالوا: فنادى محمد بن مروان عيسى بن مصعب فقال: يا بن أخي، لا تقتل نفسك، لك الأمان.

فقال له مصعب: قد أمنتك عمك، فامض إليه.

فقال: لا يتحدث نساء قريش أنني أسلمتُك للقتل.

فقال له: يا بني، فاركب خيل السبق، فالحق بعمك، فأخبره بما صنع أهل العراق، فإني مقتول ههنا.

فقال: والله أني لا أخبر عنك أحداً أبداً، ولا أخبر نساء قريش بمصرعك، ولا أقتلُ إلا معك، ولكن إن شئت ركبت خيلك وسرنا إلى البصرة فإنهم على الجماعة.

فقال: والله لا يتحدث قريش بأني فررت من القتال.

فقال لابنه: تقدم بين يدي حتى أحسبك، فتقدم ابنه فقاتل حتى قُتِلَ.

وأنخن مصعب بالرمي، فنظر إليه زائدة بن قدامة، وهو كذلك، فحمل عليه فطعنه وهو يقول: يا ثارات المختار. ونزل إليه رجل يقال

له: عبيد الله بن زياد بن ظبيان التميمي، فقتله وحز رأسه، وأتى به عبد الملك بن مروان، فسجد عبد الملك وأطلق له ألف دينار فأبى أن يقبلها وقال: لم أقتله على طاعتك ولكن بئار كان لي عنده، وكان قد ولي له عملاً قبل ذلك فعزله عنه وأهانته.

قالوا: ولما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك، قال عبد الملك: لقد كان بيني وبين مصعب صحبة قديمة، وكان من أحب الناس إليّ، ولكن هذا الملك عقيم. وقال: لما تفرق عن مصعب جموعه، قال له ابنه عيسى: لو اعتصمت ببعض القلاع وكاتبت من بعد عنك مثل المهلب بن أبي صفرة، وغيره فقدموا عليك، فإذا اجتمع لك ما تريد منهم لقيت القوم، فإنك قد ضعفت جداً.

فلم يرد عليه جواباً، ثم ذكر ما جرى للحسين بن علي، وكيف قتل كريماً، ولم يلق بيده، ولم يجد من أهل العراق وفاءً. وكذلك أبوه وأخوه، ونحن ما وجدنا لهم وفاء، ثم انهزم أصحابه وبقي في قليل من خواصه، ومال الجميع إلى عبد الملك، وقد كان عبد الملك يحب مصعباً حباً شديداً، وكان خليلاً له قبل الخلافة. قال: ولما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك بكى وقال: والله ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حيي له، حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم.. نهاية تسجيل ابن كثير.

لا يوجد أوضح من هذا النص في تبيان طبيعة الأشخاص الذين تولّوا على الإسلام والمسلمين، وهؤلاء بالضبط هم الذين توجهوا إلى

شمال أفريقيا والشام، وفي تلك العراق تحت ولاية بشر أخ عبد الملك خدم موسى بن نصير قبل التوجه لأفريقيا. أقارب يقتلون بعضهم، ويقطعون رؤوس رفاقهم، ويحملونها هنا وهناك، ناهيك عن الخيانة لفئات من الشعب، ولقادة جيشٍ هربوا بطلبٍ من الطرف الآخر مقابل رشاوى.

ثوفي عبد الملك بن مروان عام 86 هجرية، ليخلفه ابنه الوليد الذي تسلم ملكاً وطيد الأركان، لا يعكر صفوه ثائر أو خارج عن سلطة الدولة، وقد امتد خلافته من عام 86 هجرية، وحتى عام 96 هجرية، وفي زمانه فُتحت الأندلس، وقد قامت شهرة الوليد على ما تمّ في عهده من فتوح في مختلف الجبهات، وتوفي الوليد تاركاً أمور الحكم لأخيه سليمان بن عبد الملك بناءً على وصية أبيهما. عبد الملك هو الذي طلب وقف تقدم طارق وموسى في بلاد الفرنجة، وألحّ في عودتهم، وأخوه سليمان هو من اتهم موسى بالخيانة المالية، وطالبه بالأموال؛ ليفرج عنه ثم قتل ابنه عبد العزيز في إشبيلية، وجلب رأسه في قفة وضعت أمام موسى بينما كان في صحبة سليمان للحج!! هذه طريقة مبتكرة للاغتيال؛ اذ مات الشيخ موسى من الهم والغم.

الانتقام لم يتوقف بالطبع عند موسى، فقد كان الوليد قبل موته قد عزّم على تولية ابنه عبد العزيز، ووافقه بذلك بعض ولاته كالحجاج، وقد صبّ سليمان غضبه عليهم جميعاً بعد توليه الخلافة. امتدت خلافة سليمان من عام 96 هجرية وحتى عام 99 هجرية، وقد ولى من بعده ابن

عمه عمر بن عبد العزيز المشهور في عدله، ومحاولات التصحيح والإصلاح المالي والتصدي للفساد، وبالطبع قتل المتضرّرون بالسّم سنة 101 هجرية.

الجدير بالذكر أن عمر بن عبد العزيز عزل أغلب الوُلاة الذين كانوا يشرفون على إدارة الأقاليم في عهد من سبقه من الخلفاء، وعيّن مكانهم من كان يعتمد عليهم من الرجال ممن اتصفوا بالصلاح، وعلى الرغم من ذلك كان يراقبهم مراقبة دقيقة، ويطالبهم بإحقاق الحق، ونصرة المظلوم، وإقامة الحدود، وكانت الدولة برأيه لا تصلح إلا بأركانها الأربعة: الوالي، والقاضي، وصاحب المال، والخليفة. اتبع عمر في سياسته المالية الشرع الإسلامي اتباعاً حقيقياً قدر المتاح وخصوصاً منع الفساد، وفرض المحاسبة، وقد عمل على إعطاء الحقوق لأصحابها، وردّ المظالم إلى أهلها، وأمر بني أمية بأن يردّوا ما يملكون من أموال آلت إليهم بغير وجه شرعي إلى أصحابها، أو إلى بيت المال، وطبق هذا الإجراء على نفسه أولاً، وأعطى لكلّ ذي حقّ حقّه، وساد الشعور بأنه يفعل مثلما كان الأمر في عهد جده عمر بن الخطاب، ذلك الفعل الذي أنقصه معاوية بن أبي سفيان، وألغاه عبد الملك بن مروان، إضافة إلى ذلك أنه أعطى الفقراء، والمرضى والعجزة، وأمر بوفاء ديون الغارمين.

تولى يزيد بن عبد الملك (يزيد الثاني) بعد اغتيال عمر بالسّم. وقد لقب الجمهور يزيد هذا بالناقص؛ إذ منع المخصصات التي أعطاها سلفه للجند وغيرهم. يزيد هو الأخ الأصغر للوليد وسليمان، وكان

سليمان قد خصص الخلافة لأخيه هذا بعد عمر، ويزيد مرواني من جهة أبيه، وسفياني من جهة أمه، عاتكة بنت يزيد الأول، وكان يفخر بذلك مُدعيًا أنه أفضل بني مروان، ويقول أنه يخاف على نفسه من الحسد. وصفه كثير من المؤرخين بالفسق والمجون والكسل والاستهتار، وولعه بجاريتين كانتا عنده، ولهما كل النفوذ.

توالى تولّي المروانيين للحكم سواء أكان بانقلابات على بعضهم، وتخوف كل من يتولى أن يفقد الملك حتى وقعت معركة الزاب مع أشدّ معارضيه من أبناء عموتهم وهم العباسيون الذين ورثوا دولة إسلامية ممتدة الأطراف مريضة القلب، وتكررت أحداث مشابهة في زمن الخلافة العباسية حتى أسقط المغول الخلافة في بغداد رسمياً في زمن الخليفة المستعصم بالله، وهو الخليفة السابع والثلاثون وآخر خلفاء الدولة العباسية في العراق، سنة 656 هجرية.

التَّجْرِبَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ

لم تكن الدولة العباسية وليدة اللحظة، بل كان لها مراحل بدأت على يد مؤسس الدعوة؛ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان مُتمركزاً في منطقة الحميمة (قرية في محافظة معان)، وبدأ دعوته السرية سنة 99 هجرية، أي في عهد خلفاء بني أمية، وقد استمرت الدعوة سرية حتى وفاة محمد بن علي هذا، لتنتقل بعد ذلك إلى المرحلة العلنية. لقد اتخذت الدعوة ثلاث مراكز هي: الحميمة، الكوفة، خراسان، وقد كان ضعف الدولة الأموية، والصراع الداخلي من أسباب نجاح الدعوة العباسية، إضافة إلى ترويج نسبهم المتصل بالرسول محمد، ثم اشراكهم لآل البيت. (نجاح الدعوة العباسية يُقصد به نجاحهم في الاستيلاء على السلطة من غيرهم، لكن مع استمرار النهج ذاته، وبالعقلية ذاتها، والمستمرة حتى الآن).

لم تكن الخلافة العباسية أسعد حالاً من الأموية، بل اضطرت، لحماية أطراف الدولة على الحدود مع بيزنطة، ومواجهة الثورات المتتالية في خراسان، وفشلت الخلافة بسرعة في استمرار التحكم المركزي في الأطراف، وذلك لأسباب داخلية وخارجية. كان الأمويون قد أضعفوا ثورات الخوارج، ولكنهم لم يقضوا عليهم، فعادوا للثورات والثمرد والانتشار في ربوع الخلافة، وتحديداً في شبه الجزيرة، وتحت الضغط العسكري عليهم، وخصوصاً في عهد هارون الرشيد الخليفة العباسي الخامس، تسربلوا إلى شمال أفريقية وقويت شوكتهم هناك.

كانت خراسان إحدى ثلاث قواعد؛ للعمل السري العباسي خلال العهد الأموي، وقد اعتمدت الحركة كثيراً على الفرس، واستقوت بهم وتألفت معهم بُحْجَةً أن الأمويين لم يعطوا الفرس مراكز في دولتهم. اتحد مع العباسيين والفرس الطرف الثالث، وهم العلويون الطالبيون، آل البيت، الذين كانوا منذ البدايه على قناعة أنهم الأحق بالخلافة. تماشى العباسيون مع رغبة أبناء عمومتهم لكسب تعاطف عامة المسلمين ولكنهم تخلوا عن نظرتهن هذه وتهادن العلويون (نسبة إلى علي بن أبي طالب) في البدايه مع هذا الخذلان أثناء عهد السفاح، لكن موقفهم تحول للمعارضة بعد موت الخليفة العباسي الأول. ثم توالى الصراعات، وفي مقدمتها؛ الداخلية حيث تخلص العباسيون من أبرز رجالاتهم، من قامت الدولة على أكتافهم بالدم والعرق والجهد في سنوات الدعوة والثورة، مثل؛ أبي سلمة الخلال، وزيرهم الأشهر، وأبي مسلم الخراساني قائدهم العسكري الفذ، وأخيراً؛ صالح بن علي العباسي عم الخليفة الثاني أبي جعفر المنصور، أخ السفاح، الذي كان أول من تولى على مصر في عهد أخيه؛ أذ رأى العمُّ صالح نفسه الأجدر بالخلافة من ابن أخيه الصَّغير، لكنه مُني بهزيمة ثقيلة، وتم التخلص منه على إثرها، وصالح؛ حفيد لعبد الله بن عباس.

أبو جعفر هذا هو عبد الله الثاني بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وأمه سُلَامةُ البربريةُ إحدى المسييات من شمال أفريقيا، بينما كانت أم أخيه السفاح زيطه بنت عبيد الله الحارثي، وهي أول أم حُرّة من ثلاثة للخلفاء العباسيين السبعة والثلاثين.

ظهر صراع أبناء العمومة العباسيين والعلويين علانية في عهد هارون الرشيد، الذي واجههم في عصره حتى وصّمه خصومه من هذه المسألة بالشدة والقسوة، واتّهموه بالطغيان، لكن للأمر بعده التاريخي والسياسي في عصر الرشيد، ذلك أنه حين ارتقى هارون الرشيد بعد وفاة أخيه الهادي منصب الخلافة في شهر ربيع الأول عام 170هـ، كان في الخامسة والعشرين من عمره، يرى أمامه مجموعة من التّحديات الدّاخلية الكبيرة، وعلى رأسها المعارضة العلويّة الطّالبيّة التي لم ترض في أغلبها بصعود بني أعمامهم العباسيين إلى عرش الخلافة وخذلانهم بعد هزيمة الأمويين؛ إذ كانوا يظنّون أنهم سيتسلّمون الخلافة، وليس السّفاح وإخوته وأبنائهم، وهذا ما دفع هارون الرشيد للقسوة. كان الشعار المشترك زمن الثورة في خراسان أثناء الاغوام الأخيرة من عهد الأمويين: الرضا من آل محمد، وهو شعار براق خدّاع، جعل عموم الناس تنضم للواء الثورة ظناً منهم أن النّهاية ستكون تويجاً لارتقاء آل البيت من أحفاد علي وفاطمة الزّهراء، ولعب العباسيون على هذا الوتر، ورأوا أنهم أولاد عمّ رسول الله فهم ليسوا بعيدين عن هذا الأمر، لكن في النّهاية استقلّوا بالحكم.

كان الخلاف العباسي العلوي قد بدأ فور غياب السفاح عام 136 الذي كان قد أعلن من معقل الشيعة في الكوفة أن الخلافة عباسية، وستظل عباسية، وأنه ليس لأحد أيّ حقّ فيها إلّا هم، في إشارة بمنافسهم من الطالبين وتعريض بهم. على أن هذه العلاقة التي اتّسمت بالخطر في عصر السفاح دخلت في طور الصّدّام في خلافة أخيه أبي

جعفر المنصور، فقد أعلن محمد بن عبد الله النفس الزكية وأخوه إبراهيم، وهما من فرع الإمام الحسن بن علي بن ابي طالب، الدَّعوة إلى نفسه من قبل مجيء العباسيين إلى الحكم، وصار لخطابه ودعايته تأثير، وأتباع وشيعة في كلٍّ من الحجاز والعراق وخراسان، ومن ثم أعلن عن نفسه خليفة في المدينة المنورة في عام 145، وذهب أخوه إبراهيم إلى البصرة، ورفع راية الانتفاضة. تدخل العباسيون بَقُوَّة مسلَّحة في المدينة المنورة، وانتهى الأمر بمقتل محمد بن عبد الله النفس الزكية ومصادرة أموال بني الحسن، وفي العراق انهزم إبراهيم أخو النفس الزكية، ولقي حتفه في معركة وقعت بين الجانبين في منطقة باخرا قرب الكوفة، وبدأت السِّياسة العباسية تدخل مرحلة البَطْشِ بمَنافسيهم العلويين، الذين أعلنوا بدورهم العصيان المُسلَّح، لكن الأمور هدأت قليلاً في عصر المهدي بن جعفر المنصور.

في عصر موسى الهادي بن المهدي، وعلى قِصَر حُكمه، عادت الأمور إلى الاضطراب مرَّةً أخرى، بسبب السياسة العنيفة التي اتبعها الهادي، الأمر الذي أجبر العلويين على إعلان العصيان، والخروج المسلح ضد الهادي بزعامة كبيرهم الحسين ابن علي في شهر ذي القعدة سنة 169، فاستولى على المدينة المنورة، وأتخذ المسجد النبوي قاعدة له، وحاول استمالة مكة وأهلها، لكنهم لم ينصروه، ولم يبايعه أحد، وسرعان ما جاء جيش الهادي العباسي؛ ليقته في منطقة "فخ" شمال مكة المكرمة معقل القرشيين الأمويين والعباسيين والعلويين.

حين جاء هارون الرشيد تظاهر بسياسة جديدة، تقوم على التساهل والتسامح مع الطالبين من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب، فعزل والي المدينة المنورة الذي كان يعمل على اضطهاد العلويين في زمن أخيه الهادي، ورفع الحجر عمن كان منهم في بغداد. لكن، وفي إثر معركة "فخ" التي حدثت قبيل الرشيد، هرب اثنان من كبار العلويين هما؛ إدريس بن عبد الله العلوي وأخوه إبراهيم، الأول استطاع أن يشكّل نواة الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى، والثاني فر صوب المشرق في مناطق الديلم جنوب بحر قزوين، وحاول إقامة دولة هناك هو الآخر.

واجهت هذه التطورات هارون الرشيد، واعتبرها محاولات لتفتيت الدولة العباسية بإقامة دويلات مستقلة في المشرق والمغرب، فقرّر هارون المواجهة الشاملة استخباراتياً وعسكرياً، وبالفعل استطاع أن يقبض على إبراهيم بن عبد الله العلوي بالحيلة، ويزجّ به في السجن، وحاول مرّاتٍ كثيرة مع أخيه إدريس بن عبد الله، لكنه فشل، إذ تحصّن إدريس العلوي بين قبائل البربر التي قدّمت له الدعم والتأييد، كما استفاد من جغرافية المغرب وبعدها عن بغداد. لم ينته خطر العلويين، فقد ظهرت شخصية أخرى أثارت قلق هارون الرشيد، وكانت ذات زعامة وكاريزما، تمثّلت في الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وقد التفت الناس حوله، واعتقدوا في إمامته، بل وتشير بعض الروايات إلى أن هارون حين زار المدينة المنورة، ووقف أمام قبر النبي وحياء: السلام عليكم يا بن عم! فرد موسى الكاظم -وكان واقفاً- قائلاً:

السلام عليكم يا أبت. الأمر الذي جر عليه غضب الرشيد الذي رأى أن الكاظم يحط من شأنه ونسبه؛ لذا أمر بالقبض عليه والزج به في سجن بغداد. ظل الكاظم في سجنه "غير مُضَيَّق عليه" على حد تعبير العلامة الذهبي.

بينما كان هارون الرشيد مشغولاً بأبناء عمومته، ويتصدى للبيزنطيين؛ دفاعاً حيناً وهجوماً أحياناً، كانت مراكز قوى تتشعب في التَّحْكُم بالخلافة، وهم البرامكة الذين يعود أصلهم إلى أفغانستان. كان القوم قد أسلموا، وبرز منهم خالد بن برمك في خراسان فقرَّبَه السفاح إليه، ثم قلَّدهُ المناصب عندما تولى الخلافة، وواصل البرمكي خدماته في عهد أبي جعفر المنصور، وفي عهد ابنه المهدي الذي عينه والياً على فارس كلها. اشتغل ابن خالد، يحيى، أيضاً في الخدمة، وتزوج وأنجب الفضل وجعفر الذين ساهموا لمدة سبعة عشر عاماً في الخدمة مع هارون الرشيد، وتعين الفضل والياً على شرق الخلافة، بينما اشتغل جعفر في مُنادمة الخليفة، وأشركه في ولاية المظالم، وسلَّمه ضرب العملة، بل كتب اسمه على العملة في بغداد، وأوكل له هارون الرشيد ولاية شؤون المغرب، وهو مقيم في بغداد، وغير ذلك من المهام مثل تربية ابنه، فأصبحت الخلافة في أيدي البرامكة، وتمكنوا من الأمر إلى درجة طلب هارون للنقود منهم كلما احتاجها. الابن الثالث ليحيى البرمكي، كان قائداً عسكرياً كبيراً، وتولى أمر الشام سنة 186. كان خالد البرمكي مربياً لهارون في الصغر، وعندما حاول موسى الهادي خلع أخيه هارون

تصدى خالد البرمكي، وحفظ العرش لهارون، ولذلك وثق بخالد وبنيه وأحفاده.

اشتغلت النصائح والدسائس لدى هارون ضد هذا الخطر البرمكي، ذكروه أنه محاصر بينهم، وأنهم يظلمون العباد في شرق وغرب الخلافة مما سيثير الثَّمة، ثم تذكر الخليفة أنهم من الفرس، وأن أهل خراسان صاروا يستشعرون القوة وأحقيتهم في السلطة، وممارستها على الطراز الفارسي، بل كثر الحديث عن أن البرامكة أصلاً ملحدون ويعتقون الديانة الفارسية، وفي ذلك يقول الأصمعيُّ المعاصر لتلك الأحداث، واحد كبار علماء اللغة والأدب الذين طالما جالسوا هارون الرشيد، يقول ذاماً البرامكة، ومُعرضاً بدينهم وعقيدتهم:

إِذَا ذُكِرَ الشُّرْكُ فِي مَجْلِسٍ ... أَنَارَتْ وَجُوهَ بَنِي بَرْمَكٍ

وَأَنْ ثَلَيْتَ عِنْدَهُمْ سُورَةَ ... أَتَوْا بِالْأَحَادِيثِ مِنْ بَرْمَكٍ

لا يوجد سبب مباشر معروف؛ للتنكيل الفجائي بالبرامكة، فلا يُعتَقَد أن هارون الرشيد نكّل بهم لقلة دينهم، لكن؛ يقال إنهم حاولوا إظهار الزندقة، وإعادة دين المجوس مرة أخرى، وأنهم أدخلوا النار في الكعبة حتى تعبد هناك، والذي ساعد على ترويج هذه الفكرة مصاحبة جعفر بن يحيى لبعض المتهمين بالزندقة، أمثال أنس بن أبي شيخ الذي قتله هارون الرشيد بيده.

كما أنه لم تظهر منهم خيانة سياسية أو انقلابية، لكنهم بالطبع اغتبنوا وهيمنوا على مفاصل الدولة وكان بوسعهم الإطاحة بالخليفة في

أي وقت، وربما هذا ما أخافه بالإضافة لكثرة الذم فيهم من غيرهم، وخصوصاً الفضل بن الربيع الذي شوه صورتهم لدى الرشيد واثبت له أن البرامكة يعملون مع الطالبين؛ لأخذ الخلافة من العباسيين، وهذا بالطبع تهديد مباشر للكرسي لا يمكن السكوت عليه.

هناك حدث ربما يكون السبب، أو أنه تفاعل مع بقية الأسباب وحسم الأمر. كان هارون يستأنس في الجلوس مع أخته العباسية، ومع جعفر البرمكي، وأحب جعفر العباسية وأحبته، وكثر الكلام عن جلوس أخت الخليفة مع رجل غريب، فقرر هارون الرشيد تزويجهم، ولكن بشرط عدم إتمام الزواج في الفراش، وهذا ما حصل. لكن العباسية وجعفر أخذهما الشوق وتساررا من دون علم هارون الذي اكتشف لاحقاً أن أخته حملت من زوجها جعفر، فغضب وباشر في النقمة على البرامكة، وأنقلب عليهم بادئاً بقتل نديمه ونسيبه جعفر، وحصار كل إخوته وخدمه والاستيلاء على أموالهم وقصورهم في ربوع البلاد .. ثم أمر بتقطيع جعفر إلى عدة أجزاء، وتعليقها في أماكن ظاهرة في مدينة السلام، بغداد، "ونصب رأسه على الجسر الأوسط، وقطع جثته، وصلب كل قطعة منها على الجسر الأعلى والجسر الأسفل"، وهذا يُذكر بما فعله محمد بن سلمان حين جمع أقاربه في الفندق، سجنهم وهددهم وأخذ أموالهم، ثم ما أمر بفعله في الصحافي جمال خاشقجي عام 2018 ميلادية حين أمر بتقطيعه وحمل رأسه من اسطنبول إلى الرياض، مع فاروق أنه أخفى بقية قطع الجثة، لكن الأشهار حدث في الحالتين؛ لارهاب من تسول له نفسه بالمعارضة.

مرّت الخلافة العباسية بعدة مراحل، بدايه العصر الأول؛ وهو شباب الدولة الذي امتد طوال المئة عام الأولى، وشهد تسعة خلفاء، أولهم السفاح، وآخرهم هارون بن محمد. في العصر الثاني؛ حكم 16 خليفة من 232 إلى 446 هجرية، وكان عصرًا اتسم بالضعف والانحطاط؛ اذ استقل ولاة الأقاليم في شؤونهم، وأسّسوا دولاً مستقلة عن بغداد، وأصبح الجيش هو الذي يعيّن الخلفاء، فكثُر قتلهم، أو خلعهم، بل وسجنهم، ومعظمهم، مثل غيرهم من العباسيين كانوا أبناء مسبياتٍ وخادماتٍ. العصر الثالث؛ أنتسب إلى آل سلجوق تحت زعامة طغرل بك الذي تزعم الدولة الغزنوية، ودخل بغداد بطلبٍ من الخليفة، وعيّن طغرل سلطاناً، وانتهى هذا العصر بدخول المغول بغداد بعد أن تبدّل اثني عشر خليفةً على المنصب، مات آخرهم رفساً من بغال التتار.

عندما سمع وريث عباسي بانتصار المماليك، وهزيمة التتار في عين جالوت عام 658 توجه إلى القاهرة، وأثبت ذاته كالمستنصر بالله، وأتتمة العباسي فبايعه السلطان الظاهر بيبرس كخليفة اسمياً، واستمرّ توالي ثمانية عشر خليفة حتى دخل العثمانيّ، سليم الأول مصر فاتحاً، فتنازل له الخليفة؛ محمد المتوكل على الله وبدأت أربعة قرون من الخلافة العثمانية الاسوأ مما سبقها.

سجون وتعذيب

كلُّ الدُّولِ الدِّينِيَّةِ تستسهلُ التعذيبَ للمعارضين، وتلجأ لتقليد الأساليب الإلهية، وفي مقدّمها الحرق بالنار، وسلخ الجلود، وغير ذلك من أوصاف الجحيم العقابي الإلهي .. وطالما الخليفة، أو من يمثله إنما يمثلون الدين والآلهة مباشرة، فلا بأس من استعجال ذلك العقاب في الدُّنيا للزُّنادقة الذين هم في العادة من كبار العلماء والفلاسفة حين يطرحون الأفكار التَّنويرية التي يفسرُها شيوخ السلطان زندقة، كونها تهددُ في النهاية التصريح الذي يحكمون به، فيستمر الإرهاب والعقاب، ويُفرضُ التَّخلفُ على المجتمع فرضاً كما حدث في كل (الخلافات) الإسلامية، بدايه من الرّاشدية والأُمويّة بشقيها في الشّام والأندلس، والعباسية بعصورها الأربعة، وبالطبع الخلافة العثمانية، ولا زال التعذيب والقتل بتصريح ديني يمارسُ في الدول الإسلامية رسمياً، مثل؛ السعودية وإيران، أو في الدُّول المعتمدة في دساتيرها على الشريعة الإسلامية، إذ كلها تحكم بالزندقة وبالردة على كل منتقد، ومن دون حوار معه.

أما في الدول التي تحترم الإنسان وحرّيته وحقوقه، فلا شيء من هذه الهمجية، وبوسع الفرد مقاضاة أي مُخلٍ بحقوقه في جهاز الدولة، علماً أن هذه الدول، حين كانت دينية، هي التي اخترعت السِّلخَ والخوزقة والكِيَّ بالنّار، وقطع الأطراف للزُّنادقة وأحراق الكتب العلمية والفلسفية واصحابها. قبل الإسلام بثلاثة قرون؛ إذ باشر الحاكم

الروماني (كونستنتين) باعتناق المسيحية، وقرر أن يصبح إمبراطوراً على شقي بلاد الروم، فأعلن شعاراً: "دولة واحدة، إله واحد، إمبراطور واحد! وهكذا أصبحت أوروبا مسيحية، وبعد أن كان المسيحيون معذنين صاروا يُعذبون أصحاب المعتقدات الأقدم.

لم يعرف عربُ الجاهلية في شبه الجزيرة السجون والتعذيب الجسدي المنظم، ولكن دول العرب النصارى، مثل؛ المناذرة في الحيرة نقلوها عندهم عن الفرس، واشتهر لديهم سجن الصنين وسجن الثوية، وكان أيضاً للغساسنة سجن اعتُقل فيه أيام الجاهلية سعيد بن العاص، فجمع له ثُجَّار من قريش مالاً وافتكَّوه. في عهد الرسول لم يُخترع السجن الإسلاميُّ بعدُ، وتم سجن زعيم اليمامة في المسجد النبوي، واعتُقل مبعوث مسيلمة في بيوت للصَّحابة. كما عاقب الرسول أناساً من قبيلة عرينة نزلوا المدينة، وأسلموا وأصابهم مرض، "فإنزلهم صلى الله عليه وسلم الحرة في طائفة من إبل الصدقة، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها، فلما صحوا وسمنوا، ارتدوا عن الإسلام، وقتلوا راعي النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، واستاقوا الإبل، فبعث في آثارهم وقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم"، وبالطبع تُركوا للموت. (كما ورد في الصحيحين).

في عهد عمر بن الخطاب أُقيم أولُ سجنٍ للمسلمين، فقد اشترى دار صفوان، وحولها إلى سجن في مكَّة، وقد أودع به الشاعر الخطيئة. كذلك سجن عمر صبيغ بن عسل، وأوسع ضرباً كونه كان في مصرَ

يسأل المسلمين عن المشابهات في القرآن فلا يعرفون الإجابة، فأرسله ابنُ العاص إلى ابن الخطّاب مع تقرير عن آرائه وأفعاله. فلمّا دخل صبيغ على الخليفة قال له عمر: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله صبيغ، فقال عمر: وأنا عبدُ الله عمر، ثمَّ أهوى إليه، فجعل يضربه بتلك العراجين (عصيٍّ من النّخيل)، فما زال يضربه حتى شجّه، فجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنتُ أجدُّ في رأسي، ثم بدأ صبيغ التّميميُّ بسؤال عمر بقوله: أخبرني عن { والذاريات ذروا } قال: هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول يقول ما قلته، قال صبيغ: فأخبرني عن { فالحاملات وقرأ } قال: هي السحاب، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما قلته، قال: فأخبرني عن { فالجاريات يُسرّاً } قال: هي السّفن، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما قلته. قال: فأخبرني عن { فالملقّسات أمراً } قال: هن الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما قلته، فأرسل عمر إلى رطائب من جريد، ثم أمر به فُضرب مائة وجعل في بيت، فلما برأ دعا، فضرب مائة أخرى، وضربه بها حتى ترك ظهره دبرة، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ، فدعا به ليعود له، فقال صبيغ للخليفة: أن كنت تريد قتلي، فاقتلني قتلاً جميلاً، وأن كنت تريد أن تداويني، فقد والله برأت. فأذن له، وبعث إلى أبي موسى الأشعري، وأهل العراق أن لا يجالسوه المسلمين، فلو جاء إلى حلقة ما هي قاموا وتركوه .." (ابن حجر العسقلاني والدارقطني، وغيرهم)

حين جاء الإسلام استندت منظومة العقوبات فيه على تعاليم القرآن والسنة النبوية، فكان القصاصُ تبعاً لنوع الجرم المرتكب، بيد أن ثمة عقوباتٍ وجنایاتٍ أخرى التزم فيها بمبدأ "التعزير" وهو التأديب على ذنوب لم تُشرع فيها الحدود، فاستلزم التعزير وجود سجون، وهذه التعازير كانت اجتهادية بقدر الفعل والفاعل ووجه الفعل. المسلمون اقتبسوا نظام السجون من الحضارات الأخرى، وفقَ نظرةٍ قانونيةٍ مُستلهمةٍ من تعاليم دينهم، لكن؛ سرعان ما انحرفوا عنها خصوصاً عندما يكون نصُّ العقاب غير مُنطبقٍ على الجرم.

في عصر الأمويين (41-132هـ) اتسعت دائرة السجون، حيث أمر معاوية بن أبي سفيان ببنائها بولايات الدولة، وقد سجن معاوية بعض أقاربه لما بدر منهم من مخالفات، مثل محمد بن حذيفة الذي كان شريكاً في فتنة مقتل عثمان، فسجنه بسجن دمشق. وفي أيامه اتخذ الدار الخضراء قصراً للإمارة بدمشق وجعل فيها الشرطة والحُجُوس كما يذكر المسعودي. وتذكر مصادر تاريخ الأمويين سجوناً بالولايات المختلفة، ففي المدينة المنورة اتخذ الوالي سعيد بن العاص الأموي سجناً كان من نزلائه الشاعر؛ هذبة بن خشرم العامري.

كان سجن الكوفة من أشهر السجون، وعلى درجة عالية من الحصانة والقوة وبه ساحة خارجية. يقول الطبري متحدثاً عن أيداع أتباع الحسين بن علي بعد قتله، وقطع رأسه في كربلاء، فقد أخذوا

حفيدات الرسول ومن تبقى على قيد الحياة إلى سجن الكوفة، قبل حملهم إلى يزيد بن معاوية في الشام.

بدوره اتخذ الحجاج بن يوسف الثقفي (مات 95هـ) والي العراق وبلاد المشرق الإسلامي سجوناً كان أشهرها 'سجن الدير' بمدينة واسط عاصمة ولايته. ويصف ابن الجوزي جانباً من فظاعة هذا السجن، فيقول إنه "حائط محوط، ليس فيه مآل (= مأوى) ولا ظل...، فإذا أوى المسجونون إلى الجدران يستظلون بها رمتهم الحرس بالحجارة، وكان يطعمهم خبز الشعير مخلوطاً به الملح والرّماد، فكان لا يلبث الرجل فيه إلا يسيراً حتى يسودّ فيصير كأنه زنجي!!"

يحكي الأصفهاني في 'محاضرات الأدباء' - أن الحجاج "خرج.. يوماً إلى الجامع فسمع ضجة عظيمة، فقال: ما هذا؟! قالوا: أهل السجن يضحجون من الحر!! فقال: (اخسؤوا فيها ولا تُكَلِّمُون)! هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: اخسؤوا فيها، أي: امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء، ولا تُكَلِّمُون أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي. (تفسير ابن كثير لسورة المؤمنون). وقال الهيثم بن عدي (الطائي المؤرخ المتوفى 207هـ): مات الحجاج، وفي سجنه ثمانون ألفاً، منهم ثلاثون ألفاً امرأة!!"

روى الكاتب أحمد بن المديبر (توفي 270هـ) أنه أُلقي به في سجن أحمد بن طولون بمصر، وكان سجنًا شديد الضيق وفيه خلق وبعضنا

على بعض، فحُبس معنا أعرابي فلم يجد مكاناً يقعد فيه، فقال: يا قوم! لقد خفتُ من كل شيء إلا أني ما خفتُ قط ألا يكون لي موضع في الأرض في الحبس أفعُدُّ فيه! ولا خطر ذلك ببال، فاستعيزوا بالله من حالنا!!". وقد روى العديدُ من سجناء الرأي في مصر في القرن الحادي والعشرين أنَّهم كانوا يتناوبون بين النوم والوقوف؛ لضيق المكان.

عن أبشع حالات التعذيب يذكر ابن الأثير أن قائداً للخوارج يدعى محمد بن عبادة أَسْرَ في أيام المعتضد لله (توفي 289 هجرية)، فسُلخ جلده كما تُسْلَخُ الشَّاةُ. ونقل ابن الأثير حادثاً آخر كان ضحيته أحمد بن عبد الملك بن عطاش صاحب قلعة أصفهان الإسماعيلية، وكان السلاجقة قد حاصروا القلعة بقيادة السلطان محمد بن ملكشاه (500 هجرية)، ثم افتتحوها وأَسْرَوْا صاحبها؛ ابن عطاش. ويقول ابن الأثير: فسُلخ جِلْدَه حتى مات، ثم حشَى جلده تَبْناً. والغرض من حشوه عرضه بعد ذلك للتشهير والتخويف. كما يذكر أيضاً أن المَعزَّ الفاطميَّ سُلخ العلامةَ أبا بكر النابلسي كونه عَارِضَ الفاطميين. "بعد أن استولى الفاطميون على الشام هرب العلماء من منطقة فلسطين وبيت المقدس، حيث كان الفاطميون يُجبرون علماء المسلمين على لعن أعيان صحابة رسول الله على المنابر، ولما ظهر المَعزُّ لدين الله بالشام، واستولى عليها أبطل التَّراويح، وصلاة الضُّحى، وأمر بالقُنُوتِ في الظهر بالمساجد، وكان الإمام النابلسي ممن هرب من العلماء من وجه الفاطميين الذي هرب من الرملة إلى دمشق، وكان من أهل السُّنَّةِ والجماعة، وكان يرى

قتال الفاطميين. وقال النابلسي: لو كان في يدي عشرة أسهم كنت أرمي واحداً إلى الروم وإلى هذا الطاغى تسعة.

بعد أن استطاع حاكم دمشق التَّغْلِبَ على القرامطة أعداء الفاطميين، قام بالقبض على الإمام النابلسي، وأسرّه وحبسه في رمضان، وجعله في قفص خشب، ولما وصل قائد جيوش المعز إلى دمشق، سلّمه إليه فحملهُ إلى مصر. فلما وصل إلى مصر، جاء جوهر للمُعزّ لدين الله بالزّاهد أبي بكر النابلسي، فمثل بين يديه. فسأله: بلغنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم وجب أن يرمي في الروم سهماً وفيناً تسعة، فقال الإمام النابلسي: ما قُلْتَ هكذا، ففرح القائد الفاطمي، وظن أن الإمام سيرجع عن قوله. ثم سأله بعد بُرْهة: فكيف قُلْتَ؟ قال الإمام النابلسي: قلت: إذا كان معه عشرة وجب أن يرميكم بتسعة، ويرمي العاشر فيكم أيضاً! فسأله المعز: ولمَ ذلك؟! فردّ: لأنكم غيرتم دين الأمة، وقتلتم الصالحين، وأطفأتم نور الإلهية، وادعيتم ما ليس لكم. هكذا أمر المُعزُّ بإشهاره في أوّل يوم، ثم ضُرب في اليوم الثاني بالسيّاطِ ضرباً شديداً مُبرحاً. وفي اليوم الثّالث، أمر جَزَّاراً يهودياً - بعد رفض الجَزَّارين المسلمين - بسلخه، فسُلخ من مَفرقِ رأسه حتى بلغ الوجه، فكان يذكر الله ويصبر، حتى بلغ العُضد، فرحمه السّلاخُ اليهوديُّ، وأخذته رقة عليه، فوَكز السّكين في مَوْضِع القلب فقضى عليه، وحشي جلده تبناً وصُلب على أبواب القاهرة..؛ لإرهاب أيّ معارض، فلا مجالَ للحوارِ أو حتى للسّجن أو الإعدام السريع. وسُلخ النابلسي في سنة ثلاث وستين وثلاثمئة من الهجرة.

من مشاهير المصلوخين؛ هناك عماد الدين الشيرازي البغدادي من أصحاب النهج الحروفي، والمشتهر في شعره بلقب نسيمي. له ديوانان؛ شعر واحد نظمهُ بالفارسية وآخر نظمهُ بالتركية. وله عدة قصائد عربية. من حيل فقهاء حلب البغيضة في حالة التَّسيميِّ الصُّوفيِّ، أن واحداً منهم، كما تروي كتب التاريخ، وضع في طباقٍ نعلٍ أهده إلى النسيميِّ سورة "قل هو الله أحد" وأبلغ عنه! فاستخرجوا الورقة.. فسلمَّ الشيخ أمره لله وعلم أنه لا بد مقتول. تقرر مصيره في مدينة حلب التي كانت تابعة لسلطين المماليك آنذاك، فاجتمع العلماء وأعلنوا كفره، وأفتى المفتي بقتله، وقد قُتل شرّاً قتلة وسُلخ حياً، ولموته قصة تستحق الذكر. قيل أن مفتي حلب كان من شهود قتله، وأعلن وقتها أن النسيميِّ نجس ويموت ميتة نجسة: "ولو وقعت نقطة من دمه على جارحة من جوارحي لقطعتها". وكان من عجيب الصدف أن أصاب المفتي بعضاً من دم النسيميِّ في أثناء كشط جلده، وهو يُعذَّب ويسلخ، وسقطت نقطة على إصبع المفتي، فتنبّه إلى ذلك أحد الصوفية الحاضرين، فالتفت إلى المفتي، وقال: لقد سقطت نقطة من دمه على إصبعك، فاقطعها كما وعدت بذلك أيها المفتي، فذعر المفتي، وقال: كلا، إنما قلت ذلك حينما كنت أمثل لكم، وليس في التمثيل من حرج.

يتلخّص المذهب الحروفيُّ الذي اتَّهم به النسيميِّ في أن هناك علماً خفياً لا يحيط به إلا كل ذي حظ عظيم في التجربة الروحية، وبه يفسّر كل موجود في الأرض والسماء ويشرح من خلاله الروابط التي تجمع بين الموجودات، وأصل هذا العلم في القرآن، غير أن مفاتيح خزائنه في

يد الصوفية، ثم في يد خلفائهم ومريديهم، ممن أنضجتهم التجربة، وورثوا العلم، ومنحهم الله ذوقاً وعلماً من لدنه. وقد خلق الله الإنسان على صورته، وهو معبود الملائكة، إلا إبليس الذي أبى أن يسجد له، وللقرآن معان سامية، وكذلك لأركان الإسلام، إلا أنه لا ينبغي الوقوف عند هذه المعاني الحرفية، وللحروفية أصول اعتقادية، فالحروفية يرون أن رأس الإنسان بمثابة سورة ألفتحة، وأعضاء الإنسان مقدسة عندهم .

من رباعيات النسيمي التي يذكر فيها الأركان التي يقوم عليها المذهب الحروفي:

يا من جمالك قل هو الله أحد

ونقش صورتك الله الصمد

غداً ترك لها طرف في الأزل، وآخر في الأبد

وشيطان كل من لم يسجد لحسينك مع الساجدين.

هذا الكلام ومثله من التغزل في الذات الإلهية اعتبروه كفراً وزندقة تستحق السلخ. في الحقيقة؛ إننا لازلنا وبشكل متسارع نشهد تكفير الشيوخ والحكام والقضاة الشرعيين لكُتّاب، وخصوصاً لشعراء مُجَنِّهٍ أنهم يهاجمون، أو يقلّلون من احترام الذات الإلهية أو الرسول أو يسيئون للدين، ويعتبرونهم مُرتدّين، ويطالبون بقتلهم أو سجنهم، وقد هرب الكثيرون منهم إلى بلاد الكفار. ويبدو أن مصطلح: هرب بجلده، يعود لتكرار قصص السلخ للبعض، وهروب البعض الآخر بجلودهم.

لم يأت المسلمون بأسلوب السلخ من بنات أفكارهم، فقد طبق هذا العقابُ في الحضارات السَّابقة. في القرن السادس قبل الميلاد، وفي عهد قمبيز الثاني تم سلخ جلد القاضي سيسامنيس، الذي، حسب رواية (هيرودوت)، كان فاسداً، وتقبل رشوة لإصدارِ حُكْمٍ ظالمٍ، فسُجِنَ وعُذِّبَ وسلِّخَ، وأخذت سيور من جلده لُفَّت حول كرسي القضاء الذي كان يجلس عليه، والذي سيجلس عليه ولده من بعده. وسلخ العامةُ الفيلسوفة الاسكندرانية (هيباتيا) عام 415 ميلادية .. تم سحلُها ثم سلخوا جلدَها بالأصداف البحرية. عاشت (هيباتيا) في مصر الرومانية، هي فيلسوفة تَخَصَّصَتْ في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، وهي تعد أول امرأة في التاريخ يلمَعُ اسمها كعالمة رياضيات، كما لمعت في تدريس الفلسفة، وعلم الفلك وماتت على يد حشدٍ من المسيحيين بعد اتهامها بممارسة السحر، والإلحاد والتَّسبُّب في اضطرابات دينية.

تذكر دراسات أثرية اللجوء إلى سلخ البشر في الإمبراطورية الآشورية، وهو تقليد كان يمارسه الآشوريُّون منذ عهد آشور ناصربال الثاني، وكانوا يتفاخرون به ويخلدونه في نقوشهم ومراسيمهم الملكية على حدِّ سواء، وكانت المراسيم الملكية تتضمنُ تباهي الملك بإنزاله هذا المصير على أسراه، كما يبدو أن السلخ كان هو العقوبة المختارة للقادة المتمردين، وذلك كما ورد في نص منسوب إلى آشور ناصربال الثاني، جاء فيه: قد صنعت عموداً قبالة بوابة المدينة، وسلَّختُ كل القادة العُصاة (المعارضين)، وكَسوتُ العمود بالجلد المسلوخ .. قد أمرت بزعماء المدن المقهورة، فسلخوا وكسوت جدران المدينة بجلودهم،

والأسرى قتلهم بالسيف وطرحتهم على كومة الرُّوث، والصبية والبنات أُحرقوا.

استمر هذا السِّلْخُ عبر البشرية وفي أوروبا، وفرنسا تحديداً حتى القرن الثامن عشر، أي مصاحباً لفترة طويلة مع الإسلام. حين سرقت كنيسة إنجليزية عام 1303 للميلاد عثر لاحقاً على جلد بشري يغطي باب الكنيسة، وقد وجدت أيضاً على أحد أبواب كنيسة أخرى في مقاطعة إسكس الإنجليزية بقايا جلد بشري. في الصين أيضاً اشتهر أباطرة بسلخ وجوه الناس، ومنهم الخدم والموظفون الذين يخطئون، وكذلك المتمردون والمعارضون، وأمر الإمبراطور هونغوو (القرن الرابع عشر) بسلخ خمسة آلاف امرأة، وتزعم المصادر الصينية أن هونغوو كان له علاقات وثيقة مع المسلمين وكان له حوالي عشرة جنرالات مسلمين في جيشه.

هناك معرفة شائعة عن حضارة الأزتك في المكسيك على إقامة طقوس لسلخ قرايينهم البشريّة، وكان ذلك يتم عادة بعد قتل الضحية. وبمناسبة القرايين الوثنية فقد سلخ خالد بن عبد الله القسري والي الكوفة المسلم، سلخ الجعد بن درهم بعد أن ذبحه في المسجد بعد صلاة العيد. اشتهر الجعد بن درهم في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك بأقواله ومزاعمه التي أثارت ضدة الكثير من علماء وشيوخ السلطان آنذاك، فهو ممن قالوا بـ "خلق القرآن" رافضاً الاعتراف بالتفسير الحرفي لما ورد في القرآن الكريم من أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، كما ورد في قوله

تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلاً)، سورة النساء، آية 125 ، أو أن الله كلّم سيدنا موسى كما ورد في قوله تعالى (وكلّم الله موسى تكليماً)، سورة النساء، آية 164 ، وغير هذه من المزامع التي أثارَت عليه الغضب، فتنقل من مدينة إلى أخرى إلى أن استقر في العام 105هـجري في مدينة الكوفة، وتصادف أن عيّن الخليفة هشام بن عبد الملك والياً للكوفة هو خالد بن عبد الله القسري الذي سارع لإلقاء القبض على الجعد بن إبراهيم، وفي صباح أول يوم من أيام عيد الأضحى ذلك العام، ألقى خالد بن عبد الله القسري خطبة العيد، وتوجه للمصلين من على منبر المسجد قائلاً: أيّها الناس ضحّوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مّضح بالجعد بن درهم، أنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عمّا يقول الجعد علواً كبيراً، ثم قام بسحب الجعد بن درهم من تحت منبر المسجد ونزل بسيفه وقصّ رقبتَه على المنبر أمام المصلين جميعاً. وهي رواية تجمع عليها غالبية كتب التاريخ الإسلامي المعتمدة ومنها الكتاب المرجع البدایه والنهایه لابن كثير. الفطيع أن جمهور المصلين قبلوا هذه الضحية، لم يتشفعوا له، لم يطلبوا قتله بأسلوب أرحم، لم يطالبوا بقتله خارج المسجد أو بعد مرور العيد المخصص؛ لذبح الخراف كما ضحى إبراهيم بكبشٍ بدل ولده، إسحاق أو إسماعيل.

في سيرة ابن هشام والرحيق المختوم، سرد لعمليات قصّ للرؤوس، وقطع للرقاب منها: قتل اليهودي كعب بن الأشرف الذي تنقّل بين مكة والمدينة يحرّض قريش على الانتقام لقتلهم في موقعة

بدر، ونسب له قول الشعر تشبياً في نساء الصحابة فطلب الرسول قتله وتشكلت سرية اغتيال قادها محمد بن مسلمة الذي تودد لكعب وأخبره أنه واصحاب له يريدون الابتياح منه، وهم على استعداد لرهن أبنائهم. في الليلة المحددة ذهبوا إلى حصنه، ونادوه فنزل لهم وصار محمد يشم الطيب عن رأسه مرة بعد الأخرى حتى تمكن منه وقام أعضاء السرية بقتله، وشقه، وعادوا في الليل للرسول يبشرونه، وكان أحدهم أخ لكعب في الرضاعة.

أيضاً؛ في الحكم الشهير لسعد بن معاذ في بني قريضة، وعددهم من 600 إلى 700، قُطِعَتْ رؤوسهم بشكل مُنظم. أخل بعض وربما كل زعماء بني قريضة باتفاقٍ عقدوه مع الرسول، وحاربوا مع الاحزاب في موقعة الخندق. حاصر المسلمون قلاعهم طويلاً، وبدأت محاولات وساطة من الأوس؛ لتخفيف العقاب أو العفو عنهم، وحتى لا يُغضب الرسول الأوس، وهم حلفاء سابقون لليهود وكانوا يهذبون أولادهم عند اليهود، قال لهم الرسول سأدع سعد بن معاذ يحكم فيهم، فتقبلوا ذلك كون سعد زعيماً للأوس. "حتى إذا ظهر سعد بن معاذ رضي الله عنه على رسول الله وشاهده الناس حول النبي صلى الله عليه وسلم، قال لهم رسول الله: (قوموا إلى سيديكم فلإنزلوه)، فقام الناس حينها احتراماً لسعد بن معاذ رضي الله عنه حتى وصل سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احكم فيهم، قال: فلإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وثقستم أمواهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد حكمت فيهم

بِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)، فَإِنَّ سَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أُصْدِرَ حُكْمُهُ عَلَى بَنِي قُرَيْضَةَ لَمْ يُرَاعَ بِذَلِكَ مَا سَبَقَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، بَلْ نَظَرَ إِلَى إِخْلَافِهِمْ بِالْوَعْدِ الَّذِي قَطَعُوهُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَثَّرَ ذَلِكَ عَلَى سِيرِ الْمَعْرَكَةِ.

فَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ تَنْفِيزِ الْعُقُوبَةِ الَّتِي وَضَعَهَا سَعْدٌ لِيَهُودِ بَنِي قُرَيْضَةَ حَبَسَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ فِي دَارِ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي النُّجَارِ تُدْعَى بِنْتُ الْحَارِثِ، ثُمَّ خَنَدَقَ (= حَفَرَ) رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ خَنَادِقَ، وَبَعَثَ فِي طَلَبِ الْقَوْمِ، فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ فِيهَا، وَكَانَ بَيْنَهُمْ فِي تِلْكَ الْوَاقِعَةِ زَعِيمُهُمْ، وَعَدُو اللَّهِ حَيِي بْنُ أَخْطَبَ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ كَذَلِكَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ كَبِيرُ قَوْمِهِ، وَكَانَ عَدَدُ رَجَالِهِمْ مَا يَقَارِبُ سِتْمِئَةً أَوْ سَبْعِمِئَةً رَجُلًا، وَقِيلَ إِنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

قُتِلَ عَدُوُّ الْإِسْلَامِ أَبُو جَهْلٌ فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ الَّتِي وَقَعَتْ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ عَلَى يَدِ مَعُودٍ، وَمَعَاذِ ابْنِي عَفْرَاءَ، وَقَدْ كَانَا فِي السَّادِسَةِ عَشَرَ مِنَ الْعُمْرِ، وَبَعْدَ أَنْ أَصَابَاهُ أَجْهَزٌ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، حَيْثُ سَأَلَهُ أَبُو جَهْلٌ قَبْلَ مَوْتِهِ: لِمَنِ الْعَلْبَةُ الْيَوْمَ؟ فَرَدَّ عَلَيْهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَقَدْ ارْتَقَيْتَ مَرْتَقَى صَعْبًا يَا رُوَيْعِي الْغَنَمِ، فَقَطَعَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَأْسَهُ، وَذَهَبَ لِيُبَشِّرَ الرَّسُولَ.

فِي مَعْرَكَةِ أَحُدَ بَدَأَ الْقِتَالُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ السَّابِعِ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَكَانَ الْقِتَالُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ يَبْدَأُ بِالْمُبَارَزَاتِ. وَقَعَ اللَّقَاءُ الْأَوَّلُ بَيْنَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْعَبْدَرِيِّ وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ،

فتقدّم عليه الزبير، وقفز على جمّله وجذبه نحو الأرض وقتله ثم ذبحه، فلمّا رأى النبي ذلك منه لقّبه بجواريه، ثمّ تقدم عثمان بن طلحة، فخرج إليه حمزة وقتله، ثمّ خرج أخوهم أبو سعد فقتله سعد بن أبي وقاص، وأنّصر المسلمون في جميع المّبارزات وباشرت قريش بالانسحاب فهروا الرّماة المسلمين أسفل الجبل تاركين مواقعهم ومخالفين التعليمات، وذلك طلباً للغنائم، فارتدّ عليهم الكافر، آنذاك، خالد بن الوليد وانقلبت النتيجة وكاد الرسول أن يُقتل. لقد أخذ المسلمون خاصية قطع الرقاب وذبح الجرحي والمهزومين، عن الحضارات التي سبقتهم، ولم يبدلوا في الأمر شيئاً، كما أن القوى النصرانية خالفت دوماً تعليمات المسيح بهذا الشأن، ومارسوا التنكيل والتقتيل والذبح وتفننوا في أساليب التعذيب.

وهنا حديث عن سرية من شخص واحد ذهب بأمر من الرسول، وقد أخرجه الواقدي في المغازي" (ص: 533) فقال: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ مُوسَى بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: "بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ سَفِيَانَ بْنَ خَالِدٍ بْنِ بُيُوحٍ الْهَذَلِيِّ، وَكَانَ نَزَلَ غُرَّةَ وَمَا حَوْلَهَا فِي نَاسٍ مِنْ قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ، فَجَمَعَ الْجُمُوعَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَنَيْسٍ، فَبَعَثَهُ سَرِيَّةً وَحَدَّهُ إِلَيْهِ لِيَقْتُلَهُ، ... قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَجَلَسْتُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا هَذَا النَّاسُ وَنَامُوا وَهَدَأَ، اغْتَرَرْتُهُ فَقَتَلْتُهُ وَأَخَذْتُ رَأْسَهُ ... حَتَّى جِئْتُ الْمَدِينَةَ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ،

فَلَمَّا رَأَى قَالَ: أَفْلَحَ الْوَجْهَ! قُلْتُ: أَفْلَحَ وَجْهُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَوَضَعَتْ
رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَخْبَرْتُهُ خَبْرِي ... الخ.

سواء أكان في تحليل حركة داعش ومؤيديها نظرياً، أم في مواقف
دول إسلامية قائمة للآن أم كانت قائمة، ستجدهم يلجؤون للقرآن
والسنة والتاريخ للخلفاء الراشدين، ومن تلاهم من الحكام؛ لتبرير ما
يمارسون من السجن والقتل والتعذيب كإثبات لارتباط هذه الممارسات
بالسنة والشريعة. بالطبع يمكن لحبي السلام والتسامح العثور على أمثلة
مضادة في الكتب السماوية، لكن؛ الحقيقة أن كل الموبقات للحكام يمكن
أن تعتمد على سوابق في التاريخ الإسلامي. إذا افترضنا أن الإسلام
والقرآن والسنة والشريعة مشبعة بالإنسانية والرحمة، والتسامح، وحكم
القانون العادل، فحينها سيكون علينا اعتبار كل الحكام المخالفين
والساكنين عنهم من علية القوم والعلماء، وحتى من العامة، مقصرين
في حق دينهم؛ لتقبلهم هذا الخلل والإخلال في تعاليمه، وبالتالي فالدين
فاشل كون أتباعه فاشلون .. أما إذا افترضنا أن كل ما سبق من أمثلة،
وهي غِيَضٌ من فَيْضٍ، إنما هي حقيقة، ولها مراجع شرعية، ويحقُّ
للحاكم فعلها، فهذا ينتقص من الدين، ويثبت أن تقبل هذا الحال
وديمومته هو سبب التخلف الحاصل والمتكرر في المجتمعات الإسلامية
منذ قرون. هذا الاستنتاج الثاني هو الذي أخذ به دعاة النهضة
الأوروبية، فأصلحوا دينهم وديانهم بالثورات على المؤسسة الدينية،
وفصل الدين عن الدولة، وإلغاء أي دور للدين ورجاله في الحكم ..
وكما هو واضح فقد وصلوا، بينما لا زلنا نَعُذُّ ونذبحُ ونسلخُ بعضنا

بعضاً، سواء أكان بالسكين أم المناشير وقطع الرؤوس، القنابل أم التجويع أم الإذلال، وبالطبع فلا ننسى السجون للمعارضين، أم النفي والطرْد، حتى أمسى خيرةُ القومِ خارج بلادهم.

ما جرى في الربعِ الأولِ من القرنِ الحادي والعشرين في الدُّولِ الإسلامية التي هي فُتاتُ لدولِ الخلافةِ السابقة، لا يختلف في الجوهر عما حدث في عهود ما قبل وما بعد الديانات التَّوحيديَّة. كان الغازي إذا واجه مقاومة، أو إذا كان قد تقاتل مع المغزو في السابق، يلجأ للقسوةِ العظمى في الإبادة للبشر والحجر بعد سبي ما يفيدهم، وحين تصيَّبهم بعضُ الرِّحمة كانوا يدمِّرون ويستعبدون البشر، ويشعُّلُونهم كعبيدٍ أو يبيعونهم في أسواق النخاسة؛ كسباً للمال. هذا ما فعلته الحضارات السابقة مثل؛ الاشوريين والبابليين والفرس والإغريق والرومان والإمبراطوريات اللاحقة من بريطانيَّة وفرنسيَّة وروسيَّة وألمانيَّة، وغيرهم، كلُّهم غزوا ودمَّروا ونهبوا واستعبدوا.

في العصر الحديث تم احتلال دولٍ وتدميرها ونهبها، كالعراق وسوريا وفلسطين بفعلٍ حربيٍّ، ودول الخليج بفعلٍ احتياليٍّ اقتصاديٍّ. لكن في حالات مثل؛ العراق وسوريا تم التقليد الأعمى لأفعال الرومان، مثلاً حين دمروا قرطاج ومحوها عن وجه الأرض وباعوا سكانها الناجين كعبيد. العراق وسوريا تدمَّرت بُناها التحتيّة بنسب كبيرة، وخرج سكانها؛ طلباً للنجاة عبر الخدمة في دول الغرب .. استعباد حديث بأجورٍ أقلَّ كثيراً من أجور الأوروبيين، وحقوق

مهضومة، وتعامل عنصري، إنهم أشبه بوضعية عبيد تلك الأزمنة ويؤدون الأدوار ذاتها، وربما مع مسؤولية أقل من الأسياد عما كان في الماضي الاستعباديّ الفجّ.

مثل ذلك حدث أيضاً في الأندلس وأدى إلى النتيجة الحتمية باندثار الإسلام والمسلمين من تلك البلاد. لقد صاحبت عملية قطع الرأس للمعارضين وسجنهم وتعذيبهم، وتعذيب الإناث جنسياً كل التاريخ الإسلامي، ولم يتوقف هذا النهج كما نرى، وثُقِر منظّمات حقوق الإنسان واللجان الدوليّة وهيئات الأمم المتّحدة. فقد احتجز وليّ عهد أهمّ دولة إسلامية أقاربه وجردّهم من جزءٍ من أموالهم لم يذهب به إلى خزانة الدولة أو يمنحه لفقراء المسلمين، وإنما اشترى قصوراً في فرنسا ولوحات فنيّة بمئات الملايين، ثم أمر بقتل معارض سياسي مدني مسالم لم يتصل من دينه أو جنسيته وتقطيعه، قُتل بعد فح نُصب له بمعرفة وليّ عهد المملكة، خادم الحرمين القادم، فقامت سرّيّة بخنقه وقتله وتقطيعه وحمل القطع في حقائب تم إخفاؤها بينما حملت الرأس إلى الرياض، لتوضع بين يدي محمد بن سلمان الأمر النهائي في بلاد الحرمين التي تعتقل عشرات الإناث المعروفات بالاسم لمجرد مطالبتهن بحقوق أساسيّة مثل؛ السفر وقيادة السيارات .. وهذا ما لا يوجد فيه شك، وتسبب للمملكة بالإحراج بعد أن كشف أمر القتل والاعتقالات، ونشر الرئيس الأمريكي (بايدن) لتقرير مخابراته عن هذا الشّأن في مارس 2021، وكانت مخابرات بريطانيا قد استشعرت خُطة القتل قبل حدوثها، وحذرت المخابرات السعودية من مغبة الأمر، ولكنّ

الإنجليز لم يحدروا الضحية الذي توجه للقنصلية بضمانات من أخ ولي العهد لاستلام أوراق رسمية تؤهله من الزواج.

تسلط حكام المسلمين لا يقتصر على الرعية والعامّة، بل يطال الخاصة حين يعارضون سياسياً أو يحاولون التغيير، وهذا ما تكرر في الأندلس، كما أن الحكام المسلمين يسجنون أبناءهم وبناتهم ونساءهم كما في آخر الحالات المنسوبة لمحمد بن راشد حاكم دبي الذي احتجز زوجته السادسة وأبناءها، واحتجز ابنتين هربتا منفردتين وأعيد سجنهما، ولا يُعرفُ مصير أي منهما، وهنّ شمسة التي خطفها أبوها في بريطانيا أغسطس 2000، ولم يعرف مصيرها إلى الآن، ثم خطف ابنته لطيفة وهي في طريقها بحرياً هاربة من دبي عام 2018 وأعادها، ويُخشى أنها ليست على قيد الحياة أيضاً، وصارت هيئات الأمم المتحدة تطالب بمعرفة إذا كن على قيد الحياة. لكن زوجة حاكم دبي، هيا الحسين، نجحت في الهروب مع أطفالها ووصلت بريطانيا وحكم لها القضاء بالاحتفاظ بأطفالها، كون زوجها سيء التصرف مع أبنائه حسب ما جاء في الحكم القضائي الذي أشار لاحتجاز الشّيخة لطيفة .. هذا الحاكم الإماراتي المسلم الذي يتباهى بالوصول إلى المريخ، ويصادر حقوق أبنائه.

الظلم والعدوان يقع من الحاكم على الأفراد والجماعات والمدن والدول حين تُخالفُ سلطانه، وترفض الخنوع له. كما حدث في اليمن على يد سلطات الإمارات والسعودية في العقد الثاني من القرن الحادي

والعشرين. لم تكن هذه أول، ولن تكون آخر مرة، اعتداء همجي يُستَعْل فيه الدين أو يُعتبر سبباً للفظائع. هناك الموقعة العظيمة التي دارت بين جيش الأمويين بقيادة مسلم بن عقبة وبين أهل المدينة المنورة الذين تمردوا على الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، وخلعوه وفيها استباح جنود يزيد المدينة، وقاموا بارتكاب أفظع الجرائم، فقتلوا الآلاف من السكان، ونهبوا الأموال، وأحرقوا البيوت، واعتدوا على الأعراض.

وجّه الخليفة الأموي يزيد بن معاوية جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة وأوصاه: ادعُ القومَ ثلاثاً، فإن أجابوك وإلا فقاتلهم، فإذا ظهرت عليهم فانهبها ثلاثاً، فكل ما فيها من مالٍ أو دابةٍ أو سلاحٍ أو طعامٍ فهو للجُند. كان ذلك في سنة ثلاث وستين اذ بلغ الخليفة في دمشق أن أهل المدينة خرجوا عليه وخلعوه، فأرسل إليهم جيشاً كثيفاً وأمرهم بقتالهم ثم المسير إلى مكة لقتال ابن الزبير المتحصن هناك بعد أن أعلن ذاته خليفة. وصلوا إلى منطقة الحرّة على باب طيبة، فخرج إلى حربته أهلها عليهم عبد الله بن مطيع العدوي، وعبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، وكانت وقعةً عظيمةً قُتلَ فيها خلق كثير من الناس من بني هاشم، وسائر قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس. فممن قُتل من آل أبي طالب اثنان: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وجعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب، ومن بني هاشم من غير آل أبي طالب: الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وحمزة بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، والعباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب، وبضع وتسعون رجلاً من سائر قريش، ومثلهم من الأنصار،

وأربعة آلاف من سائر الناس ممن أدركه الإحصاء دون من لم يُعرف. وبايع الناس مجبرين على أنهم عبيدٌ ليزيد، ومن أبى ذلك أمره مُسلم على السيف. كان الجيش الشامي يتكون من عشرة آلاف فارس، أو بالأحرى راكبٍ حصانٍ.

ثم أنهزم أهل المدينة، وأباح مسلم مدينة النبي ثلاثة أيام، يقتلون فيها الناس ويأخذون ما بها من الأموال، ويفسقون بالنساء. وعن الزُّهري أن قتلى الحرّة، كانوا سبعةً من وجوه الناس، من قریش والمهاجرين والأنصار، وعشرة آلاف من وجوه الموالي، ومن لا يُعرف، وكانت الواقعة لثلاثِ بقينَ من ذي الحجة سنة ثلاث وستين، ثم أن مسلماً بايع من بقي من الناس على إنهم خولٌ وعبيد ليزيد بن معاوية، ولما فرغ مسلم بن عقبة من المدينة سار بالجيش إلى مكة. جاء في كتاب «الفخريّ في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» لمحمد بن علي بن طباطبا، وهو يتحدث عن اغتصاب فتيات المدينة في الأيام الثلاثة: ف قيل أن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوّج ابنته لا يضمنُ بكارتها، ويقول: لعلّها افْتُضّت في وقعة الحرّة. لقد أحصى ألف عذراء اغتُصبت، ولم يكن الاغتصابُ للعذارى فقط.

مدينة حماة الشّامية استبيحت بكل معنى الكلمة وبأوامر واضحة من القادة، استبيحت من قبل جنود بلادها عام 1982، وقتل فيها 40 ألف مدني، ولم تتوقف الاستباحات في العالم الإسلامي بين وقعة الحرّة، ووقعة حماة، وما تلاها في ربوع الدول العربية الإسلامية. والاستباحة،

كما اتضح من وقعة الحرّة، تتم بترك الجنود يفعلون ما يريدون من قتلٍ وتعذيبٍ واغتصابٍ ونهبٍ، وما يخطرُ في مخيلاتهم من دون توقُّع لأي محاسبةٍ على الأفعال والنَّهب والسَّلب .. بالطبع بوسع الجنود أن يفعلوا الخير، ويطمئنوا أهل وطنهم ودينهم طوال أيام الإباحة، ولكن الأعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقاً وخساسةً.

الحسن .. خير الخلفاء

يُنسَبُ لِلرَّسُولِ بِضْعَةُ أَحَادِيثٍ يَدُو أَنَّهَا تَحَكَّمَتْ فِي حَيَاةِ حَفِيدِهِ الْحَسَنِ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ. الْحَدِيثُ الَّذِي يُحَدِّدُ مَدَّةَ حُكْمِ الْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ بِثَلَاثِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ الْحُكْمُ مُلْكِيًّا: «الْخِلَافَةُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا» وَهَذَا الْحَدِيثُ يَعُدُّ مَعْجَزَةً مِنْ مَعْجَزَاتِ النَّبِيِّ، لِأَنَّهُ أَخْبَرَ فِيهِ عَنِ الْغَيْبِ. كَانَتْ خِلَافَةُ أَبِي بَكْرٍ سِتِّينَ وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وَخِلَافَةُ عُمَرَ عَشَرَ سِنِينَ وَنِصْفًا، وَخِلَافَةُ عُثْمَانَ اثْنَتَيْ عَشَرَ سَنَةً، وَخِلَافَةُ عَلِيٍّ أَرْبَعَ سِنِينَ وَتِسْعَةَ أَشْهُرٍ، وَخِلَافَةُ الْحَسَنِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَهِيَ تَكْمِلُ الثَّلَاثِينَ عَامًا، وَلِذَلِكَ يَعتَبَرُ الْحَسَنُ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ الْخَامِسُ، وَأَصْبَحَ مُعَاوِيَةُ أَوَّلَ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَنْ تَنَازَلَ لَهُ الْحَسَنُ. أَمَّا الْحَدِيثُ الْآخَرُ الَّذِي دَفَعَ الْحَسَنُ؛ لِيَصْبِحَ فَرِيدًا فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ كُلِّهِ فَهُوَ الَّذِي قَالَهُ الرَّسُولُ حِينَ أَقْبَلَ الْحَسَنَ عَلَيْهِ يَرْكُضُ، وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَوَقَّفَ عَنِ الْحَدِيثِ مَعَ الصَّحَابَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ: "أَنْ أَبْنِي هَذَا سَيِّدًا، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَصْلَحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ".

حِينَ تَنَازَلَ الْحَسَنُ عَنِ الْحُكْمِ مُعَاوِيَةَ الَّذِي رَفَضَ مُبَايَعَتَهُ كَخَلِيفَةٍ خَامِسٍ، وَأَصْرَ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْحَرْبِ، وَكَانَ مِائَتُ أَلْفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ قَتَلُوا فِي الْمَعَارِكِ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ، رَأَى الْحَسَنُ الْمُبَايَعَةَ كَخَلِيفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعْظَمِ أَرْجَاءِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، رَأَى أَنْ التَّنَازُلَ لِمُعَاوِيَةَ، بِشُرُوطِهِ، هُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ لَوَقْفِ التَّقْتِيلِ الَّذِي سَادَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَهْدِيدِ الدَّوْلَةِ، وَحِمَايَةِ ثَغُورِهَا. عَلَى الْأَرْجَحِ أَنْ حَدِيثَ جَدِّهِ الرَّسُولِ كَانَ حَاضِرًا أَمَامَ

عينيه منذ بدايه الاقتتال بعد مبايعه والده علي كخليفة، فحققه كالتزام أدبي، ولتأكيد أن جدّه معجزة، وقد علم بالغيب في هذه الحالة أيضاً.

عظمة الحسن قائمة على العديد من الدّعائم التي جعلته فريداً في التاريخ الإسلامي. حين رفض معاوية في الشام مبايعة علي كخليفة، أعدّ الأخير، أبو الحسن، الجيوش وقرر غزو الشام؛ اذ كانت بقية بلاد المسلمين قد بايعته كخليفة رابع بعد مقتل عثمان بن عفان، لكن معاوية الطامع في الخلافة رفض المبايعة بحجة أن المطلوب من الخليفة الجديد قبل مبايعته القصاص من قتل عثمان أولاً، وحرض أهل الشام على طلب القصاص، وعلق قميص عثمان على أبواب المسجد. هنا وقبل أي اشتباك بين المسلمين طلب الحسن من والده عدم الإقدام على القتال، وترك معاوية لحاله حتى يقضي الله في شأنه.

إن مثل هذا الرأي والطلب من الولد لأب بمقدار الإمام علي ومكانته ليس بالهين، وقد أصر علي على غزو معاوية في الشام، ولم يتخلى الحسن عن أبيه، ولكنه وقف معه، وواصل نصحه بالكف عن الحرب. بدأ علي يستنصر بعماله على الأقاليم وبالمسلمين، فأرسل رسالة إلى أبي موسى الأشعري في الكوفة، وإلى عثمان بن حنيف في البصرة، وإلى قيس بن سعد في مصر، وإلى واليه في اليمن يستمد منهم المدد لهذا الأمر، وخالفه في ذلك ابن عمّه؛ عبد الله بن عباس هو الآخر، لكن علياً أصر، وجاء إليه ابنه الحسن وقال له: "يا أبت، دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع الاختلاف بينهم". فلم يقبل منه علي هذا

النصح، وأصر على القتال، واستعد للخروج إلى الشام. استخلف على المدينة ابن أخيه قثم بن عباس، وجهز الجيش للخروج، فكان على الميمنة عبد الله بن عباس، ولم يمنعه الخلاف في الرأي مع ابن عمه من أن يخرج ليساعده، وعلى الميسرة عمرو بن أبي سلمة، وعلى المقدمة أبو ليلي بن عمرو الجراح، وهو ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح.

بينما كان علي يستعد للخروج من المدينة بالجيش متوجهاً إلى الشام، حدث في مكة أمر لم يكن متوقعاً فغيّر من خطته. كان بمكة السيدة عائشة أم المؤمنين، وزوجات رسول الله أمهات المؤمنين اللواتي هربن إلى مكة قبيل وبعيد مقتل عثمان، عدا السيدة أم حبيبة، فقد بقيت بالمدينة رافضة أي تنقل بعد موت الرسول. تواجد في مكة أيضاً طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، والمغيرة بن شعبة، ووصلها يعلي بن أمية التميمي الذي كان والياً لعثمان على اليمن، ولما حدثت الفتنة جاء إلى مكة، ومعه ستمئة من الإبل، وستمئة ألف درهم من بيت مال اليمن. واجتمع كل هؤلاء الصحابة، وبدأوا في مُدَارَسَةِ الأمر وصار رأيهم جميعاً - وكانوا قد بايعوا علياً - أن هناك أولوية لأخذ الثأر لعثمان، وأنه لا يصح أن يؤجل هذا الأمر بأي حال من الأحوال، وقد تزعم هذا الأمر الصحابيَّان طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام ... وصار هذا الرأي مُقدِّمةً لموقعة الجمل التي أُنْتُصر فيها علي، وقتل من الطرف الآخر صحابة منهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام. "والزبير هو ابن عمّة النبي، وابنُ أخ زوجته الأولى خديجة بنت خويلد، وزوج أسماء بنت أبي بكر، أي؛ أن عائشة خالته، كما أنه حوارى

الرسول وأول من سلّ سيفه في الإسلام، واحد الستّة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب؛ ليختاروا الخليفة من بعده، فاختاروا عثمان وأغضبوا علياً، وهو أبو عبد الله بن الزبير الذي بُويع بالخلافة في الجزيرة العربية منافساً ليزيد بن معاوية، وتمركز في مكة تسع سنوات حتى حاصره الحجاجُ وقضى عليه عام 73 للهجرة).

بعدما حصلت موقعة الجمل في البصرة، وظهر علي، جاء إلى أم المؤمنين عائشة، فقال: غفر الله لك، قالت: "ولك، ما أردتُ إلا الإصلاح". ثم أنزلها دار عبد الله بن خلف، وهي أعظم دار في البصرة على سنية بنت الحارث أم طلحة الطلحات، وزارها ورحبت به وبايعته، وجلس عندها. فقال رجل: يا أمير المؤمنين أن بالباب رجلين ينالان من عائشة، فأمر القعقاع بن عمرو أن يجلد كلاّ منهما مئة جلدة وأن يجردهما من ثيابهما، ففعل القعقاع. ثم رد الإمام عليّ عائشة إلى المدينة معززة مكرمة مع الذين نجاوا من الموت ومن الأسر، مثل مروان بن الحكم إذ لم يؤذه علي بن أبي طالب، ولا أحد من أتباعه، إذ شفع له الحسن والحسين عند أبيهما؛ ليطلق سراحه، وهذا ما حدث. لقد منع علي السّي، وأخذ غنائم من المهزومين في هذه الموقعة، وهذا الأمر سوف يتسبب له بمشاكل وخلافات في المستقبل.

بعد موقعة الجمل واصل علي الاستعداد، وسار من البصرة إلى الشام، وكان جواسيسُ معاوية يخبرونه بالتطورات والتّوايا أولاً بأول، فحرك قواته والتقى الجيشان في صفّين. كان في جيش عليّ الصحابيُّ

عبد الله بن بديل الذي قام بصفين فقال يخرض الجند ويشجعهم: "أن معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر أهله، وصال عليكم بالأحزاب والأعراب، وأنتم والله على الحق فقاتلوا". وذكر الشعبي: "كان على عبد الله بن بديل بصفين درعان، ومعه سيفان فكان يضرب أهل الشام، وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري ثارت الفتنة، ودهاة الناس خمسة فمن قريش معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، ومن ثقيف الغيرة بن شعبة، ومن الأنصار قيس بن سعد، ومن المهاجرين عبد الله بن بديل بن ورقاء".

اشتدت الحرب، وقتل عبد الله بن بديل، فاستعلى أهل الشام على أهل العراق، وانكشفت صفوفهم من قبل الميمنة، وأجفلوا إجملاً شديداً. في محاولة؛ لتعديل الوضع أمر علي سهل بن حنيف أن يستقدم من كان معه ليرفد الميمنة، فاستقبلتهم جموع أهل الشام في خيل عظيمة، فحملت عليهم، فألحقتهم بالميمنة، وكانت ميمنة أهل العراق متصلة بموقف علي في القلب في أهل اليمن، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى علي، فأنصرف يمشي نحو الميسرة، فانكشفت مضراً عن الميسرة أيضاً، فلم يبق مع علي من أهل العراق إلا بعض من بني ربيعة وحدها في الميسرة. أُنقل علي ومعه بنوه من القلب نحو الميسرة حيث ربيعة، وكان النبل يمر بين عاتقه ومنكبيه، وما من بني إلا من يقيه بنفسه، فيكره علي ذلك، فيتقدم عليه ويحول بينه وبين أهل الشام، ويأخذ بيده إذا فعل ذلك، فيلقيه من ورائه.

أبصر أحمر، مولى بني أمية، الإمام علياً أثناء التراجع، وكان أحمر شجاعاً، فنادى: عليّ وربُّ الكعبة قتلي الله أن لم أقتلك! فأقبل أحمر نحوه، فخرج إليه كيسان مولى علي، فاختلفا ضربتين، فقتله أحمر، وخالط علياً؛ ليضربه بالسيف. مد علي يده ف وقعت في جيب درع أحمر، فجذبهُ عن فرسِهِ، وحمله على عاتقه، ثم ضرب به الأرض فكسر منكبيه وعضديه، وشد ابنا علي محمد وحسينً فضرباه بأسيا فهما حتى إذا أتيا عليه، فأقبلا إلى أبيهما والحسن قائم معه. سأل عليّ الحسن: يا بني، ما منعك أن تفعل كما فعل أخواك؟ فرد الحسن: كفياني يا أمير المؤمنين. لم يكن الحسن متهوراً حتى في أشد الساعات، نعم؛ يقف مع والده ويدودُ عنه، ولكنه لم يكن مولعاً بالقتال والقتل والحروب، حتى لو كانت ستؤدي إلى السلطة، وهنا التَّفَرُّد أيضاً.

لنتصور ماذا كان سيحدث لو أستجاب الإمام عليّ لولده الحسن! وماذا لو لم يقتل الزعماء طلباً للرئاسة! وماذا لو لم يهاجم، أو يتأمر القادة على بعضهم ويبيعون ضميرهم لعدوهم! لنتصور ذلك منذ تجربة الحسن الفريدة التي لم تتكرر حتى يومنا الحاضر.. اين وماذا سيكون موقع العرب والمسلمين على سلم الحضارة؟! لنتصور ذلك ونحن نطالع الاحداث والنتائج التي خلقتها تلك الفتنة.

أنتبه أهل الشام لموقع الإمام علي وبنيه فدنوا منه يريدونه، ولكن ما تسبب قريهم منه في سرعة مشيته، فقال له الحسن خوفاً عليه: "ما ضرك لو أسرعت حتى تنتهي إلى الذين صبروا لعدوك من أصحابك؟

فقال علي: يا بُنَيَّ، أن لأبيك يوماً لن يعدوه ولا يبطئ به عن السعي، ولا يقربُه إليه الوقوف، أن أباك لا يبالي أن وقع على الموت أو وقع الموتُ عليه. قبل أن يصل علي وبنوه إلى ربيعة في الميسرة مرَّ بهم الأشر النخعي، وهو مقاتل مشهود له وقف مع علي منذ موت الخليفة عثمان، وهو من ضمن المتَّهمين بقتل الخليفة عثمان، فقال له علي: ائت هؤلاء القوم فقل لهم أين تُفرون من الموت؟ ذهب الأشر للفلول، وهيج الناس لخوض الصعاب ف تبعوه وكروا معه وصاروا يكشفون كتائب أهل الشام حتى حققوا بعض التوازن ما بين العصر والمغرب، وسقط آلاف القتلى من الجانبين. كان بيد الأشر يومئذٍ صفيحةٌ يمانية، إذا طأطأها خِلتَ فيها ماءً ينصبُّ، وإذا رفعها يكاد يغشي البصر شعاعُها، وكان مقنعاً في الحديد، وهو من أعظم الرجال وأطولهم، وخطب الأشر مُحَرِّضاً أصحابه فقال: "عَضُّوا على النواجذ من الأضراس، واستقبلوا القوم بهامِكُم، فإن الفرار من الزحف فيه ذهاب العز والغلبة على ألفي، وذل الحياة والممات، وعار الدنيا والآخرة". ثم حمل على صفوف أهل الشام حتى كشفهم، فألحقهم بمضارب معاوية.

بات أهل المعسكرين تلك الليلة في شدةٍ من الألم والجراح والقتلى، وشدة البرد، إذ كان النَّاسُ يسمعون اصطكاك أسنان بعضهم، ونادى الخليفة علي بن أبي طالب أصحابه أن يستعدوا للقتال والحسم في الصباح. سمع أهل الشام ذلك، فسأل معاوية مستشاره عمرو بن العاص أن يجدَ له مخرجاً مما يرى وسيكون. قال عمرو بعد تفكير: "والله

لأدعواهم أن شئتَ إلى أمر أفرقُ به جمعهم، ويزداد جُمعك إليك اجتماعاً، أن استجابوا لك اختلفوا، وأن رفضوا اختلفوا."

"وما ذلك يا عمرو؟" سأل معاوية عمرو متلهفاً لسماع هذا المخرج.

تأمرُ بالمصاحفِ فترفعُ، ثم تدعوهم إلى ما فيها، فوالله لئن قبله لتفترقنَّ عنه جماعته، ولئن ردَّه ليكفرنه أصحابه". فدعا معاوية بالمصحف، ثم أخرج به بن هند في الصباح الباكر بعد أن أفهمه ما ينادي وأين. وقف بن هند بين الصفين، ثم نادى: الله الله في دماننا ودمائكم الباقية، بيننا وبينكم كتاب الله. فلما سمع الناس ذلك ثاروا إلى علي، فقالوا: قد أعطاك معاوية الحقَّ، ودعاك إلى كتاب الله، فأقبل منه. واستمرَّ بن هند، صاحب معاوية، برفع المصحف والقول: بيننا وبينكم هذا المصحف، ثم تلا: "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون". ثم نادى: لسنا فارس ولستم الروم. فلما سمع الأشعث، وهو صحابيٌّ، ومن كبار أمراء ذلك اليوم، قال لعلي: والله لا نأتي هذه أبداً، ونرضى معك حكم كتاب الله، أو لا نقاتل معك. وتابعه أشراف أهل اليمن مؤيدين، وركنوا إلى الصلح، وكرهوا القتال. (الاشعث هو زوج أخت أبي بكر الصديق وتولى ولاية أذربيجان في عهد عثمان بن عفان، قاتل في اليرموك والقادسية وكان ممن أجزل لهم خالد بن الوليد في العطاء ممَّا أثار غضب عمر بن الخطاب. توفي الاشعث عام 40 للهجرة بعد وفاة

علي بن أبي طالب بأربعين ليلة وابنته زوجة عند الحسن بن علي، أمّا ابنه عبد الرحمن فقد ثار على الأمويين وواجهه الحجاج لاحقاً).

واصل معاوية الدّعاية النّفسيّة، وأردف بن هند بخطيب آخر أن يكلم أهل العراق، فأقبل عليهم حتى إذا كان بين الصّفين نادى: يا أهل العراق، أنا عبد الله بن عمرو بن العاص، إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور للدين والدنيا، فإن تكّ للدين، فقد والله أسرفنا وأسرفتم، وأن تكّ للدنيا، فقد والله أعدرنا وأعدرتم، وقد دعوناكم لأمرٍ لو دعوئموننا إليه أجبناكم، فإن جمعنا وإياكم الرضا، فذلك من الله، وإلا فاغتموا هذه الفرجة، لعلّ الله أن يُنعش بها الحيّ، ويُنسي بها القتيل، فإن بقاء المقلد بعد الهالك قليل.

تعرّف علي بن أبي طالب على صاحب الصّوت، وقال إنه كان يحارب بالأمس بسيفين، وما هذه الدّعوة إلا للخديعة بعد أن أنكشفوا، لكن جماعته انقسموا بين مؤيّدٍ للتحكيم ومعارض واختلفوا كثيراً، وهنا بدأ انشقاق الخوارج وهم ثمانية آلاف من حفظة القرآن وقرأه، وعاد أربعة آلافٍ منهم إلى الكوفة بعد محاورات معهم. لو استمع علي إلى نصيحة ابنه الحسن وطلبه لما كان كل هذا القتال والقتل والانشقاق، وما تبعه من مأسٍ، وهذه من دعائم عظمة الحسن وتفردّه بين الحُكّام والخلفاء.

اضطرّ عليّ للموافقة على التحكيم، ولكن الخوارج باشروا بالتعرّض له بالشّتائم، وشعاراتٍ مثل؛ إنه ترك الرجال يُحكمون في

كتاب الله، أي أن الكتاب ينصُّ على خلافته، وإنه تهاون، وكان يجب الاستمرار في القتال. عندما جاء موعد التَّحكيم لم يتوصل الحكمان لاتفاق على شخص للخلافة، واتفقا على ترك الأمر لعام كامل؛ ليقرر صحابة الرسول من يريدون أن يكون الخليفة، وأنه في هذه الأثناء يحكم كل من علي ومعاوية ما تحت إمرته من أراضٍ. يقال أن الخليفة لم يعجبه هذا الحكم، وأخذ يستعد؛ لخوض الحرب ضد أهل الشام مع وجود معارضة من جماعة، وتأيد وتحريض من أخرى، بينما كان جيش معاوية وأنصاره متفقيين مطيعين. كان الحسن وعبد الله بن عباس ضد تجديد الحرب، وكان الأشتر النَّخعي وجماعة ممن شاركوا في قتل عثمان، وانضموا لجيش علي يحرضون على الحرب؛ لخوفهم من نتيجة أي اتفاق، إذ لا بُدَّ من القصاص منهم على قتلهم للخليفة عثمان بن عفان. وللتذكير فقد كان الحسن من أشد المدافعين عن الخليفة، ورابط مع عثمان في بيته طوال أيام الحصار، ورد عنه بالسَّيف، ومن شبه المؤكد أنه يكره الأشتر وجماعته المنطوين في جيش أبيه.

أثناء الاستعداد وتجهيز القوات مجدداً، وقبل تحرك علي للشام وصلت أخبار عن قتل شنيع مارسه الخوارج ضد مسلمين، وبقرهم لبطن امرأة حامل، وتكرار ترهيب الناس الآمنين. طالبهم الإمام علي بتسليم القتلة فأبوا، ورفضوا كل الوساطات، وكانوا قد رفضوا الانضمام إلى جيش علي المتوجّه إلى الشام بالرغم من أنه سبب أنشاقهم في الأصل. حدث اللقاء بين علي والخوارج في النهروان عام 38 هجرية، ونصب لهم علي راية أمان لمن يستسلم، لكن حوالي ألف

منهم رفضوا التراجع فتّمت إبادتهم. المهمُّ هنا أن التّصُدع في جبهة علي وصل إلى درجة عدم مشاركة عبد الله بن عباس في موقعة النّهروان، وإنّما أرسل قوات دعم من البصرة، ورفض الأشتراك في القوات لغزو الشام مُجدداً، وبعد ذلك أخذ أموال خزينة البصرة، وانتقل بها ضد رغبة ابن عمّه إلى الحجاز، واعتكف هناك القتال، وهذا ما لم يكن يوسع الحسن فعله. (رواية حمل أموال البصرة وردت في نهج البلاغة، ومصادر أخرى)

عادوا من معركة النّهروان إلى معسكرهم للاستراحة ومواصلة المسير إلى الشام ضدّ معاوية، لكن أصابهم الخذلان، ووصلت إلى زعمائهم صرر نقود معاوية ووعوده، فتحججوا وقالوا لعلي: "يا أمير المؤمنين لقد نفدت نبالنا وكلّت سيوفنا، ونصلت أسنّة رماحنا، فارجع بنا فلنستعدّ بأحسن عُدّتنا... فأدرك علي أن عزائمهم هي التي كلت ووهنت، وليس سيوفهم، فقد بدأوا يتسلّلون من معسكره عائدين إلى بيوتهم دون علمه، حتى أصبح المعسكر خالياً، فلما رأى ذلك دخل الكوفة، وانكسر عليه رأيه في المسير إلى الشام. صار يحثهم على التعبئة، وهم يتباطؤون، وأدرك الإمام علي أن هؤلاء القوم لا يمكن أن تنتصر بهم قضية مهما كانت عادلة، ولم يستطع أن يكتم هذا الضيق، فقال لهم: ما أنتم إلا أسود الشّرى في الدّعة، وثعالب رّواغة حين تُدعون إلى البأس، وما أنتم لي بثقة... وما أنتم بركب يُصالُ بكم، ولا ذي عزٍّ يُعصمُ إليه، لعمر الله لبئسَ حشاش الحرب أنتم، إنكم تكادون، ولا تكيدون، وتنتقصُ أطرافكم ولا تتحاشون.. كل ذلك كان يمكن تفاديه

لو استمع الإمام إلى نُصح ابنه الحسن بالميل إلى السلام قبل أي حرب، أو لو حسم أمره منذ البدايه، وسلَّم قتلة عثمان، واقتصَّ منهم، أو واصل الحرب ضد معاوية دون تردد، أو لجأ إلى الحيلة في التعامل مع معاوية.

في فجر الحادي والعشرين من رمضان عام 40 هجرية هجم ابن مُلجم على عليّ وهو في طريقة إلى المسجد، وضربه بسيف كان منقوعاً لثلاثة أيّام في السُّم، ومات أبو الحسن بعد ثلاثة أيّام. كان القتل ضمن خطة من الخوارج لقتل علي في الكوفة ومعاوية في دمشق وعمرو ابن العاص في مصر في يوم واحد حدد سلفاً، لكن رفيقا ابن مُلجم فشلا ونجح هو. المهم جداً هنا أن الإمام أبلغ ابنه الحسن، وهو ينازع الموت أن يدفنه في مكان مجهول حتى لا يعيث خصومه بقبره وجثته!! وبالفعل حتى الآن لا يعرف أين دُفن علي. كما أنه رفض أن يُوصي بتولية ابنه الحسن خليفة من بعده، وقال للقوم تدبّروا أمركم من بعدي، ولكنهم اختاروا الحسن خليفة في يوم موت أبيه، فورث أمةً مُنقسمة، ومشاكل في كل مكان.

كان معاوية يرسل غارات على الأطراف قبيل وبعد موت علي، وقد أرسل بسر بن أرطاة مع قوات إلى مكة والمدينة؛ لإجبار سكانها على مبايعته في الشام، فقام بسر هذا بجرائم قتل وذبح، وهرب منه كبار القوم هناك، ثم توجه إلى اليمن، وكان عليها عبيد الله بن عباس الذي هرب هو الآخر من وجهه بسر، وهناك سبى نساء المسلمين فكانت هذه

أول مرة يسي فيها مسلمون نساء مسلمات، (سيتكرّر الأمر مع يزيد ابن معاوية الذي استباح المدينة المنورة، ومع غيرهم مروراً بحروب القبائل في الجزيرة، وحتى ممارسات داعش في سوريا والعراق).

قبيل موت علي ومبايعة الحسن خليفة في الكوفة تحرك جارية بن قدامة إلى مكة فهرب بسر منها إلى معاوية، وأخذ جارية بيعة أهلها لمن بايع أهل الكوفة، فقد وصلهم خبر إصابة الإمام علي بن أبي طالب، ثم أخذ بن قدامة بيعة أهل المدينة المنورة، وقد عرفوا إنهم يبايعون الحسن بن علي. وكان الإمام قبيل اغتياله قد أكثر من الخطب في أهل الكوفة بعد أن أرسل فرق القتال لصد غارات معاوية، وهددهم الإمام علي بأنه خارج إلى لقاء أهل الشام سواء أكانوا مناصرين له أو معرضين عنه كعادتهم، فخجل زعمائهم وخافوا أن يفعلها الإمام اليأس منهم ويخرج وحيداً للقاء أهل الشام، فيصيبهم العار الجلل بين القبائل، فجندوا له ثلاثين ألفاً وخرجت طلائعهم باتجاه الشام. بعد موت الإمام، وأخذ البيعة للحسن شجّعه البعض على مواصلة الخروج بهذا الجيش لمواجهة أهل الشام، فخرج الحسن بهم متردداً، وهو يعلم نواياهم وعدم اتّفاقهم، وكان معاوية قد عرف بخروج طلائع جيش علي قبل اغتياله، فأرسل طلائع جيشه باتجاه العراق للمواجهة. في المدائن اختلف جند الحسن فيما بينهم، واختلفوا عليه، فدخلوا سرادقه، ونهبوا محتوياته، وعنفوه، ورموه عن سجادة يجلس عليها، ونهبوها أيضاً، وطعنّه أخذهم؛ ليقتله، وهو يصرخ: أشركت كما أشرك أبوك. لكن الطعنة جاءت في وركه.

هنا، وفي أجواء الفوضى، فكّر أحد شيعة العراق، وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي في أمر خطير، وهو أن يُوثق الحسن بن علي، ويسلمه؛ طمعاً في الغنى والشرف، فقد جاء عمه سعد بن مسعود الثقفي وكان والياً على المدائن من قبل الإمام علي، فقال لعمه: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: تُوثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية، فقال له عمه: عليك لعنة الله، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوثقهُ بئس الرجل أنت. (المختار هذا سينضم لاحقاً إلى خلافة الزبير، ثم يفصل عنه، ويعلن نفسه حاكماً في العراق).

فقد الحسن الأمل في القوم فعاد إلى المدائن بعيداً عن الجُنْدِ ينتظر أن يتعافى جرحه، وتواصلَ من هناك مع معاوية؛ استجابة للصلح الذي عرضه عليه منذ أول رسالة بينهما بعد أخذ البيعة. حاول الحسين ثني أخيه الحسن عن الصلح ولكنه أسكته، واستجاب معاوية للحسن بعد مكاتباتٍ ورُسُلٍ، فطلب الحسن من قيس بن سعد في مقدمة جيشه أن يدخل في طاعة معاوية، فخطب قيس في الناس: أيُّها الناس اختاروا الدُّخولَ في طاعةِ أمامِ ضلالٍ (معاوية)، أو القتالَ من غيرِ إمام. فأختار الناس الإمام الضال، وبايعوا معاوية.

كان الحسن يعرف بتواصل أهل العراق مع معاوية قبل اغتيال أبيه وبعده، بعد مبايعته. كان بعضهم يكتّاب معاوية أيام علي، ويتلقون عطاياه ويمهدون له. وبعد أن بايعوا الحسن كاتبوا معاوية يبلغونه بضعف إمامهم الجديد ويستقدمونه، وغيرهم رحل إلى الشام يبايعونه

حتى يعودوا لاحقاً في ركابه. مع ذلك لم يتجبر معاوية أو يتهور، فلم تكن طباع أهل العراق تخفى عليه، وإنما استقبل أولى رسائل الحسن بالرفق حين كتب إليه بعد أخذ بيعة أهل العراق يدعوه إلى الطاعة، وحمل هذه الرسالة جندب بن عبدالله الأزدي. أجابه معاوية بهدوء ودون توتر وشتائم ورفض، بأنه لو علم أنه أقوم بالأمر، وأضبط للناس، وأكد للعدو، وأحوط على المسلمين، وأعلم بالسياسة، وأقوى على جمع المال منه، لأجابه إلى ما سأل لأنه يراه أهلاً لكل خير. وكتب معاوية أيضاً أن أمره وأمر الحسن شبيه بأمر أبي بكر وعلي بعد وفاة الرسول. وبهذا يقول معاوية أنه يعرف مقام آل البيت كما عرفها الشيخان أبو بكر وعمر، وأن حقهم لن ينتقص. وبالطبع أكال معاوية للحسن الوعود المالية الآنية والمستقبلية. بالاضافة لهذه الكياسة حرص معاوية على اطلاع جندب الأزدي على الاستعدادات الحربية، والقدرات في الشام.

صار الحسن يُبلغ من يزوره من وفود العراق بعد طعنه، وثورة جماعته عليه في المعسكر: أنتم أكرهتم أبي على الحرب وأكرهتموه على التحكيم، ثم اختلفتم عليه وخذلتموه، وهاهم وجوهكم وأشرافكم يقدون على معاوية، أو يكتبون إليه مبايعين. فلا تغروني عن ديني. في هذه الأثناء أرسل معاوية للحسن كلاً من عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة فعرضاً الصلح وألحاً عليه ورغباًه بنيل ما يريد. من جهته أرسل الحسن عمرو بن سلمة الهمداني، ومحمد الكندي ليستوثقا من معاوية، فحصلاً منه على كتاب بدأه بتقديم اسم الحسن: إلى الحسن بن

علي من معاوية بن أبي سفيان، وعرض عليه ثلاثة أشياء: ولاية العهد، ومرتباً سنوياً ألف ألف درهم، وأن يترك له كورتين في فارس يصنع بهما ما شاء. لم يكن هذا ما أراده الحسن، فهو أصلاً مُبَايَع خليفة، ولديه العراق وما لها وأقطار أخرى، ولكنه احتفظ بهذا الكتاب وطالب معاوية بالمزيد، أي؛ تأمين الناس. أرسل الحسن لهذا الغرض أحد أقارب معاوية، بل ابن أخته، وهو عبدالله ابن الحارث بن عبد المطلب، وقال له الحسن: ائت خالك وقل له أن أمنتَ الناس بايعناك.

هذا بالضبط ما لم يكن معاوية يحلم أن يناله بهذه السرعة، أن يتنازل الحسن ويصبح هو الخليفة، فطلب طوماراً فارغاً وختم ووقع في أسفله، وقال لابن أخته: اكتب ما شئت. جاء عبدالله إلى الحسن بالطومار الفارغ المختوم فكتب فيه الحسن: هذا ما صالح عليه الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان. صالحه على أن يُسلم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيها بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين، وعلى أنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورى، والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم وذرائعهم، وعلى ألا يُبغى الحسن بن علي غائلة سرّاً ولا علانية ولا يخيف أحداً من أصحابه. شهد عبد الله بن الحارث وعمرو بن سلمة. وعاد ابن الحارث بالكتاب من عند الحسن إلى معاوية؛ ليشهد عليه أصحابه، ففعل، وتم الصُّلح على هذه الأسس. لكن الحسن كان يظن أن الكتاب الأول ساري المفعول، وهذا الكتاب يكمله، بينما اعتبر معاوية أن الثاني كتبه الحسن يلغي الأول، إذ وضع فيه ما يريد

ولا أكثر. الفارق بين الكتابين هو المبلغ المالي المقرر للحسن في الكتاب الأول، ولم يرد في الثاني، والتغيير في ولاية العهد التي عرضها معاوية على الحسن، ولكنه (أي الحسن) طالب بالشورى بديلاً في كتابه الثاني.

حضر معاوية إلى الكوفة مطمئناً جداً، فالاختلاف على المال يسهل حله مع الحسن، والشورى متفق عليها، وأمرها مُؤجل حتى يموت معاوية. استقبل الحسن معاوية، وبايعه وفعل الناس مثله، وبايعوا معاوية. وخطب الحسن في الناس، فقال: أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ أَكَيْسَ الْكَيْسِ الثَّقَيِّ، وَأَحْمَقُ الْحُمَقِ الْفُجُورِ. أَنْ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي سَلَّمْتَهُ لِمَعَاوِيَةَ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَقٌّ رُجُلٍ كَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنِّي، فَأَخَذَ حَقَّهُ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ حَقِّي فَتَرَكْتُهُ، لِصَلَاحِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ وَحَقَّنَ دِمَائَهَا. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَ بَنَاءَ أَوْلَكُمْ، وَحَقَّنَ دِمَاءَ آخِرِكُمْ.

من المؤكد أن الحسن كان يرى جده في تلك اللحظات، وهو يحمله على رقبتة ويباهي به المسلمين، ويشرهم أن ابنه هذا سيحقن دماء المسلمين. هكذا مكن الحسن المسلمين من الاجتماع والائتلاف، وعودة أهل الثغور وجيوشهم إلى مواقعهم، واستعداد الجيوش لاستكمال الفتح. اعترض الحسين على أخيه، ولكن الحسن هدده بوضعه في الحديد إذا استمر في الاعتراض. وكالعادة وجد من أهل الكوفة من أسمع الحسن ألفاظاً نابية مثل: يا مُذِلَّ الْعَرَبِ، يا مُسَوِّدَ وَجْهِ الْعَرَبِ، يا مُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ. لكنه لم يأبه بهم، وفرغ من الأمر،

وارتحل بأهل بيته كلهم عائداً إلى المدينة، تاركاً معاوية في الكوفة يتدبّر أمر دولته الجديدة.

في اليوم التالي على مسير الحسن من الكوفة خرج بعض أهلها على معاوية، فأرسل من يلحق بالحسن ليعيده لقتال الخوارج. ضحك الحسن ورفض العودة وقال للرسول أن يبلغ معاوية: لقد صالحتك، وما أريد إلا حقن الدماء واجتناب الحرب. وواصل طريقه إلى المدينة حيث لقي من بعض أهلها انتقاداً للصالح، فصار يقول للائمية: كرهت أن ألقى الله عز وجل، فإذا سبعون ألفاً أو أكثر تشخب أوداجهم دماً، يقول كل منهم، يا ربي فيم قُتلت؟

يمر الزمن سريعاً، ويرى أهل العراق مساوئ معاوية، وظلم من يرسلهم نواباً للعراق وفسادهم، فصاروا يرسلون الوفود للحسن طالبين عودته مستعدين لطاعته، ولكنه كان يقول للوفود: أنتم شيعتنا وأهل موَدتنا. فلو كنت بالحزم في أمر الدنيا أعمل ولسلطانها أعمل وأنصب، ما كان معاوية بأبأس مني بأساً، ولا أشد شكيمة، ولا أمضى عزيمة. لكنني أرى غير ما رأيتم، وما أردت فيما فعلت إلا حقن الدماء، فارضوا بقضاء الله وسلموا الأمر والزموا بيوتكم، وأمسكوا وكفوا أيديكم حتى يستريح بر أو يُستراح من فاجر. بدل الاستجابة للحسن صاروا يجتمعون مع الحسين، ويحرضونه ويتعهدون له بالطاعة متى قرر العودة للعراق.

صار يوم الحسن في المدينة يبدأ بصلاة الفجر، والمكوث في المسجد حتى تُشرق الشمسُ، فيزور أمّهات المسلمين، يحادثهن ويهاديهن، ويمضي لبعض أعماله قبل العودة للمسجد لصلاة الظهر، حيث يجلس للناس يستمع منهم ويستمعون منه. لم يصبح راهباً متصوفاً بالطبع، فقد أقبل على الحياة، وأكثر من الزواج والطلاق، منذ عودته من الكوفة عام 40 للهجرة حتى وفاته بعد عشر سنوات. مرض الحسن، وساد الظن أن إحدى زوجاته دَسَّت له السم بإيعاز وإغراء من معاوية الذي أراد توليه ابنه يزيد، وكان من مصلحتِهِ إزاحة الحسن مبكراً. وقد قال الحسنُ على فراش الموت بعد أن لفظ قِطْعَةً من كبده، أنه قد تم تسميمه، ولكنه رفض إجابته أخيه الحسين بذكر من دسَّ له السم.

أن عظمة الحسن وتفرّده تتجلّى في قناعته من عدم جدوى الحكم والتحكّم عبر التسلط. كان بوسعه الاحتفاظ بالخلافة، وأخذ الناس بالشّدّة لضبطهم، تماماً كما فعل الحكام عبر العصور من قبله ومن بعده، لكنه أقر بعدم القدرة على اللّجوء للعنف وسفك دماء المسلمين، وتحسّس استحالة إصلاح القوم الذين لم يُصلِحهم من سبقوه، ولم تردّعهم الحروب والقتل. لقد تأكّدت رؤية الحسن لاحقاً حين استجاب الحسين للثورة، وتحرك من المدينة للكوفة، استجابة للقوم، فخذلوه كما خذلوا أخاه وأباه من قبله، وتنكّروا له وأنكروه في منتصف الطريق، وكان ما كان في كربلاء ..

وماذا بعد؟

أين القُصُور الذي تسبَّب، وما يزال، في هذا التَّخَلُّفِ؟ هل هو الحاكم، أم الأُمَّةُ، أم الدين؟ أهو خليط من هذه العوامل، أم ظروفٌ دائمة السوء وحِظٌّ تَعَسَّ يصاحبُ المسلمين العرب، أم شيء له علاقة مباشرة بالتَّربية؟ حين يتنمَّرُ الحاكم أو يخطيء، يُفترض أن يوجد هناك من يصُحِّحه أو يحاسبه سواء أكان عبر تركيبة ونظام وقوانين الحكم، أم عبر رفض شعبي، ومطالبة بالتصحيح. لكن إذا تمكن الحاكم بالتسلُّط، ثم اجتمع حوله منافقون، وسكَّتِ الشَّعبُ لعقودٍ وقرونٍ على الحال وتكراره، فهذا يشير إلى قصور في التَّربية التي يُعتبرُ الدِّينُ أساسها منذ أربعة عشر قرناً، ولا يمكن أن يعني هذا التواصل للسُّوء رضاً شعبياً وراحة بال .. فالتَّخَلُّفُ الكارثيُّ الجليُّ له قطعاً أسباب، ولا يُعقلُ نسبه لحبِّ المحكوم للحاكم.

الحاكم المتسلِّطُ حين لا يجد من يردُّعُه وينصِّحُه، سيعتبر ذاته قائداً مُلهماً من السَّماءِ، ومُلهماً للشَّعبِ المطيع السَّاكن السَّاكت المتحمِّل كنتيجة للخوف. كون الحاكم سيرى ذاته مُلهماً وعلى علاقة بالرب وضمنان سكوت ممثلي الدين والآلهة عن أفعاله، فكل معارض أو صاحب فكر مختلف هو عدو لله وللدين وبالتالي عدوُّ للحاكم، ويجب سحله أو سلخه أو خوزقته، أو على الأقل سجنه وتعذيبه؛ ليكون عبرةً لغيره. كان المفترض في الدين أن ينور العامة، ويخلق العلماء الذين يرشدون ويصححون الحاكم، لكن وعبر التاريخ الإسلامي فالحاكم هو

الذي يصحح للعلماء، وينصّبهم ويستعمل الدّين حسب رؤيته، وذلك مع تأييد ممثلي الدين وقادته المعينين والمرتهنين للحاكم وسكوتهم (مع استثناءات قليلة وقف فيها رجال الدين ضد الحاكم)، وبالتالي يتّقبل العامة الأوضاع، ويستمرّ الخوض في المحاباة والتّخلف.

الإصلاح الديني، ثم عزل الدين عن الدولة هو الذي أنقذ أوروبا من براثن الجهل، ووضعها على الطريق الصواب من دون نفي للروحانيات، وضمان حرية التعبد والإيمان لأي مواطن مهما كان دينه. لو نصّبنا محمد بن سلمان، أو إسماعيل هنية حماس، أو أي شيخ أزهر، أو أي حاكم عربيّ حاليّ أو سابق، لو أصبح رئيساً لبلدٍ مثل سويسرا الحالية، وأطلقنا يديه ليحكم .. فما هي يا ثرى الفترة الزمنية التي سيحتاجها لإعادة سويسرا لتشابه حال بلاده؟ أم أنه سينجح في الحفاظ على وضع سويسرا المتّقدم طالما أنه حافظ على نظامها السياسي والاجتماعي والقانوني، وحرية الأديان، ومحاربة الفساد، ومحكمة الفاسدين، والأخذ بالنصيحة، والدستور، وتداول القيادة؟

هل سيتقبّل هذا الحاكم الافتراضيّ المؤقت النظام الديمقراطي والشفافية ونظافة اليد ويكف عن الاختلاس والسرقة الواضحة أينما استطاع، بل التّفنّن في كسب المال، ومدّ اليد والنّفس إلى الدّناءة؟ هل سيتحمل النّقْد من أي شخص، ومن الإعلام بدون أن يحفر في طريقهم ويعتقلهم؟ هل سيترك الانتخابات تسير بدون تزيف، وسيذهب بهدوء

كنتيجة للانتخابات .. أم أن أفعاله في الأساس منذ البدايه ستكون تأمين استمرارية حكمة بكل الطرق الملتوية؟

إذا افترضنا أن حاكمنا المبعجل سينجح في الحفاظ على سويسرا كما تسلمها، فلماذا لا يخلقُ العوامل السويسرية في بلاده؟ لقد فعلت بضع بلدان ذلك وتفوقت على سويسرا، مثل سنغافورة متعددة الديانات والمعتقدات، وارتقت من تحت الحضيض إلى القمة في بضعة عقود. لكن حاكمنا هذا سيجيب أن سبب تعثره في بلاده يعود إلى تياسة الشعب، أو إلى التدخل الخارجي، ولن يعترف عن مسؤوليته لهذا التخلف والفشل، ويمكننا أن نتفهم موقف مثل هذا لو كان الحاكم نظيف اليد عادلاً ومنصفاً للغير، وملتزماً بقوانين تُطبَّق على الجميع وعليه هو أولهم .. أي كما هو حال حكام أوروبا المنتخبين الذين حين يخطئون يُحاسَبون عبر القضاء ويسجنون مثل أي مخطئ آخر في البلاد، وهذا ما نراه باستمرار سواء أكان في إسرائيل أم فرنسا أم بريطانيا أم الولايات المتحدة التي حاکمت رئيسها (ترامب) مرتين خلال أربع سنوات، ناهيك عن زعماء دول أخرى ديمقراطية قُدموا للمحاكمات، وبالطبع تقديم موظفين بدرجاتٍ عاليةٍ كوزراء أو في منصب رئاسة الوزراء.

الحاكم الذي يسمح بسجنٍ معارضٍ أو خصمٍ من دون محاكماتٍ عادلة، أو يسمح لوزير أو لجهاز الأمن بفعل ذلك؛ سعيًا لحماية كرسيه، لن يتأهل مطلقاً لتقبل الديمقراطية، أو تطبيق العدالة حسب القانون

الذي يشملهُ، ويشملُ غيره ويطبق عليهما بالتَّعادل، وبالتالي سيبقى كل همّ الحاكم قهراً الشعب، والحفاظ على مستوى متدنٍ من التعليم وحجب الحريات؛ لأنَّ الشَّعبَ الواعي الحر لن يقبل بغير العدالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهذه تعادل بالنسبة للحاكم العربي الإسلامي زوال ديمومة حكمه الذي فاز به من تورثه أو انقلابه أو ثورته حتى مماته .. بل نشهدُ حتى في الدول غير الملكيّة جنوحٌ إلى التوريث من الديكتاتور الأب إلى الديكتاتور الابن، وكلاهما متسلط بالضرورة وخائفٌ على حياته من أبناء شعبه ومن جيشه .. أين هو الحاكم العربي أو الإسلامي الذي يذهب إلى مكتبه بوسائل النقل العام من دون حراسة؟ أو بمعنى آخر ينطبق عليه القول: حكمتَ فعَدَلتَ فِئمتَ أماناً تحت الشَّجرة؟ وهذا ما نراه يُطبَّقُ من قادة حاليين وسابقين في أوروبا وأمريكا.

الدين الإسلامي بتعريفه الواسع، الذي يؤهل التطبيقات السلبية، هو الذي يسمح لاستمرار التخلف عبر تمكين الحاكم وتهميش دور المواطن. يسهل القول أن الدين سليم والتطبيق غلط .. لكن ذلك الرأي يمكن تقبله لعام أو حتى لقرن من الزمان، أما أن يُمرَّ أربعة عشر قرناً من التخلف الناتج عن الاقتتال، والحكم بالتسلط وتمكين الجهل، ثم نسب الخطأ للحاكم فقط، أو حتى للشعب الذي لا يفهم كيف يطبَّقُ دينه، فهذا غير مقبول. لو فرضنا الدين الإسلامي بشريعتَه وأحكامه كما هي مطبقة في السعودية أو إيران، لو فرضناه في بلجيكا أو لوكسمبرج، فلن ترتفع هذه البلاد وسكانها إلى الأعالي، وإنما ستنضم إلى مجموعة

الدول في أعلى سلم التخلف، وبالطبع ستعيش حروباً أهلية وتقتيلاً وتهجيراً.

الحاكم المستبدُ محقٌّ في تبرير الفشل بنسبه لقوى وعوامل خارجية، لكن في العادة هو الذي ارتكز على هذه القوى لديمومة حكم شعبه وتخلُّفه، ولأن العالم الخارجي مهما كان متطوراً وإنسانياً إنما يسير حسب مصالحه، نجد الميلَ إلى جانب الظالم طالما أنه مفيد لهم، ويدعون الرغبة في دعم المظلوم حين يكون الحاكم غير مطيع لهم، أو بالأحرى غير مطيع للدول المهيمنة بالقوة والتخايل على البشر عبر الكرة الأرضية، كما يبدو واضحاً في سياسة الولايات المتحدة الخارجية. ولا يمكننا توقُّع اعتماد الحاكم المستبد على شعبه لمواجهة الخطر الخارجي، وتحقيق التنمية والتقدم، كون الاعتماد على الشعب قد يعني تغيير الحاكم، واختياراً سلمياً لواحد أنجع منه .. وهنا يأتي التناقضُ في مفهوم الحاكم العربي الإسلامي لماهية الحكم ودور الحاكم، أي؛ رؤيته للديمومة والاستمرارية والتوريث، وهذا كل ما يشغل ذهنه ويدفعه للتحالفات الخاطئة واستعداده للتضحية بالشعب والبلاد من أجل الاستمرار .. إنه المُلهمُ من الله المُلهم للشعب المعادي للزنادقة حتى لو كانوا أغلبية الشعب، وقتلهم وطردهم وتجويعهم هو انتصار له طالما بقي حكمه قائماً. ألفظيحُ أن المصائب المتتالية على هذه الشعوب تدفعهم، لجهالتهم، للاعتقاد بأن أيام الخنوع للحاكم الظالم كانت أفضل من وضعهم الحالي.

لنتأمل التجربة المتشابهة التي ستتكرّر لبعض الدول العربية. فلسطين، العراق، سوريا، لبنان، اليمن، السعودية وغيرها. مأساة هذه الدول جاءت بفعل خارجي معتمد على جهالة عامة سائدة وأخطاء للحاكم المسؤول (مأساة السعودية قيد الأعداد كما سنرى). المؤسسة الحاكمة في لبنان هي المسؤولة المباشرة عن تطوّرات الوضع من فساد وإفلاس وشبه مجاعة، وبطالة وصراع وهجرة لمن يستطيع، ولا يحتاج الوضع هناك لأي شروحات إضافية اللهم تذكر نسبة الوعي للشعب اللبناني الذي يعيش هذه الظروف على يد قياداته ويعجز عن التصحيح .. السبب هو حتماً الدين وما أنتجه من نظام طائفي إقطاعي يلغي أي مزايا لتعليم الشعب طالما أنه تقبل تلك الطائفية.

العراق، الذي يقع ضمن حدود إسرائيل الكبرى المنشودة، تم الدفع به إلى الحرب الطاحنة ضد إيران تحت شعار دفع الخطر الشيعي عن السُّنة في دول الخليج التي مولت الحرب لثمان سنوات، ثم انقلبت على العراق كونه أصبح خطراً على استمرار أنظمة الحكم المتشابهة في الخليج، وخطراً على إسرائيل . كانت النتيجة تدمير البلاد وقتل العباد وتهجيرهم، وفرض واشنطن لنظام حكم طائفي يضمن استمرار الفساد. المستفيد الأكبر من هذا التطور كان إسرائيل وأمنها الحالي وخططها المستقبلية.

الوضع السوري أصبح أتعس من العراق بالرغم من استمرار النظام الذي دمر البلاد عبر الدفاع والهجوم، وقتل وهجر نصف العباد،

ودمّر الاقتصاد إلى درجة ارتقاء سندوتش الفلافل إلى طلبٍ غالٍ لمعظم الناس في الشام. تقع سوريا هي الأخرى ضمن حدود إسرائيل الكبرى المنشودة، ويمكن لإسرائيل احتلالها عسكرياً بكل سهولة، ولكنها بانتظار المزيد من تأهل بقية السكان لطلب الحكم الأجنبي، وطالما الأوضاع في تدهور، فلا داعي للعجلة الإسرائيلية، ولا للصُلح بين فئات المعارضة السورية وبعضها، أو صلحها مع النظام. أصبح علينا دعم إسرائيل لمليشيات في سورية، ولا ينكر أحد أن المليشيات عموماً وردت عبر تركيا بدعم أوروبي مباشر، وغيرها يتسلّح بأموال خليجية كتصفية حسابات بين الأنظمة العربية.

الحال الفلسطيني هو الأبعد عن المنطقية والتقبل! شعب كان يوصفُ بالأكثر تعليماً وثقافةً والأشدّ بسالةً في التصدي للصهيونية، أصبح قادته العواجز يخدمون الاحتلال، ووصل الشعب إلى درجة استساعة بناء المستوطنات بأيديه وشراء المنتجات الإسرائيلية واستهلاكها .. بينما الفريقان الرئيسان الفاسدان يتناحran ويعطلان أي فرص لتولية الشعب أدني حقوقه .. فساد مستشرٍ والاهم إضاعة فرص تجديد الشرعية، وقد وصل الناس لتمي عودة الاحتلال الإسرائيلي المباشر .. لكن إسرائيل تبني المستوطنات، وتسحب الأرض تمهيداً، لتقوية مركز إسرائيل الكبرى قيد الإعداد.

حتى هنا وسابقاً ولاحقاً نرى أن الدين عنصر أساس في التّصارع، ولا يمكن لأي تفلسف نفى هذه الحقيقة. وكما رأينا أن

الخلافات والقتال والاختال والصراع على السلطة والتسلط قائمٌ قبيل دفن الرسول، فإن خلفياته وقادته لقرون تلت كانوا القرشيين .. يقتتلون فيما بينهم، أو يتحدون مؤقتاً للقتال ضد يمينين أو قيسيين، أي أعراب يسعون للتسلط. أيضاً لاحقاً وحتى الربع الأول من القرن الحادي والعشرين الميلادي، ما زال غالبية الحكام العرب ينسبون أنفسهم للرسول أو لعلي بن أبي طالب، أو على الأقل يفتخرون بأن أصولهم أعرابية من الجزيرة، وبالطبع كلهم يدعون الحكم بشرعية الدين، وذلك حتى يتقبلهم الشارع .. المضحك المبكي أن بعض الإسبان اصحاب الاسماء القريبة للعربية يتفاخرون هم أيضاً بأصلهم على بقية الإسبان .. إنها الجينات.

ماذا عن اليمن والسعودية وإيران؟ كان الشاه الإيراني حليفاً للغرب ولواشنطن ولإسرائيل وللسعودية، وبقية الملكيات العربية عموماً. بعد الثورة الإسلامية، وتولي الخميني تذكر أنه من شيعة علي ولديه حساب مع أهل الكوفة ومع أهل السنة، فأعلن عزمه تصدير الثورة للجيران، وأي ثورة وأي مبادئ وأي تجديد للثارات!! بدل التفاعل مع إيران، ومحاولة رأب الصدع، وتجنب الصراع، تم التأجيج، وقتل الملايين من الإيرانيين المساكين والعراقيين. بعد التطورات المعروفة والهدوء النسبي عاد الصراع عبر الوكيل الحوثي في اليمن جارة السعودية .. وتدمرت اليمن وشعبها والتجأت السعودية مبدئياً لإسرائيل وواشنطن؛ للاستقواء على عدو مشترك كان يمكن تحييده. بدون الخوض في التفاصيل المعروفة، وبعد تقطيع ولي العهد لمعارض وسجن

معارضين ومعارضات، وبعد دفع الأموال الطائلة لاسكات أمريكا، تغيرت الإدارة في واشنطن، وباشرت في الابتزاز المشروع، والضرب على وتر الحريات والديموقراطية المفقودة في السعودية. الهدف الذي سيتضح هو عدم اكتفاء واشنطن بدفع السعودية لجيرانها على التطبيع مع إسرائيل، وإنما رغبتها في تطبيع قوي وصريح بين البلدين كضمن للاعتراف بالسعودية إذ تسير على الطريق الصواب الديموقراطي.

حين تستجيبُ الرياضُ بقيادة محمد بن سلمان للرَّغْبَةِ الأمريكيَّةِ الإسرائيلية، ستبدأ مشاكل المملكة تتشابه مع مشاكل العراق وسوريا، وستكون هذه الضربةُ شبه النهائية؛ لتقزيم العرب، وسلب بقية أموالهم، وخطوة متقدمة لتكرار ما حدث في الأندلس، وبالطبع التمهيد لإعلان إسرائيل الكبرى، ولا بأس من بقاء عبيد الله من أحفاد الرسول أو أحفاد الصَّحابة حُكَّامَ أقاليمٍ هنا وهناك، يُعينون ويعزلون بتعليماتٍ أو مؤامرات من القدس.

الاستعباد الغربي للعرب

كان الإسلاميون ومنذ ما بعد الرسول مهتمون، بنسبة متصاعدة مع مرور الزمن، بالسلطة واحتكارها، وليس بجوهرها كأداة تطوير، أو تعميم للخير، بل يعثون الناس لخدمة السلطة، سلطتهم السياسية بدلاً من تقاسمها وتداولها، ونشر العدالة والحرية وبالتالي سيادة الرخاء والعلم. إن أجندتهم سياسية ضيقة أنانية، وذلك بالرغم من نسب ذواتهم إلى الرسول مباشرة، أو حتى إلى الله عبر خدمة دينه، وبالتالي؛ نيلهم توكيله، وتأكيدهم أن مسؤوليتهم أمام الله.

الحاكم يقتل ويفعل المستحيل للجلوس على الكرسي، ثم يلتصق به، وتدرجياً يفتقد العلاقة بالواقع نظراً لكمية اللذة، وتدفع هرمون الدوبامين (السعادة) بتأثير الهيروين المتولد من السلطة المطلقة كلما طالت. يُقنع الحاكم ذاته بأنه يبذل كل ما يستطيع؛ لخدمة الشعب وأن الله هو الرقيب والشاهد والمحاسب يوم القيامة، لكن ليس الشعب أو المؤسسات أو القانون، الله فقط هو المكلف له، وربما يعمل بعض الحساب لما سيقوله التاريخ عنه، ولكنه لا يُقر بمسؤولية الشعب والمؤسسات والانتخابات في محاسبته.

الحاكم يعرف مصلحة الشعب ويضمن حقوقه الى درجة التحكم في نتيجة أي انتخابات قد تحصل .. الانتخابات العربية يجب ان تكون مضمونة النتيجة، وبنسبه مرتفعه لصالح الحاكم، الذي يحق له الغاء الانتخابات أو تأجيلها حتى تتوافق مع خدمة الوطن .. الشعب عليه

تلقي نعم الحاكم، وهو محظوظ بهذا الحاكم المتواضع الذي يفتح لهم باب، ويقبلُ الأطفال، ويشترى الخضارَ مثلهم، ومن يعارض أو ينتقد فأهدافه لثيمة، وهو خائن وله أجندة خارجية، وسيطبق عليه العقاب بعيداً عن أي قانون، لأن أفعاله لا تُرضي ربنا، وتهديمُ ديننا، وهذا ما سمح دوماً بسلخ الجلدِ والخوزقةِ والسَّحلِ والسَّمَلِ والتعذيبِ الجسديِّ والنفسيِّ، وسعيد الحظ من يكتفي الزَّعيمُ بسجنه انفرادياً طوال سنوات .. هذا الزَّعيمُ معذور ومسيّرٌ، ولن يذهب عن كرسي الحكم إلا إلى الله مباشرة سواءً أكان لعلّةٍ ومرضٍ من طول العمرِ، أم بالقتلِ ممّن سيواصلُ المسيرة بنفس العقلية القائمة على ذات العقيدة منذ أربعة عشر قرناً.

ذلك ما فعله الخلفاء، كما رأينا، ومن بعدهم الأمراء والملوك والسلطين والرؤوساء وزعماء الميليشيات الطائفية والثورية، وكل من يتملك ويتحكم بقوة البطش، وقطع الرؤوس أو التزييف والفساد. فمنطقي أن نفترض عدم صلاحية ما كان ناجحاً في القرن الهجري الأول بعد أربعة عشر قرناً، لكنه بالفعل مازال يُطبَّقُ كون الحاكم والمحكوم يحملون ذات العقيدة والنظرية التي أوقعتهم في براثن الأنانيّة، ويتعترّون من دون شجاعة في التروي والتفكير، وإتخاذ قرار التغيير .. إنها قوة العادات والتقاليد التي تراجع عنها الجاهليُّون لصالح نظرية حياة جديدة، ولكن المسلمين من بعدهم يرفضون مجرّد التأمل، ويسعون للعودة إلى الماضي. حتى الأحزاب الإسلامية الساعية إلى السلطة لا تتوانى عن تفضيل المصلحة الأنانية على مصلحة الوطن والقومية، وهم

على استعداد دائم لتدمير الآخرين والذّات، وخدمة العدو بشق الصفوف مقابل مكاسب مؤقتة، هي بالضرورة وهمية. هذا ما حدث في كل المراحل، سواء أكان في الأندلس أم قبلها وبعد ضياعها، وصولاً للربيع العربي والانتخابات الإسرائيلية في مارس 2021 التي شقّ فيها الإسلاميون الفلسطينيون صفوف عرب فلسطين، وافقدوهم قوتهم المحتملة ضد الصهاينة وهم بمثابة التحديث الأخير في مسلسل المواجهة العربية الإسلامية ضد النصرانية الغربية، بل إن زعيم التوجه الإسلامي الذي فاز بخمسة مقاعد كان قد أعلن استعداده، للتعاون مع أوسخ رئيس وزراء إسرائيليّ وأشدّهم عنصريّة.

الصراع بين الإسلام العربي والغرب النصراني قائم منذ بدايه الفتوحات، واحتلال عرب الجزيرة لجنوب حوض البحر المتوسط وشرقه حتى يومنا الراهن، ومرشح للاستمرار في المستقبل المنظور طالما هناك منفعة لطرف من عدائه العلني أو المبطن للطرف الآخر، والغرب الآن هو المنتفع من إدامة الصراع .. تتبدل الأشكال في الصدام، وكذلك الأدوار والأساليب، لكن الجوهر واحد، وعنصر الدين مُعتمد وداخل في كل تبريرٍ من الطرفين الرئيسيين في الصراع، حتى في القرن الحادي والعشرين .. المصطلحات والمؤثرات لا زالت دينية من الغرب العلماني ضد الإسلام، وبالطبع من هذا ضد عالم الكفار. يعتمد الغرب ومثقفوه في الهجوم على الدين الإسلامي بأنه سبب للتخلف كونه دموياً وغير قابل للتحديث كما يثبت التاريخ والواقع، فأينما تُحكم الدول الإسلامية بالشريعة أو على الأقل بتأثيرات وعادات إسلامية قديمة لا

تتناسبُ مع المجريات المجتمعية توجد المظالم والتخلف. ويدافع المثقفون المسلمون بأن الإسلام قابل للتطور، ولكن ممارسات القادة المحليين هي العائق، وهؤلاء من صنع الغرب الاستعماري والانتهازي الحالي، ومصالحتهم في الاستمرار بالحكم عبر الفساد والظلم، وتشجيع أسباب التخلف وحمايتهم. لكن المثقفين هنا يتناسون ممارسات الحكم في الربوع المختلفة من العالم الإسلامي منذ بدايات الإسلام حتى بدايه الفترة الاستعمارية الغربية في القرن التاسع عشر، أي منذ كان المسلمون هم الاستعماريون، ولم يعين الاستعمار حكامهم.

بمعنى آخر المطلوب من المسلمين أن يخرجوا من حفرة التخلف سواء أكان بتقليد الغرب في طريق العلمانية الاجتماعية والديموقراطية السياسية، أم اختراع فلسفة ناجحة جديدة تجعلهم في ظروف أفضل، وأقدر على مجازاة الغرب وبقية العالم بروح وعقيدة وممارسة ناجحة، وليس مطلقاً بالعودة إلى الماضي الذي كان تعيساً كما تثبت المراجعة المنطقية للتاريخ، وكما نرى النتائج اليوم. إنه من غير المعقول القول أن الدين كما نفهمه وممارسة كان على صواب طوال أربعة عشر قرناً، والعيب كل العيب في أتباع الدين! كيف وهام المسلمون ينجحون في بلاد الغرب حين يعيشون ضمن قوانين العلمانية؟

جاء الاستعمار الحديث كنتيجة للتحديث في الغرب، واستبدال النظام الديني الحاكم بالنظام العلماني الديموقراطي، ولكن مبادئ العدل والمساواة لم تعمم عالمياً أو حيث وصلت قوة الاستعمار وغزواته، بل

على النقيض، فقد آمن الغرب الاستعماري العلماني الديمقراطي بالعنصرية والفوارق بين الأجناس، وتصرفوا كأنهم أرفع وأرقى من الأمم غير الأوروبية .. ومن هنا خُلِقَ التناقض في التعامل والذهنية الغربية التي لم تتخلَّ عن عنصر الدين الصدامي أثناء تعاملها مع غير الأوروبيين، واتَّسمَ تعاملها مع العرب والمسلمين بالثَّار والانتقام. الكثير من فلاسفة النهضة الأوروبية والثورة ضد حكم الدين المسيحي آمنوا بالفوارق بين الأجناس، وبرقي الجنس الأوروبي ومهدوا للعنف والظلم الاستعماري، وهذا ما لم يفعله الإسلام حين سيطر على أجزاء من الإمبراطورية البيزنطية الرومانية؛ اذ قَنَّ للاستفادة الاقتصادية من الشعوب المحتلَّة، ولكنه رفع شعار المساواة بين البشر، ومنح ذات الحقوق للمسلمين الجُدِّ طالما أنَّهم يدفعون الزَّكاة والضرائب، وآمن غير المسلمين مقابل دفع الجزية.

لكنَّ العربَ وبعيداً عن الشُّعارات القديمة والحديثة، لم يتخلَّصوا من عقلية التمييز والمفاخرة التي سادت في الجاهلية، واستمرت حتى وقتنا الحاضر، بل لا زالت المفاخرة في أسوأ تجلَّياتها منتشرة بين العرب، وأقلَّها استمرار العُبودية القائمة علناً في دول عربية، وبشكلٍ شبه علني في بقيَّتها مثل كثرة الاعتماد على الخدم ومعاملتهم كالعبيد، بل وصلت الأمور أخيراً (ربيع 2021) إلى طلب وزير العمل السُّعودي استقدام خادِماتٍ سورياتٍ بعد أن دمَّرت سياستهم سورية .. أمَّا كيف تُعاملُ الخادِمات في الدول العربية فلا يخفى على أحدٍ.

التخلف ينشأ في بيئة اجتماعية يظن أصحابها إنهم في قمة التقدم، ويعتزون بشدة بواقعهم ويفضلونه ويدافعون عنه. بل إذا رزقهم ربهم بحاكمٍ مستنيرٍ، ووجد بينهم فيلسوف يرشدُهم لطريق النِّجاة، يتهمُّونهم بالتَّطَرُّف والكفر وسوء النية. الثقة مفقودة بين الأفراد والتوجهات، وبين المجتمع والدولة بغض النظر عن شكل الحاكم وتصرفاته خصوصاً إذا وقع في مطب السعي لتطوير البلاد حسب نموذج نجاح في بلاد أخرى .. هنا تشارك عناصر الدين مع فقدان الثقة وتفشل المحاولة المنقولة. إن مثال أزمة جائحة كورونا منذ ربيع 2020 خير دليل على تصرف المجتمعات المتخلفة .. لم تصدق العامة بوجود جائحة، وتأكدوا من سوء نية الحكومات، لحجرهم في البيوت، وبالطبع إغلاق الجوامع هو عمل مقصود مضاد للدين، وحين أنجز الكفار اللقاح للخروج من الازمة سادت القناعة بين الأمم المتخلفة أن الغرب والحكام المحليين يريدون قتل الناس ومنع النسل أو على الأقل التجسس على المواطن .. هذا المواطن المتخلف الذي لا يزال يظن أنه من الصعب التجسس عليه، والذي لا يتعظُّ بما يجري في الدول الصناعية المصنعة للقاح من صراع على تملك كميات كافية .. المتخلف موهوم بأهميته الذاتية، وبأنشغال أغنياء العالم بالقضاء عليه عبر بذل الغالي والرخيص.

الموقف الإنساني الغربي نسي في قضية الجائحة، ويرتكز على ضرورة علمية مفادها؛ ضرورة تلقيح الجميع وحمائتهم، عبر العالم المتصل مع بعضه بعضاً، مقابل توفير الأمان للجميع، وعدم دوران الفيروس وتجده ليعود بالعدوى. هذا الموقف يواجهه موقف جاهل

متخلف وأنااني في العموم، ونابع من سوء النية في الدول العربية. بمعنى آخر هذا يعني لو كان الدَّواءُ في يد العربيِّ المسلم لما أعطاه للغربيِّ الكافر. الموقف أيضاً يعكسُ ما في النفوس من رَغَبَاتٍ، وطريقة التفكير، ولو حدث بقدرة قادر أن عاد العرب اليوم لاحتلال الغرب لما تصرَّفوا بغير روح الانتقام أو بشكلٍ مغايرٍ عَمَّا فعلوه حين احتلوا شرق البحر المتوسط وجنوبه قبل أربعة عشر قرناً.

تطبيقُ الدِّيناميات التَّنمويَّة التي نقلت العالم الغربي المسيحي من سيطرة الدين إلى هيمنة العلم والعقل وأوصلته إلى الحضارة السائدة الآن، هذا التطبيق التَّنموي لم ينجح ولن ينجح في البلدان العربية الإسلامية، أو في الدول الدينية، مثل الهند، وبعض دول أميركا اللاتينية، كون طريقة الغرب ألغت مزايا الدين في الحكم والقانون، وبقي على الصعيد الشخصي مع كل الاحترام والدعم والفهم. تقليد الغرب في هذه الخاصية ليس بالمستحيل ولكنه صعب نظراً لقوى الشدِّ العكسي، وللجهل السائد الذي يصور العلمانية كفرًا، كما أن الفئات الحاكمة والمهيمنة في المجتمعات العربية الإسلامية والآخرى الدينية تقتات على استمرارية هذا الوضع الذي يحمي مواقعها ومصالحها. غني عن القول أن التطبيق والتنظير الديني أبعد ما يكونا في التضاد سواء أكان في مبدأ العبادة أم المعاملات كون الجميع يريد شيئاً من الغنيمة ومستعد للكذب والتدجيل، وأقصى درجات الأناية التي تُفتت بُنى المجتمعات. حتى على صعيد الدول العربية الإسلامية لا نجد للدين أي دور إيجابي حيثُ تتفاوتُ نِسَبُ الدَّخَلِ بين مواطني هذه الدول من الصفر إلى القمة، من

التبذير في الطعام هنا، والمجاعة المدقعة هناك، وجميعهم عرب ومسلمون ويصُلُّون الجمعة، ويدعون صوم رمضان الذي لا يعني شيئاً للجوعى، ويملاً فائض الطعام المزابل، ويُقدَّر بالمليارات في الدول المتخمة العربية الإسلامية .. وبالرغم من ذلك وغيره الكثير من النفاق يُصَّر الجميع على عدم تطوير المجتمعات، وذلك عبر تمسكهم بالوروث من الأساطير والخزعبلات واعتبارهم الدين بمفهومهم قوياً. أكثرية من سكان البلاد الدينية لديهم الاستعداد لتقبل روث البقر، وبول البعير كدواء ولقاح ضد كوفيد والكورونا، ذات مفعول أفضل من اللقاحات الغربية والعلمانية.

هل من حلولٍ سحريةٍ أو واقعيةٍ تؤدي للتطور المجتمعي مع الاحتفاظ بالسائد من العقائدي؟ لا أظن! ربّما بعد بضعة قرون توجد طبقات متنامية نوعاً وعدداً قد استوعبت أهمية الديمقراطية واتَّحدَتْها كمنهج عائلي يتطور إلى مجتمعي، ويؤهل لحكم تداولي، هذا إذا ترك الغرب العرب في حالهم ولم يكتفوا الانقضاض عليهم. قد يكون الفساد أخطر على المجتمعات من التدخل الخارجي، وهو الذي يُفشّل العرب في التصدي له كونه متغلغلاً في العقلية، ومركز على أساس الغنيمة بأي شكل. والفساد من أهم أسباب التخلف كونه يمنع التنمية، أو على الأقل يرفع ثمنها إلى درجات قصوى ستؤدي حتماً إلى الفشل. من جهة أخرى، فالفساد هو نتاج للتخلف المرتبط بنفسه المتخلف وعاداته وطباعة وقناعاته العلنية واللاواعية. مثلاً نجد ترحيباً نفسياً وتمجيذاً عربياً للغزو، الذي هو قائم على النهب والسلب، وجمع الغنائم، وحين

تندعم الحروب أو يصبح العرب أضعف من أن يغزو الآخرين بل مغزوين، تبقى النفس محبة لنتائج الغزو، أي النهب والغنيمة، أو على الأقل التدمير والتخريب. إذاً هو مذهب وقناعة نفسية لم يعمل أي نظام تربوي على تعديلها لدى الناس، لدى العرب والمسلمين، فذلك التعديل يحتاج لمراجعات ممنوع على المسلم والعربي الخوض فيها .. والنتيجة استمرار تمجيد نتائج الغزو، وانتهاز أي فرصة وموقع لتطبيق تلك النتائج من دون اهتزاز ذرة من الضمير، بل اعتبار ذلك مهارةً وشطارةً؛ إذ تأخذ نصيبك مما هو متاح لك من مال عام أو خاص أو انتهاز الفرص لكسب أي غنيمة، وهذا هو الفساد بعينه. بمعنى آخر كل عربي ومسلم يعارض الفساد نظرياً أو حين يكون متضرراً من نتائجه، هو في الحقيقة مُرشح قوي لممارسته حين تتاح الفرصة له حتى في بلاده.

نفسية هذا العربي المسلم البسيط لا تختلف في الواقع عن نفسية قادة كبار في الغرب، الفارق أن (بوش) ومن سبقوه ولحقوه يمارسون استلاب الغنائم من الآخرين خارج بلدانهم، فاحتلال العراق بقيادة (بوش) وضد رغبة الأمم المتحدة كان؛ لجمع الغنائم لبلاده، وهذا فارق آخر في أن الغنيمة لا تذهب إلى جيبه. وحين ادّعى اللورد (روزبري) أن الإمبراطورية البريطانية إنسانية علمانية تعسى لخير العالم، لم يكن يفكر في عالم العرب والعبيد والأفارقة والآسيويين المنكوبين من الإمبراطورية .. حتى بعد قرنٍ على موت ذلك اللورد الأخرق جاء حمقى مثل (هتلر) و(ستالين) و(فرانكو) و(موسوليني)، واستغلوا الدينَ في الداخل؛ لإحكام سيادتهم ولجؤوا لإعادة تقسيم العالم كغنيمةٍ بين بعضهم مما

أدى للصراع والحرب العالمية الثانية .. وزعماء الغرب بعد الحرب أعلنوا الانكفاء عن الاستعمار، ولكنهم نصبوا القيادات في العالم المُتخلف من جرّاء أفعالهم، وأقاموا إسرائيل؛ لضمان استمرار الاستعمار والتدخل وبقاء علاقات الهيمنة والغنيمة على حالها.

لقد أصبح من المخزي انحدار الولايات المتحدة إلى مستوى الدُول الاستعماريّة، وهي التي عانت من الاستعمار الإنجليزي والفرنسيّ، وتبنّت سياساتٍ معتدلةً حتى خمسينات القرن الماضي. كما أنّه من العار على الديمقراطية الأمريكية التسيّب إلى درجة وقوع مؤسّساتها في براثن الصّهيونيّة العالميّة، لتصبح رهينة لها لدرجة التّضادّ مع المصالح القوميّة الأمريكيّة أحياناً. لقد قلّدت أميركا الإمبراطورية البريطانيّة في الحِقبة الماضية، فاحتلّت بلداناً، ودمّرت أخرى واستعملت السلاح النوويّ، وتبترّز علنا الدول الغنية الضعيفة عسكرياً من أجل حمايتها، وهي التي تخلقُ مشاكلها في الأصل.

مصطلح "المصالح القوميّة" الذاتيّة الذي تدّعي القوى الاستعمارية تطبيقه غالباً ما يتعارضُ مع القوانين الإنسانيّة، والمواثيق الحديثة، كونه يُعبر في الحقيقة عن الطّمع والجشع، ولا يتعلق بمصالح تجاريةٍ سلميّةٍ تبادليّةٍ مثلاً. تحت ذلك التعليل احتلت بريطانيا الهند، ولتأمين مصالحها في الهند احتلت مصر وإيران، وتشاركت مع فرنسا في استعمارٍ بربريّ للعرب لم ينقُصه التّفننُ في قطع رؤوس آلاف الذين يرفعون رؤوسهم، ولا زالت متاحف فرنسا تعجُّ برؤوس المغاربة والجزائريين. لقد ظهرت

هذه الروح البربرية لدى السياسة الأمريكية بوضوح، وعبر عنها مساعد وزير دفاع أثناء حرب الخليج 1991 لو كانت الكويت تنتج الجزر لما اكرثنا بالأمر". هذا هو الحال مع قوى الاستعمار القديمة البريطانية والفرنسية، والحديثة الأمريكية والإسرائيلية، فإذا لم تكن ذنباً ستأكلك الكلابُ خصوصاً إذا كان معك فطيسة (النَّفْط).

أساليبُ الاستعمار الغربي قائمة على أسس جليّة لمن يريد رؤيتها. حين احتلت بريطانيا العراق 1917 أرسل مجلس الحرب برقية للقوات تقول: "ستكون العراق دولة عربية يحاكم محليّ أو حكومة تحت الحماية البريطانية في كل شيء ما عدا الاسم. وبناء عليه؛ لن يكون لها علاقات مع الدول الأجنبية... وستدار شؤون بغداد من وراء ستار عربي زائف قدر الإمكان" هذه النظرية استمرت لآن وموجزها دعم أنظمة حكم عميلة. في عام 1947 علّق مكتب الخارجية على الأساليب الاستعمارية الجديدة قائلاً: "يمكن الحفاظ على مصالحنا الاستراتيجية والأمنية في أنحاء العالم بشكل أفضل بإنشاء (محطات بوليس) في مواقع مناسبة، تكون معدّة بشكل كامل؛ للتعامل مع الطوارئ ضمن نصف قطر كبير. فالكويت واحدة من هذه المواقع، التي يمكن بواسطتها السيطرة على العراق، وجنوب إيران، والعربية السعودية والخليج الفارسي وإسرائيل هي القاعدة الأشمل. وفي فترة ما بعد حرب الخليج ظهر أن أميركا تدعم مثل هذه الأساليب وتمارسها، بل تحلّ أيضاً محلّ بريطانيا كصاحبة النفوذ في الشرق الأوسط بتبني إسرائيل والأهداف من

إقامتها وأنشاء القواعد العسكرية، وتنصيب الحكام وحمائهم ضد رغبات الشعب ومصلحه.

لقد جدّدت أمريكا وطوّرت أساليب جديدة للاستعمار بجانب الاستمرار في التقليدي منها مثل؛ التأكيد على العمليّات السريّة، والاستبعاد الاقتصادي، والمكائد السياسية، والمؤامرات، والاستعانة القصوى بأساليب الاستخبارات، والتعاون مع أنظمة الحكم العميلة لهم، وستشجّع التعذيب والسجن والقتل. وقد شرح (جيسي ليف)، المُحلّل الرئيس لشؤون إيران في وكالة الاستخبارات المركزيّة التّخويفَ للشرق الأوسط عندما قال: "نحن أنشأناهم، نحن نظمناهم، علمناهم كل شيءٍ نعرفه.... آليّات تحقيق صارمة... تشمل التعذيب... كانت هناك جولات على غرف التعذيب، التي كانت تُموّلُ جميعها من قبل الولايات المتحدة". لقد شرحت مذكرة أميركية حكومية السيطرة على شعوب الشرق الأوسط، حيث ذكرت: "تحدّد السياسة الأميركية الحالية مبيعات الأسلحة إلى بلاد في الشرق الأوسط بكميات معقولة، لازمة من أجل الحفاظ على الأمن الداخليّ". بينما تمنح واشنطن إسرائيل المال والدعم الاقتصاديّ، وأحدثت الأسلحة وتسمح لها باستعمالها دون مراعاة للقانون الدوليّ، قال مجلس الأمن القوميّ الأميركيّ إن المساعدة العسكرية لبقية دول المنطقة ضروريّة "كوسيلة لحفظ الأمن الداخليّ".

التّدخلُ الأمريكيّ المباشر لم يتوقّف بالفعل منذ بدايه الخمسينات حتى حروب الخليج المتتالية التي أصبحت أكبر عملية غزو عسكري

تقوم بها أميركا في الشرق الأوسط، فقد أدت إلى احتلال عسكري في كل شيء، ماعدا الاسم، حيث دعمت القواعد العسكرية الموجودة، وأنشأت قواعد أخرى في العربية السعودية، وقطر والكويت. يتباهى القادة العسكريون الأمريكيون علانية في تملكهم للمنطقة، ولم يتردد البريجادير جنرال ويليام لوني بالقول: "يعلمون أننا نملك بلادهم.. نحن الذين نقرر الطريقة التي يعيشون بها ويتكلمون بها.. وهذا هو الأمر العظيم الذي تملكه أميركا الآن. إنه أمر جيد، خاصة وأنه يوجد هناك زيت كثير نريده". وكان الرئيس الأمريكي (دونالد ترامب) قد أعلنها مراراً جهاراً أن الأنظمة الخليجية لن تصمد لدقائق من دون الدعم الأمريكي وأن عليهم تبعاً لذلك دفع الجزية مقابل هذه الحماية، وشراء أسلحة متطورة اسمياً؛ لتشغيل المصانع الأميركية، وللحماية من الأخطار الداخلية، ويحظر عليهم شراء أسلحة من مصادر غير غربية.

الغريب أن منظرين ومثقفين غربيين كثر يعتبرون أنفسهم دعاة تحرر، وبلدانهم مؤيدة للتطور والتحضّر البشري، ولا يتلمّسون الحقيقة الساطعة من تاريخ بلدانهم، ومن حاضرها الاستغلالي الاستعماري البحت. وبالرغم من انتقاد بعض هؤلاء لسياسي بلدانهم في مجال سياستهم الداخلية إلا أنهم يؤيدون، وعلى الأقل، لا يعترضون على ممارسات هؤلاء السياسيين تجاه العالم الثالث. يقول (توني بلير) رئيس وزراء بريطانيا أثناء الغزو للعراق الذي كان يعرف كذب المبررات التي روجها مع الأمريكي (بوش)، يقول رابطاً الماضي الاستعماري بالحاضر: "كانت بريطانيا قوة عظمى في شؤون العالم لعدة قرون.. ولا

يوجد مواطن (بريطاني) خلص يرغب في التنازل عن هذه المنزلة. كانت بريطانيا كمثال استعماري، تنهب الأمم الأضعف سواء أكان بتخريب صناعاتها حتى تعتمد على الاستيراد من الغرب، وصولاً لبيع مواطنيها كعبيد في سوق النخاسة، ولا زال الاستعمار الغربي، يمارس هذه السياسة ولو بأشكال مختلفة، ولكن النتيجة واحدة: تخريب بؤادر التقدم في الدول العربية، وإغراقها في الديون، والحفاظ على حكامها تحت السيطرة والتهديد بالازالة عبر الغزو، أو تشجيع المعارضة المسلحة، أو المؤامرات إذا خالف الحاكم التعليمات.

لقد تعمقت الخيانة في بعض الحكام إلى درجة مواصلتهم تنفيذ مؤامرة قد يكون صانعها الاستعماري قد تخلى عنها، كما حدث حين أصرّ الرئيس (ترامب) على تنفيذ مخططه بصفقة القرن لصالح إسرائيل، وجند حكاماً عرباً، ليقوموا بالتطبيع، وهدد من رفض بالإزالة، وأوكل لأعوانه في المنطقة التنفيذ .. وبالرغم من هزيمة (ترامب) في الانتخابات وخروجه من دائرة التأثير، وقيام الإدارة الجديدة بإزالة معظم آثاره، والتراجع عن مخططاته وإلغاء سياساته قدر الإمكان، إلا أن بعض الحكام المتآمرين سابقاً مع (ترامب) واصلوا مخططهم الانقلابي؛ لتطبيق صفقة القرن لاسترضاء الصهاينة، .. أي؛ إن الخيانة أصبحت وجهة نظر لدى أجيال جديدة من الحكام العرب رعاة قطعان من الغنم السارحة للكلاء والماء، وهذا لا يشترط بأي خير ليس؛ لضعفهم وارتباطهم بالمستعمر الغربي فقط، ولكن بارتهان ذواتهم وحكمهم بوكيل الاستعمار الغربي؛ إسرائيل.

هناك بالطبع فارق شاسع بين الوقوع في براثن الانسياق للخصوم ونظرياتهم وطريقة حياتهم، ومن ثم تمجيدها، والدعوة لتقليدها، وتمجيد المقهور للقاهر، ومعاداة الذات، وبين رؤية الصواب في أخطاء حالنا، والسعي لأيضاح المستقبل وطرق التصويب .. المهم هنا هو عدم الإصرار على الخطأ الذي استمر لقرون طويلة، ناهيك عن رؤية الحل بالعودة إلى ذلك الماضي. لا بُدَّ من التذكير بكيفية نجاح العدو في الارتقاء الذاتي، وتحقيق أهدافه بسرعة الواحد تلو الآخر، بينما نحن نمخر في الجهل المتواصل إلى درجة يمكن معها الجزم أن نسبة عالية من أسباب نجاحات العدو تعود إلى جهلنا وضعفنا الذاتي أكثر مما هي قائمة على ذكائه المفرط، وإن كان لدى الخصم بعض الذكاء، فذلك يتضخم بالمقارنة فقط مع مستوى الغباء والجهل الجماعي الإجمالي لدينا، والعمالة والانكسار لدى قياداتنا.

على الرغم من كثرة الادعاءات والتّنظير لفكرة أن الكيان الإسرائيلي هو الديمقراطية الوحيدة في المنطقة، وأنه كيان يعتمد الأساليب العصرية والديموقراطية في إدراته لمؤسساته السياسية، وأنه كيان علمانيّ رأسماليّ، إلا أن قياداته لم تنجُ يوماً من تأثير الروايات الدينيّة والأيدولوجيّة، ولم تتوقف يوماً عن استغلال الدين والأيدولوجيا في خطابها الداخلي والخارجي، ويتميّز إنتاج القادة عبر هذه الديمقراطية الإسرائيلية بأن كل واحد جديد يفوق سابقه فساداً ويميّنة في التّطرّف المستند إلى الدين والادعاءات التاريخيّة والحضارية .. هذا التّهجّ الديني المتواصل سيؤدّي حتماً للعنصرية، وللتخلف، وللزوال ..

هذه حقيقة تاريخية ثابتة مهما طال انتظارها، بل إن سرعة تحقيقها يعتمد على نجاعة الطرف المقابل.

في ليلةٍ قدرٍ شهرِ رمضانَ 2021، اشتدَّ الصِّراعُ الاستيطانيُّ الصُّهيونيُّ الفلسطينيُّ حولِ حيِّ الشَّيخِ جِراحَ بالقدس، وحدثتْ صِداماتٌ في ساحاتِ الأقصى وقاعاته، ثمَّ هددتْ حركاتُ المقاومةِ الإسلاميَّة (إسرائيل) بكفِّ اليد، أو تحمُّلِ المسؤوليَّة. انهالتْ آلافُ الصُّواريخِ من غَزَّةٍ على فلسطين أُل 1948 بما فيها مدنٌ مثل؛ (تل أبيب)، وتحركَ الشَّعبُ الفلسطينيُّ في الدَّاخِل، وكأنَّ الزَّمنَ عادَ إلى قُبيلِ النِّكبة، وباشِرُ مُتطرِّفونِ يهودٍ بالهجومِ على العربِ في كلِّ فلسطين، والقيامُ بإحراقِ مُتبادلٍ لبيوتِ العبادة، والحالُ التَّجاريَّة. وفي لحظةٍ زادت فيها (إسرائيل) معيارَ العنصريَّةِ ذرَّةً إضافيَّةً انفجرَ الوضعُ من جديدٍ، وحميَ وطيسُ الشُّعاراتِ الدِّينيَّةِ والقوميَّة، وصعدتْ الحكومةُ (الصُّهيونيَّة) بشكلٍ جُنونيٍّ من قصفِها لقطاعِ غَزَّة..

والنتيجةُ الجليَّةُ؛ أنَّ (إسرائيل) لم تكن قد انتصرتْ بعدَ النِّكبةِ (التي توافقُ ذكراها الثَّالثةُ والسَّبْعونَ مع الهبة)، وإعلانِ كيانها وهزيمتها العسكريَّةِ للعرب، وتطبيعِ بعضهم معها قُبيلَ هذا التَّحوُّلِ النَّفسيِّ والأيديولوجيِّ الذي سيكون له توابُعُه المحليَّةُ والإقليميَّةُ والدَّوليَّةُ على المشروعِ الاستيطانيِّ اليهوديِّ.

محاولةُ الصُّهيونيَّةِ القديمةِ الحديثةِ وتنفيذِ نيتها هو (التموضع في سياقِ الصراعِ الحضاريِّ المفترض بين الحضارةِ الغربيَّةِ والحضارةِ

الإسلامية، باعتبار المشروع الصهيوني جزءاً من صراع حضاري أكبر بين الغرب والحضارة الإسلامية، وأنه يشكل خط الدفاع الأول عن الحضارة الغربية،-المدنية والعصرية والإنسانية- في وجه العالم الإسلامي الذي يصفه بالتطرف والتخلف والعدوانية. وأنه وحكومته جزء من الصراع بين الخير والشر وبين العالم المتحضر والعالم المتخلف، لذلك لا بد للغرب أن يقدم كل أشكال الدعم اللازمة لتمكين إسرائيل من القيام "بواجبها المقدس" في التصدي للعالم العربي والإسلامي. استخدم نتنياهو كل الأدوات الممكنة؛ لإقناع الغرب بهذه الرؤية ولتغيير صورة الكيان الإسرائيلي من قوة احتلال غاشم يمارس كل أنواع القمع والإرهاب بحق شعب أعزل، يناضل من أجل حريته وكرامته إلى دولة تسهم في حماية الغرب من خطر "مُتَوَهَّم" قادم من الشرق.) في لحظة ما سيُضح للغرب مجدداً أن هذا الدين أسوأ من ذلك ومن غيره، وأن لا فارق في المبدأ، وبالتالي الاشتراك في النتيجة.

تداخلت العوامل التي شجعت الدول الغربية على تبني فكرة الصهيونية باقامة دولة يهودية في قلب الشرق، وجلّها عوامل استعمارية، استراتيجية اقتصادية، وأقلّها العامل الديني، خصوصاً وأن تنفيذ الفكرة تزامن مع تطبيق مُتزايد للنظام العلماني في دول العرب. المعروف أنّ الاضطهاد العربي المسيحي لليهود في القرون السابقة قام على خلفية دينية، وبعد تُمادي النازية في اضطهاد اليهود ورفض الدول الغربية بمُجملها استقبال اللاجئين اليهود، ناسبتهم فكرة ترحيلهم الى فلسطين وأقامة وطن لهم هناك. كانت العلاقات العربية الإسرائيلية في

البداية متناغمة بالاعتماد على تفاهم الحكومات العلمانية مع النظام الإسرائيلي الاقرب جدا الى اليسار، والبعيد نسبيا عن النسق الديني اليميني الذي اشتد بسرعة لاحقا، وظهر ان هذا النظام عنصري ثوراتي. أفادت أوروبا وهي في فخ دعمها لنظام ديني يدعي العلمانية والديمقراطية بالرغم من ثبوت انه نظام احتلالي وتحوّل الى عنصري، ووسم من القوى المحايدة بأنه نظام فصل عنصري متمرّد على القيم الانسانية ويفضّح الاهداف لكل من يدعمه ويتعاون معه. بالطبع لا يوجد ما يمنع تعامل العرب مع دول دينية مثل الهند وإيران طالما انها غير احتلالية، ولا تعتمد في استمرارها على الدعم الغربي .. لكنّ الحالة الإسرائيلية مختلفة كنتيجة للنشاط اليهودي والإسرائيلي في بلدان الغرب ذاتها، وخصوصاً الولايات المتحدة، وترويجها للأفكار الدينية المستحدثة والرابطة بين البروتستانتية واليهودية، أي ؛ تنشيط للتوجّهات والسياسات الدينية بين شعوب الغرب، وهذا ما قد يعيد هذه الدول الى مربّع ما قبل العلمانية.

أي تمحيص في المرحلة وأسبابها ونتائجها للآن وتعقيدات سبيل إلى فعل صهيوني مؤثّر في الغرب، قام بإنتاج هذا الواقع الذي تبدلت فيه الأولويات، واختلت فيه البوصلة لدى العديد من القوى والدول في المنطقة؛ فأصبح البعض من الجبهة العربية الإسلامية الرسمية يرى في دولة الاحتلال صديقاً يمكن التعاون معه، وارتفع صوت المطبعين والمنظرين للتطبيع مع الكيان الإسرائيلي؛ طلباً لحمايته من أخطار وهمية

في الغالب قام الغرب والصهيونية بخلقها في الأصل. (الخطر الإيراني المزعوم يمكن تنفيسه، وتحويل العلاقات إلى الجوار الطيب لو توفرت الإرادة الحرة لدى قادة العربية السعودية، كما أن أحداث الأقصى في عيد فطر 2021 أوضحت فشل (إسرائيل) في حماية السماء فوقها، والأرض تحتها، فما بالك في التصدي لإيران، وحماية سماء الخليج وأرضه؟!).

أصبح من الجلي ارتباط مصير العرب والعروبة بحكام غير أكفاء، هم رهائن للمستغل الاستعماري الغربي المتواطئ تماماً مع إسرائيل. في المقابل فإن المخرج الوحيد هو تطوير الإنسان العربي بعيداً عن الخزعبلات التي لم تنجح طوال القرون الماضية. الحاكم لن يهتدي من ذاته، وسيحافظ على ارتباطه بالخارج، والغرب لن يتنازل عن مصالحه وهيمنته، وإسرائيل تتعمق في عنصريتها، وتواصل مسيرتها لإقامة إسرائيل الكبرى .. حتى لو حدثت معجزة ما لأبطأ الخراب القائم، فالنَّجاة تقترب بالإنسان العربي، وتقتصر على تحديثه.

موقعنا عام 3020

هل سنكون في المستقبل أم ربما تستمرُّ الأسطورةُ وسنعود لعام

1020؟

عمر الإسلام 1400 سنة ميلادية، وقد استغرق المسيحيون 1700 عام حتى ظهر لديهم فلاسفة عصر التَّنوير؛ ليدعوا الى فصل الدين عن الدولة بعد أن اقتنعوا بمسؤولية الدين عن رداءة الأوضاع السائدة. واستمرَّ النقاشُ والجدل والصراعات والحروب الدينية حتى توصَّلوا لاتفاقٍ "وستفاليا" 1645 الذي أقر وقف الحروب الدينية بين الملوك والدول، وثرَّكَ للملوك حرية اختيار معتقد رعاياهم، أي؛ فصل الملوك عن سلطة البابا الكاثوليكيَّة، ولكن بقيت سلطة الملك، لإجبار الرعايا على انتهاج أي دين يريده، ويحكمهم بتفسيراته. بعد بضعة قرون بدأت ثورات الشعوب الأوروبيَّة ضد سلطة ملوكها وكنائسها حتى تمَّ التَّوصُّل إلى نهج العلمانية الذي تأصَّلَ بعد الحربين العالميتين في القرن العشرين. هذه العلمانية لم تُلغ اعتناق الأديان، ولكن أنهت تحكمها في مجريات السياسة والحياة الدنيا، وسَمَّحت بوجود المؤمن بالأديان إلى جانب غير المؤمن بها بذات الحقوق والواجبات.

تُشتقُّ كلمة علمانية في اللُّغة والدَّهن العربيين من أصل علم، وبالتالي وجدت حالة من العداء بين الإيمان والعلم تلاشت تدريجيا تحت ضغط الحاجة للعلوم ومنجزاتها، وأتَّجه التعريفُ العربي (الوهابيُّ) إلى الأسهل، أي؛ اعتبار العلمانية نوعاً من الكفر. أما أصل

مصطلح العلمانية في أوروبا، فيأتي من اليونانية بمعنى العامة أو الشعب، أي عكس وضد الكهنوت الذي ساد. بمعنى آخر العلمانية لديهم هي؛ سلطة العامة ضد الكهنوت الديني.

هكذا استقرت العلمانية بعد ألفين عام من نشأة المسيحية وتوسّعها وانتشارها بين غالبية سكان الأرض، في مناطق محددة يمكن اعتبارها المتقدمة علمياً واقتصادياً، وحيث يعمُ الاستقرار، وحرية التعبير، وسيادة القانون والاحتكام للنظام الديمقراطي. أي، ارتبط التقدم والرخاء بسيادة العلمانية، واحترام مبادئها، التي لا تناهضُ أصلاً حرية اعتناق الدين للأشخاص، ولكنها تمنحُ الجميع حرية الفكر والمعتقد الشخصي سواء أكان الديني أم غيره.

إذاً، لو افترضنا انتهاجنا تقليد أوروبا باعتماد العلمانية، فهل نحتاجُ في العالم العربي والإسلامي إلى 600 عام أخرى، لتتوصل للعلمانية، ونطبّقها من دون إلغاء الديانات؟ ليس بالضرورة، فقد نستفيد من تواصل العالم، وتناقل المعلومات والرؤى، ونسرع الخطى إلى التقدم والنمو عبر تقليد النموذج العلماني الغربي من دون استهلاك كل الوقت الذي احتاجوه. المُعَوَّقُ أمام هذا الاحتمال هم الملوك والحكّام غير الديمقراطيّين والمتخوّفون من فقدان السلطة ومنافعها، ومعهم الكهنوت الدينيّ، وهم شيوخ السلطان على كثرة أنواعهم والذين يبيّثون السم ضد مبدأ العلمانية، ويرهبون الناس من احتمال تجريدهم من دينهم. ربّما تستمرُّ هيمنة هؤلاء المحتكرين للسلطة ألفَ سنة

أخرى بعد 2020، ورُبّما يقع العالم العربي تحت حكم قوى خارجية وهيمنتها، وتستفيد من الدين، وتستغله؛ لتثبيت حكمها، أو بالطبع تذويب الدين الإسلامي والعرب عموماً بعد أن ذابت فكرة العروبة والتّماسك والتّعاقد في نصف القرن السّابق لعام 2020. لكن هناك بالفعل احتمال سيادة الفكر الديني المتطرف وحكمه على غرار تجربة محسنة عن الدولة الإسلامية التي حكمت لبضع سنوات في غالبية مناطق العراق وسوريا. خصوصاً إذا نجح الإسلام السياسي في تحقيق إنجازات وطنية وقومية، وانتصار ولو مؤقت ضد الأعداء.

الذين يطالبون باعتماد العلمانية عربياً ليسوا أعداء للدين وللمؤمنين، هم أنصار للنّمُو والرّخاء والحرّيّة والاستقرار والديموقراطية. ربّما، بل بالتأكيد، هناك من بينهم من لا يمارسون التّعبد، ولا يأخذون بأي أصول للدين، وهناك شيوعيون أيضاً، لكن هؤلاء موجودون في المجتمع، وكونهم أنصاراً للعلمانية مثل غيرهم، فهذا لا يعيبهم ولا يعيب العلمانية، ولا يقلل من احترام أي مؤمن بالله واليوم الآخر. العلمانيون في المِجْمَل يريدون تقدّم المجتمع ونموه، ويرون في تجربة أوروبا مثلاً قابلاً للتطبيق حيث توجد الكنائس والمساجد، وللمؤمنين حرّيّة التّعبد كما لغيرهم حرّيّة الاعتقاد، ويحكم الجميع القانون المدني المتطور، والقابل لمواكبة الحياة، ويتقبلون الديمقراطية نظاماً للحكم والمحاسبة والتّغيير والتّبديل. إذا توافق المؤمنون مع غير المؤمنين في المجتمع الواحد على السعي للحرية والرّخاء والديموقراطية ضمن مبادئ العلمانية، فلن يتشقّق البناء المجتمعي إلا إذا حاولت فئة

استغلال الديمقراطية، وتسلم الحكم وفرض مبادئها ومعتقداتها على الجميع بقوة السلطة .. آنذاك ستعود الحروب الأهلية أو الطائفية، ويتدخل العالم الخارجي؛ للاستفادة، ويسود الخراب.

قد يقول قائل؛ لنعود إلى الإسلام القديم الذي أنجز فيه الأجداد الأجداد .. وهذه بصراحة مقولة عديمة، فأنت حين تعيد ذاتك ومجتمعك كله مثلاً إلى ذلك الزمان لن يكون بمقدورك إعادة بقية العالم إلى الوراء؛ لتهجم عليهم بالسيف والبعير، وتقطع رقابهم وتسي حريمهم، وتغنم أملاكهم، وتصبح سيد العالم لفترة كانت وجيزة أصلاً وانتهت بالخلافات. الصيّن لن تعود معك، وتتقبل أن تحتلها، ولا إسبانيا، بل يمكن حينها لأوروبا الأقوى منك أن تطردك من كل حوض البحر المتوسط الجنوبي والشرقي الذي كان قبل الإسلام من أملاك اليونان والرومان .. الفكرة سخيفة جداً، ولكن هناك من يطلقون الذقون، ويلبسون الصنادل والجلاليب الثلاثة أرباع كبدايه للعودة بالزمن للخلف.

من يريد العودة روحياً وأخلاقياً، فله ذلك بالطبع، لكن لا عودة قانونية تشريعية أو سياسية لذلك الزمان. العودة للماضي، وضمن أي أسس وشروط لن تحقق التقدم أو العدالة المجتمعية أو الحرية الشخصية، وقطعاً لن تخلق منابع القوة لاحتلال نصف الكرة الأرضية أو حتى تحرير السكّن الشخصي، وإضاءة البيت. الحكم السياسي الإسلامي (وكل الأديان) لم يكن عادلاً في أي لحظة، ولم يكن سلمياً البتة، لا منذ

اليوم الأول لموت الرسول ولا ضمن أي تطبيق سياسي إسلامي لاحق حتى القرن الواحد والعشرين .. كلها تجارب قهرية ظالمة استبدادية كهنوتية كانت تنتهي بالفشل والهزيمة العسكرية. كان الزخم الأول، والاحتلال للمحيط قائم على مبدأ الغزو للغنائم أولاً، وحين ينتهي الجمع والنهب والسلب والسبي كانت الحمية ضد غير المسلمين تهبط، وتنقلب الأمور فوراً للاقتال الذاتي الطائفي والقبلي والمنفعي .. فتقع الانتكاسات، ويتقدم أي خصم متوفر؛ ليحل في الفراغ القائم.

قبل أن يُدفن النبي وقعت الخلافات على السُلطة، وتعاظمت الخلافات إلى اغتالات للخلفاء الراشدين الذين يمثلون في الضمير الإسلامي خير فترات الحكم الرشيد المنشود!! سبى بنو أمية، أي جماعة أبي سفيان وزوجته هند، حق آل البيت في ورثة الحكم كما كانوا يتمنون، ولذلك اغتيل عثمان بن عفان، وقبله عمر بن الخطاب، وبعده الإمام علي الذي اراد الخلافة قبل أبي بكر. يعني آل البيت أرادوها خلافة وراثية، وبنو أمية ثبّتوها خلافة ملكية ووراثية، ومثلهم فعل العباسيون بعد إبادتهم للأمويين .. وبعد انتهاء الغزوات والسبي أصبح الخلفاء أجنب ومولدين، وأصلاً الغالبية العظمى للخلفاء المسلمين هم من أبناء جاريات وتربيتهن، كن ضمن آلاف الجواري للخليفة، ومن تلد صبياً تصبح أم ولد، ويحق لابنها تولي الحكم، وكان هؤلاء يستعينون بالقوى الأجنبية وبالمرتزقة كنتيجة لتربيتهم من امهاتهم، فأصبحت أسماء الأبطال المسلمين غريبة .. وهذا كله يمكن تقبله لو أدى إلى أي إيجابيات.

قبل أن نُصَفَق للبطل المغوار الذي هزم الأعداء المحتلين، يُفْتَرَضُ أن نسأل لماذا تمكَّن العدو أصلاً من احتلال بلداننا كل مرة، واستغلال ديننا ضدنا؟ ومع كل ذلك، وضمن أي تعليقات وحوارات وقناعات، فلا يمكن العودة للإسلام القديم؛ لتحقيق التَّقدُّم في عالم اليوم .. الإسلام كعقيدة، وضمن روحانيات شخصية وعادات موسميَّة يمكن تقبُّله، ولن يعيق التقدم والرخاء كثيراً، طالما بقي بعيداً عن السياسة والحكم والتشريع، وتنازل عن فرض إرادته على كل أفراد المجتمع.

كلما نُسِبَ للإسلام شيء سييء يدعي أصحابُ الثَّوَايا الحسنة أن ذلك العمل لا يُمْتُ للإسلام بصلة، والمنفذون ليسوا مسلمين فعلاً .. لكن التخلف في كل دول المسلمين هو بالتأكيد نتيجة لأفعال المسلمين، وعدم مواكبتهم العلوم والمجتمعات المتقدمة التي لم تلغ دياناتها. الإرهابيُّ الذي يذبح ليس مسلماً، والذي يخطف كذلك، والذي يضرب زوجته الأربع لا يُمَثِّلُ الإسلام، وقطع الأيدي والأرجل عن خلاف، والجلدُ لا يُمْتُ للإسلام بصلة، ولم يَقم أي حاكم أو خليفة بظلم النَّاس أو سلخ جلود المعارضين في الجامع يوم العيد كالخِراف، ولا يوجد في الإسلام عبید وإماء وجواري تباع وتشترى، ولا يوجد نظام ما ملكت أيمانكم من الإناث، ولم يورَّع الخليفة المال العام بالصُّرَرِ على منافقيه ورغباته ... ووو. بالطبع التطبيق الإسلامي الأحدث عبر الخليفة أبي بكر البغدادي في دولته الإسلامية، والذي استهوى الكثيرين، ليس إسلامياً هو الآخر .. أين هو إذاً التطبيق الإسلاميُّ الناجح، أو في أي زمان ومكان عبر التاريخ وُجِدَ؟ حتى الديانات الأخرى لم تفلح في إقامة دولة

الرخاء والحرية والأمان حتى الآن، وكانت إسبانيا آخر دولة دينية كاثوليكية في أوروبا يحكمها الدكتاتور (فرانكو) قد تحللت من حكم الكنيسة في أواسط السبعينات في القرن الماضي كشرط للانضمام للسوق الأوروبية المشتركة، ومن ثم شهدت نهضة متسارعة، وقفزت مراحل اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، بعد قرون طويلة من الظلام للاندلس وإسبانيا عاشتها في ظل الحكم الديني الكاثوليكي.

حين يكتمل ويتضح تحول إسرائيل إلى دولة يهودية؛ فستكون نهايتها هي الأخرى قد اقتربت، تماماً كما سقطت كل الدول الدينية في الغرب وحقت الفشل التام؛ ولا زالت في الشرق.

من يراجع مجيادية أي حقبة إسلامية سابقة، ومعتمداً على مراجع إسلامية عميقة، فلن يجدَ عقداً واحداً من الزمان يمكن اعتباره مثلاً يُحتذى به الآن، وقد يتمنى المرء القويم عقلياً العودة إليه. إذ كيف سيكون الوطن العربي الإسلامي بعد ألف عام؟ هل سيقرب من النهج العالمي، أم سيكون متمسكاً بتلايب ما قبل ألفي عام؟

المؤلف

عبد الجبار عدوان خريج دراسات عليا في العلوم السياسية والاجتماعية والإسلامية في ألمانيا. عمل طوال رُبع قرنٍ في مجالاتٍ إعلاميةٍ عدَّةٍ أثناء إقامته في لندن، ونُشرت له ثلاثة كتب عن الانتفاضة الفلسطينية الأولى. صدرت له عدَّة رواياتٍ: راوي قرطبة، سياسة في اللجنة، بومة بربرة، فتنة الكرسي، حافة الثور، أسرى الزمان، أحفاد وأجداد، قصص، وكتابُ شعب الجبارين، (وسيرة: صديقي زياد)

المؤلفُ مُدافعٌ صريحٌ عن حرية الفكر والمعتقد، محاربٌ في ممارساته ومؤلفاته ضد الخزعبلات والخرافات والأساطير المهيمنة على الفكر والفعل العربيين، لا يرى في العلمانية معاداةً للدين، ويرى أنَّ الدين السياسي قد تحوَّل إلى أداةٍ للتخلف.

أعمال المؤلف متوفرة للمطالعة هنا: <https://rawicordoba.com>

موقع: راوي قرطبة

حقوق النشر محفوظة للمؤلف

الغلاف: مجموعة صور، تسليم مفاتيح قصر الحمراء، توقيع اتفاقية كامب ديفيد، توقيع اتفاقية أوسلو، توقيع اتفاقية إبراهيم الطبيعية.